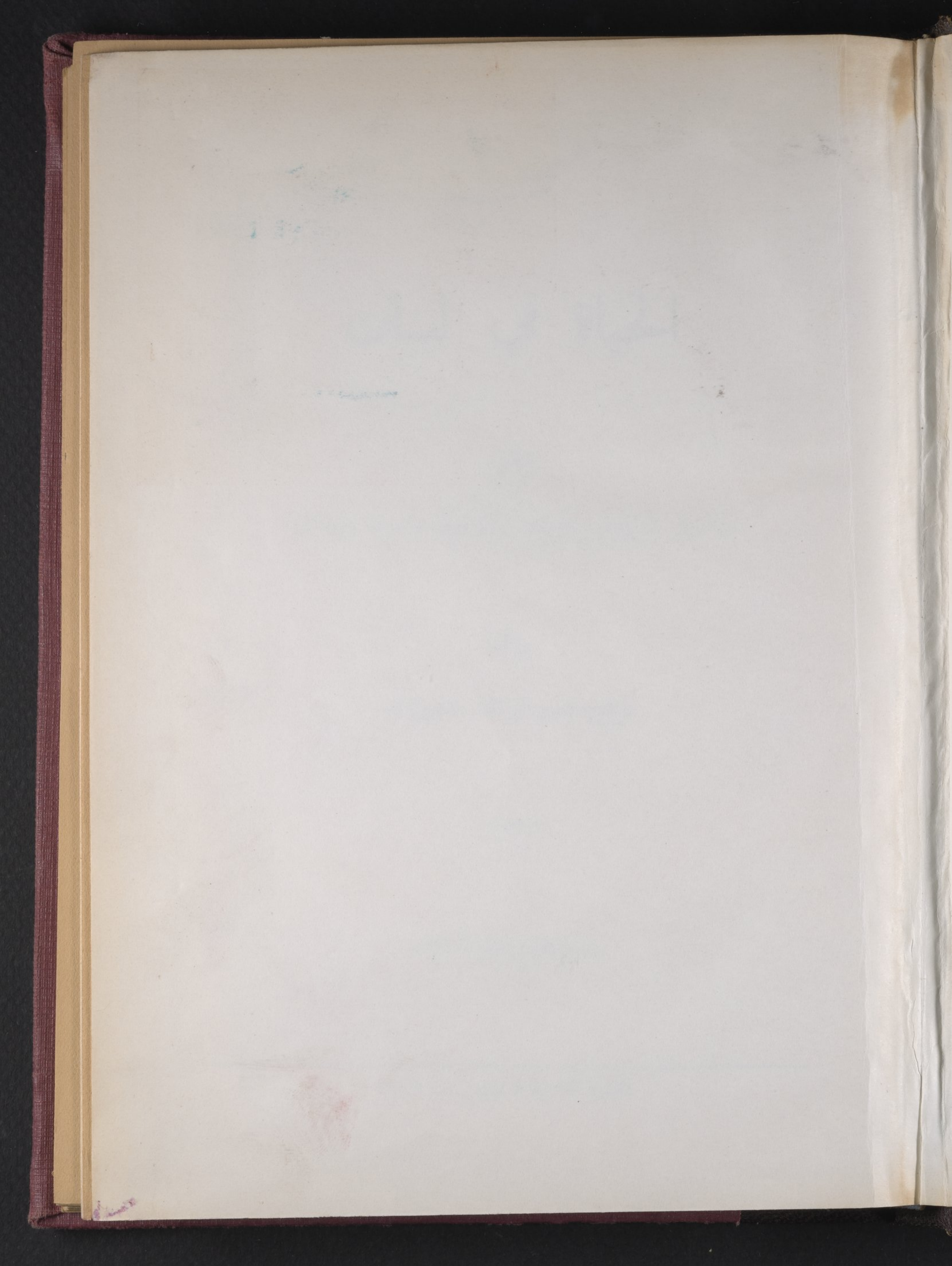

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00840 2954


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



E

F

ERSITY

الجامع

كتاب

الحياة في لبنان

يتضمن

مباحث تاريخية واجتماعية وفلسفية وادبية واخلاقية

لمؤلفهِ

توفيق حسن الجي نادر الشرنولي

المطبعة الادبية * بيروت سنة ١٩٢٧

كلمة

للاستاذ البليغ وديع افندي عقل

صاحب جريدة الوطن

اخي توفيق

تصفحت مجموعة خواطرك فجئت اصدقك الخبر عن اعجابي بها لانني وجدتها حاليةً باغلى مزايا الانشاء مبنىً ومعنىً

اما مبناها فمزيته خلوه من الحشو والتكلف ووروده على منوال ابن المقفع جذالةً وسلاسة

واما معناها فمزيته بعده عن المجاز واتحاده بالحقيقة ومجيئه عن محض الشعور والسجية

ويسرني ان اهنئك باسلوبك الخاص وطريقتك الجديدة فان ما انشأته تحت عنوان « الحياة في القرى اللبنانية » هو غاية ما يستطيعه الكاتب من التفنن في تصوير العادات والاخلاق بيد انك جئت به في سياقٍ جميل من المباحث الاجتماعية

ورأيتك في « سوانحك » قد ضارعت المنشىء الامير كي الكبير فرنكلين فان كل سانحةٍ منها احاطت بمضمون رسالة فكنت في بعضها فيلسوفاً وفي بعضها سياسياً وفي بعضها كاتباً اجتماعياً

لذلك امحضك التهنئة وارجو ان لا تجعلها بيضة الديك ولا بأس بزاويةٍ من مكتب تجارتك تخصها بما هو من سجيتك وهواك فانت مطبوعٌ على الادب ثم صرت الى التجارة وان لم يسعك ان تنفكّ عن هذه فلا يجمل بك ان تتخلف عن ذاك والسلام عليك من اخيك وديع عقل

كلمة

للدكتور النابغة الامير رئيف ابي اللمع

اخي توفيق

ربما اردتَ ان يكون شاهد عرسك[1] (عرّابا) كفيلاً لبكر تآليفك فتلك منّة اعتزُّ بها وافاخر . ولكنّ طبيباً مثلي — ولا اجسر ان اقول حكيماً فما كل طبيب بحكيم — يصرف فصول الحياة حول المنضدة بين الطفيليات والجراثيم فلا يرى سوى الوجوه الشاحبة والعيون الذابلة والقلوب الخافقة — ان طبيباً كهذا قلما يصلح لتدبيج نقد لغويٍ ادبي . . . الا اذا حسبتها امراضاً في جسم الاجتماع تود التحقق تحت عدسية المجهر مما يسببها من الجراثيم والآفات !

. . . .

قرأت (سوانحك) تباعاً عَلَى صفحات (الوطن) الاغر ولا اخفي عليك استفادتي منها واعجابي بها كل الاعجاب

لقد رأيتك تقود الكلام بألين زمام فتكون بفكرك اسرع من السهم في ممره حاداً سديداً الى الهدف المطلوب دون ما رهبة ولا تردد . ولا ابهام

يقولون ان الماضي للتاريخ . والمستقبل للغيب . وليس لنا سوى الساعة التي نحن فيها

---

(١) صاحب الكلمة هو « اشبين » المؤلف

ولكنَّ الحياة يا صديقي — ذكرى وامل — ومتى جردتها من هذا فهي حركة مادية تسيركما تسيرها القوة الدافعة بلا روعة ولا بهاء ولا جمال

ان الحاضر هو ابن الماضي وابو المستقبل . فمن لم يذكر ماضيه ويتدبر ليومه ويتعظ لمستقبله فهو طفل في معترك الحياة يقصر في المضمار قبل ان يشبّ . و يموت قبل ان يشيب !

ان الجاهل الغرّ هو من يعثر بحجرٍ واحدٍ مرتين !

ان سوانحك دروس قيمة في العادات والاخلاق يشعر بها كل انسان ولا يدرك كنهها الا الدماغ المفكر والقلب الحساس

هي عبر الماضي . وحكم الحاضر . وآمال المستقبل . رأتها عينك النبيهة فسبكها يراعك البليغ بعبارة سهلة وجيزة والايجاز كما تعلم هو الاعجاز

هي خواطر يراها كل انسانٍ فلا يسترشد بها الا الحكيم النقّاد

ان ناموس الجاذبية الذي ترتكز عليه دعائم العلم الحديث اكتشفه « نيوتن » من سقوط ثمرة احدى الاشجار التي كان يتفيأ ظلها

وان فن الجراثيم الذي جعل من الطب علماً منطقياً لا تخميناً ولا تدجيلاً قد شرع به (باستور) عندما تساءل كيف تخمر العجينة الصغيرة العجين !

. . . .

اهنئك صديقي واخي بمؤلفك الجديد الفريد جعل الله حظك منه قدر حبي لك واعجابي بك

رئيف ابي اللمع

مقدمة الكتاب

ليست صناعة الانشاء صناعتي فاعد نفسي من المنشئين فقد هجرت الوطن قبل بلوغي العشرين وهبطت الديار المكسيكية مشتغلاً في التجارة ولم ازل تاجراً ترفرف فوق مكتبي آلهة الاخذ والعطاء لا آلهة الكتابة والانشاء

ولكنني منذ صغري اميل الى صناعة القلم ميلاً لم تقوَ التجارة على ابادته وفي فؤادي نزعة الى الكتابة لم يقدر المال بما له من السطوة ان ينزعها مني لان الانسان حريصٌ على امياله ونزعاته مهما كانت مراتبه ومشاغله

كان السلطان عبد الحميد الثاني نزوعاً الى « النجارة » فلم تقف في سبيله عظمة الملك وابهة السيادة دون ان يشتغل بها في ساعات فراغه

فاذا دعاني الادباء متطفلاً فانا اشعر شعوراً حياً اني لم احترف صناعتهم من باب التطفل بل من باب الرغبة والميل ارضاءً لنفسي وضميري

وليس لي من غرضٍ من كتابي هذا سوى خدمة الناشئة اللبنانية فقد دونت في صفحاته ما كنت الاحظه واشعر به دون تكلف وتصنع لاني لا اقصد من ورائه الشهرة الادبية ولا المغانم المادية

ومن يترك وطنه صغيراً مثلي ثم يعود اليه بعد ان يقضي زهاء ثلاث عشرة سنة في ديار الغربة يرى فيه ما لا يراه المتخلفون الذين لم يتركوا ديارهم ولم يألفوا غير ربوعهم

فاذا بدر مني انتقاد في بعض المواضيع اللبنانية فذلك لا يصدر عني حباً بالانتقاد ولا رغبة في الحط من كرامة امتي التي اجلها عَلَى سائر الامم في كثير من الخلال بل جل ما ارغب فيه الاصلاح فهو ضالتي المنشودة

وان كنت على صوابٍ فيما كتبته كفاني فخراً لان اكون خادماً اميناً للبنان وان كنت مخطئاً يكن خطائي عن عجزي وقصوري لا عن سوء نيتي فيعذرني كرام قومي والكريم من عذر

وقد صدرت الكتاب بفذلكة صغيرة عن لبنان وتاريخ بعض مدنه وذكر اشهر مصيفاته اتماماً للفائدة واثبت ايضاً رحلتي الى فلسطين لا لكونها محاذية جغرافياً للبنان بل لانها تعرف بالارض المقدسة التي لها الاهمية الكبرى في نظر اللبنانيين والعالم اجمع

توفيق حسن الشرتوني

اهداء الكتاب

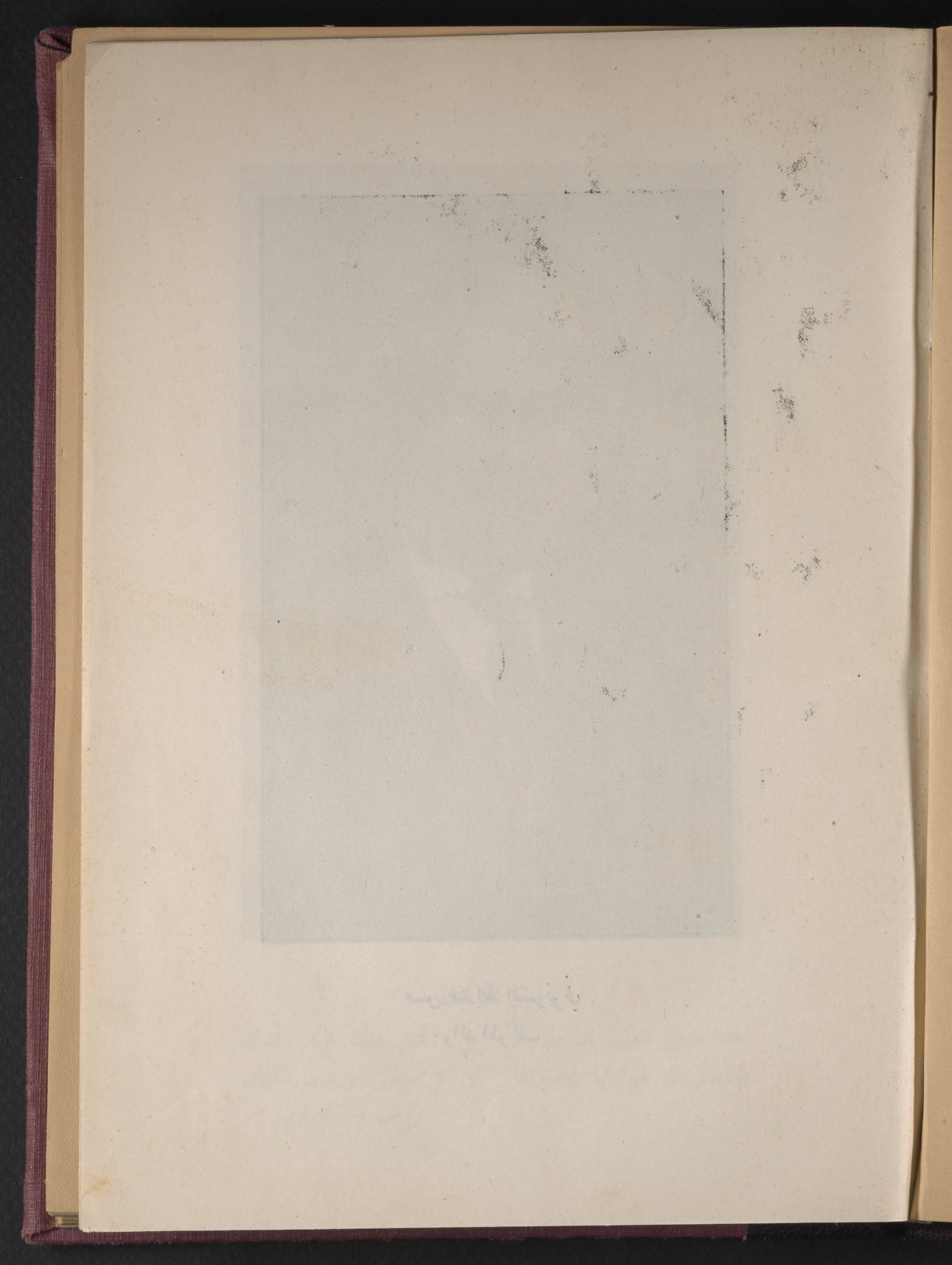
سيدي الوالد

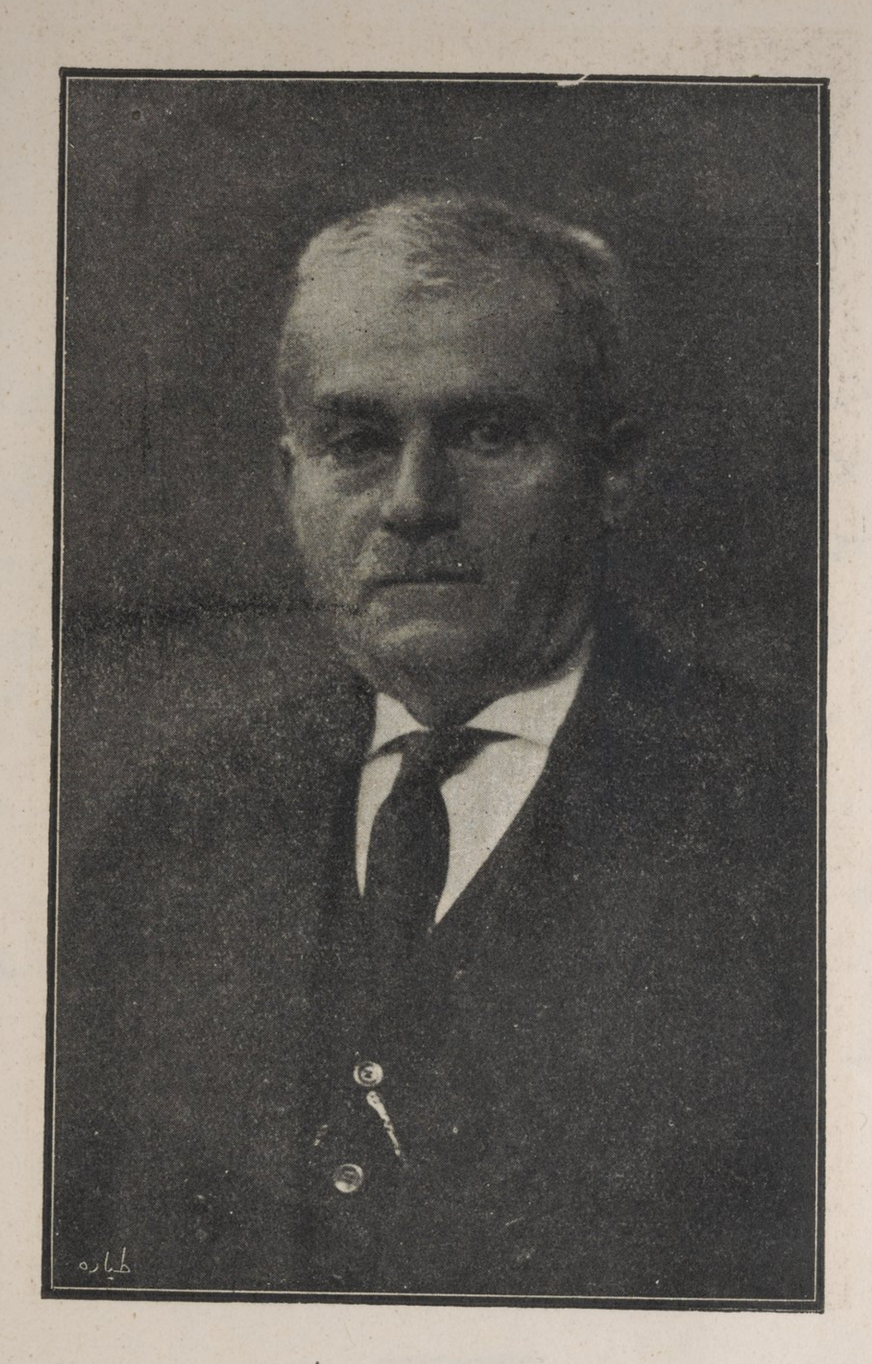
بعثت اليك منذ خمسة عشر عاماً من وراء المحيط بباكورة اعمالي المادية وها انا الان تحت سماء الوطن العزيز ارفع الى مقامك الابوي كتابي هذا باكورة اعمالي الادبية . فلك وحدك الحق الاول به لا لانك علة وجودي فقط بل لاني وصلتُ الى ما انا عليه الآن من جراء اعتنائك بي في طور الصغر واهتمامك في امر تهذيبي وتثقيفي فقد قمت بواجبك نحو بنيك كأب صالح . وانا الآن اقوم نحوك ببعض واجباتي كولدٍ برٍّ لافيك بعض دينك وليس لي بجانبك فضلٌ فالفضل كله مصدره منك لانك انت الدائن

واما انا فيكفيني فخراً ان اكون من الابناء الاوفياء لا من العقوقين الجاحدين نعمة الآباء

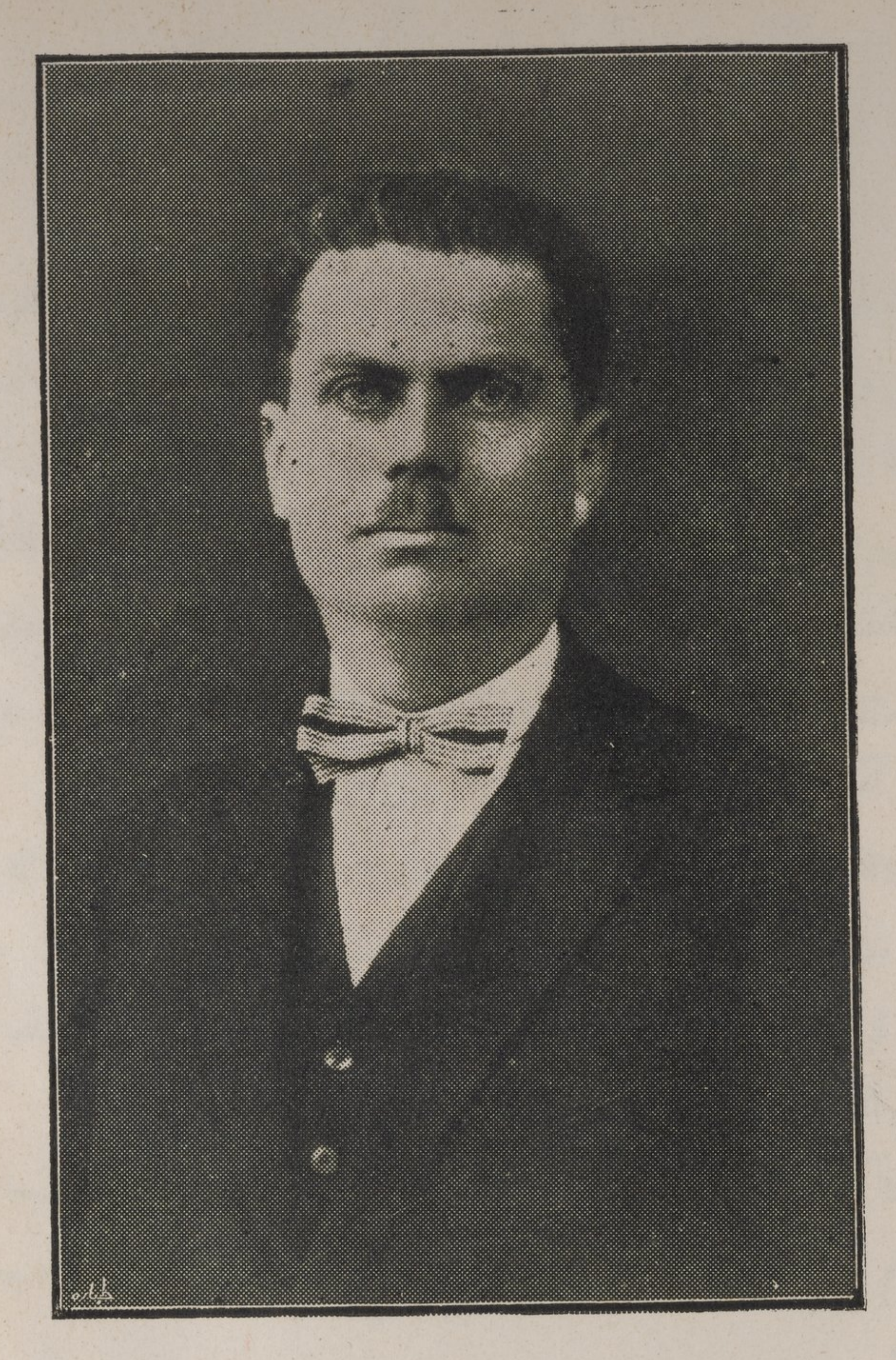
توفيق حسن الحاج نادر

الشرنوبي





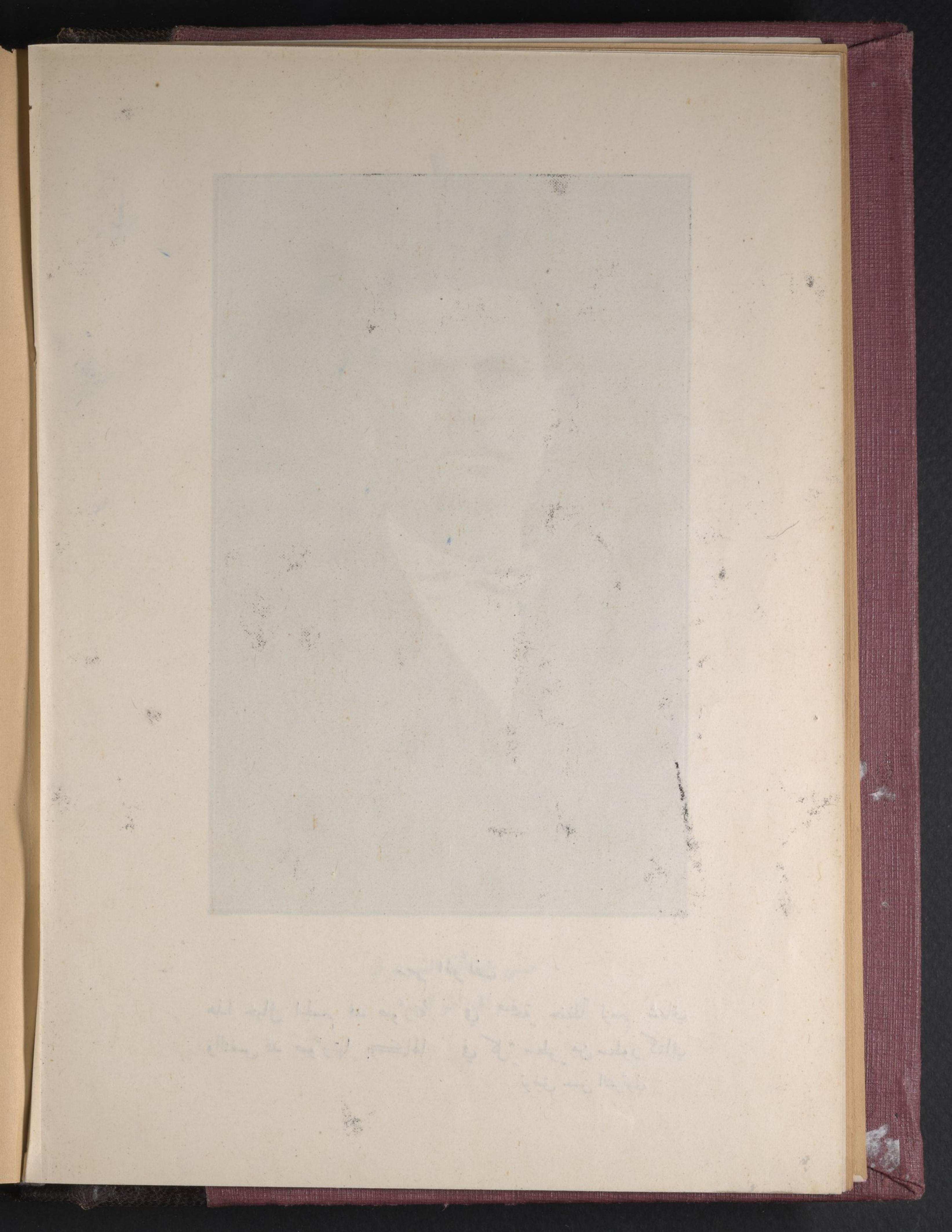
حسن عبدالله الشرتوني
والد المؤلف



رسم المؤلف

هذا خيال الجسم قد صوَّرتهُ في صفحةٍ حفظاً لرسم شبابي
والنفس قد صوَّرتها بكمالها في كلّ سطرٍ من سطور كتابي

توفيق حسن الشرتوني



لبنان

لبنان لفظة عبرانية معناها الابيض وهو واقع بين الدرجة ٣٣ من العرض الشمالي و ال ٣٥ منه . وقد كانت مساحته قبل الحرب العالمية في عهد الدولة العثمانية ٥٧٤٠ كيلو متراً مربعاً وكان مجموع سكانه زهاء خمسمائة الف نسمة معظمهم من المسيحيين . وقد بدأت مهاجرة اللبنانيين في اواخر القرن التاسع عشر فمضت تقريباً بنصف سكانه الى الاقطار الاميركية وافريقيا واوستراليا والتهمت المجاعة قسماً من ابنائه مدة الحرب العظمى وهو على الرغم من ذلك لم يزل آهلاً بالسكان لا يماثله في عمرانه جبل من جبال الارض

وقد اعيدت اليه الاراضي التي سلخت عنه سابقاً ونودي باستقلاله في ايلول سنة ١٩٢١ واتسعت مساحته حتى اصبحت اضعاف ما كانت عليه ودعي لبنان الكبير ثم اعلن جمهورية في اوائل سنة ١٩٢٦ عن يد المفوض السامي الافرنسي هنري دي جوفنيل

وهو الآن مؤلف من لبنان الصغير ومن اقضية عكار وطرابلس و بعلبك والبقاع ووادي التيم وصيدا وصور و بلاد بشاره و بيروت التي اصبحت عاصمته

جبال لبنان

ينقسم لبنان الى قسمين لبنان الغربي ولبنان الشرقي الذي يسميه الافرنج « انتيليبان » اما جبال لبنان الغربي فهي جبل المكمل واعلى قممه ظهر القضيب

٣٠٦٢ متراً وهي اعلى قمة في لبنان وفم الميزاب ٣٠٠٠ متر · وجبل عيناتا ٣٠٤٠ متراً وجبل عكار ٢٠٠٠ متر وجبال صنين وهي موءلفة من جبل صنين ٢٦٠٨ امتار وجبل الكنيسة ٢٢٠٠ متر · وجبل اللقلوق غربي العاقورة ١٩٨١ متراً جبال الباروك واعلى قممها جبل العجل ٢٤٥٠ متراً · تومات نيحا واعلى قممها جبل نيحا ١٨٥٠ متراً وجبل الريحان ١٧٠٠ متر وجبل اليرموك ١٦٠٠ متر

واما لبنان الشرقي فيشتمل عَلَى جبل قاره وجبل حليمه وجبل النبي باروك وجبل الشقيف وجبل الزبداني وجبل الشيخ وعلوه ٢٨٢٧ متراً وهو اعلى قمة في الجبل الشرقي

ان لبنان الغربي اكثر خصباً وابهج منظراً واوفر عمراناً من لبنان الشرقي حيث يرى الانسان القرى والمزارع متلاصقة وطرق العربات كثيرة ومتوفرة في جميع انحائه واما لبنان الشرقي فلا يرى فيه شيئاً من ذلك

سهول لبنان

لا يوجد في لبنان سهول كثيرة لان الجبال تشمل معظم مساحته ولكن فيه ثلاث سهول

اولاً السهل الفينيقي ويمتد على طول جبل لبنان من الشمال الى الجنوب الغربي فيبتدئ من اوائل تلول لبنان الغربي وشاطيء البحر وينتهي في سهل عكا · وهو جيد التربة بوجه الاجمال كثير الخصب تنمو فيه النباتات المختلفة والاشجار المتنوعة التي تنمو في الاراضي الحارة كالبلح والموز وخلافهما وتزرع

فيه جميع انواع الحبوب والخضر والفاكهة وقصب السكر والتوت ٠

ثانياً سهل البقاع وهو قائم بين لبنان الشرقي ولبنان الغربي ويمتد من الشمال الى الجنوب على مسافة ١٥٠ كيلو متراً ومن الشرق الى الغرب على مسافة ١٣ كيلو متراً وفي بعض الجهات اقل من ذلك و يعلو عن سطح البحر ٩٠٠ متر وهو كثير الخصب واهم حاصلاته الحبوب والفاكهة والحرير ٠ وفي الجهة الشمالية منه تبدو قلعة بعلبك التي تعد في بنيانها من اعجب عجائب الدنيا

السهل الدمشقي وهو في لبنان الشرقي يتصل من الجنوب بسهول حوران ومن الشمال بوادي العاصي وعرضه ٦٠ كيلو متراً وعلوه ٧٣٠ كيلو متراً وهو غاية في الخصب لكثرة مياهه وجودة ارضه

انهر لبنان

ليس في لبنان انهر عظيمة تصلح للملاحة اولاً لعدم غزارة مياهها وثانياً لسرعة انحدارها ومعظمها يصب في البحر المتوسط ما عدا بعضها فانه يختفي في الصحراء واما اهم انهر لبنان فهي :

النهر الكبير وهو ينبع من جبل عكار على مسافة ٩ كيلو مترات من طرسوس

النهر البارد وهو يخرج ايضاً من جبال عكار مع نهر عرقا ويصب على مسافة ١٣ كيلو متراً شمالي طرابلس٠ نهر قاديشا ومعناه النهر المقدس وهو يخرج من سفح جبل المكمل تحت ارز لبنان المشهور وينحدر في واد عميق يبلغ عمقه ثلاثمائة متر و يعرف بوادي قاديشا او وادي قنوبين حيث هناك

دير قنوبين المشهور الذي كان في العهد الماضي مركز بطريركية الموارنة ·
وينضم الى نهر قاديشا انهر عديدة قبل ان يصب في البحر شمالي طرابلس

نهر الجوز وهو يخرج من قرية كفرحلدا على مقربة من المسيلحة ويصب في البحر شمالي البترون ·

نهر ابراهيم وقد دُعي باسم الامير ابراهيم احد امراء الموارنة وكان يُعرف قديماً بنهر ادونيس الاله تموز الذي كان يعبده اهل جبيل · وهو يخرج من مغارة افقا الشهيرة ومن نهر الرويس القريب من جسر الحجر المؤدي الى العاقورة ويصب في البحر المتوسط جنوبي جبيل بعد ان يقطع مسافة عشرة كيلومترات

نهر الكلب وهو يخرج من مغارة جعيتا وقد جرَّ قسماً من مياهه الى مدينة بيروت ويصب في المتوسط بين جونيه وضبيه

نبع العسل ونبع اللبن — يخرج نبع العسل من لحف جبل شرقي قرية فاريا ونبع اللبن من الجبل نفسه على مسافة قصيرة جنوبي الاول وهما يصبان في المتوسط

نهر بيروت ويعرف قديماً بنهر ماغوراس واصله نهران الاول ينبع بالقرب من كفرسلوان وترشيش في المتن والآخر بالقرب من فالوغا وحمانا وهو يصب في البحر المتوسط إزاء خليج مار جرجس · ويمر تحت قناطر تعرف بقناطر زبيدة ويقال ان زينب ملكة تدمر هي بانية تلك القناطر وله جسر جميل بالقرب من الحازمية بناه رستم باشا ثالث حاكم للبنان بعد دستوره الدولي وفي جانبه حديقة غنّاء انشأها الحاكم المذكور ايضاً

نهر الدامور ويعرف قديماً بنهر داموراس او تاميراس ويتكوّن من عدة ينابيع اهمها الصفا والقاع بجوار عين زحلتا ونهر عين داره ونهر الغابون الذي يخرج من بخشتيه وتجتمع هذه الانهر في جسر القاضي ومن هناك تأخذ مجرىً واحداً الى الدامور حيث يروي سهلها المعروف ثم يصب في البحر جنوبي تلك البلدة بعد ان يقطع مسافة ٣٢ كيلومتراً

نهر الاولي وكان يعرف قديماً بنهر بسترونيس وهو يجري بالقرب من صيدا ويسقي بساتينها المشهورة . ويتكوّن من عدة ينابيع اهمها نهر الباروك ونهر جزين ويصب في المتوسط شمالي صيدا بعد ان يجتاز زهاء ٥٣ كيلومتراً

نهر القاسمية ويعرف بنهر الليطاني وهو ينبع شمالي البقاع بالقرب من بعلبك ويعرف هناك بنبع العليق وهو يسقي قسماً من البقاع ثم ينقسم الى قسمين قسم ينتهي الى نهر العاصي والقسم الثاني يجري الى الليطاني الذي يتكوّن من انهر عديدة اهمها نهر البردوني الذي ينبع من سفح جبل صنين في الجهة الغربية ويمر في مدينة زحله فيشطرها شطرين ونهر الغزير الذي يخرج من الجبل الشرقي ويتكوّن من ينابيع عديدة

نهر بردى ومعناه البارد وهو ينبع في شمالي لبنان الشرقي وينضم اليه نبع الفيجه وهو يروي سهل دمشق وغوطتها الجميلة ثم يصب في البحيرة القبلية الواقعة بالقرب من البحيرة الشرقية ويجتاز زهاء ٣٦ كيلومتراً

نهر النعمان يخرج في سفح تل الكرداني ويكوّن بحيرة محيطها اربع كيلومترات ثم يخرج منها الى الغرب ويصب في البحر المتوسط بعد اجتيازه مسافة ٩ كيلومترات تقريباً

مدن لبنان

بيروت

هي عاصمة لبنان موقعها في الدرجة ٣٣ و ١٠ من الطول الشرقي و٣٣و٥٠ من العرض الشمالي و يبلغ عدد سكانها مائة الف نسمة ثلثاهم من المسيحين وهي تعد من اعظم المدن الساحلية في سوريا واوفرها رقياً وتمدناً وافخمها بناءً واوسعها تجارة . ويقال ان اهالي جبيل هم الذين انشأوها في عهد الفينيقيين ثم بلغت اوج مجدها حينما كانت تحت السيادة الرومانية وقد جعلها مرقص اغريبا بامر اغوسطس قيصر مستعمرة عسكرية وشاد فيها القصور الفخمة وارتفع شأنها من ذلك الحين . ومنح اهلها حقوق الرومانيين انفسهم. وقد اشتهرت بيروت بعلم الفقه و بنسج الاقمشة الحريرية ودُعيت في عهد الامبراطور يوستينيانوس مدينة الشرائع والنواميس و بقيت في نضارتها وعمرانها الى منتصف القرن السادس فدمرتها الزلازل . وقد فتحها العرب سنة ٦٣٥ ثم انتزعها الصليبيون منهم بقيادة بلدوين الاول ملك اورشليم سنة ١١٦٠ واسترجعها صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٧ بعد معركة حطين الشهيرة ولكنها لم تلبث طويلاً في ايدي العرب فقد دخلها الافرنج ثانية وبقيت في حوزتهم الى سنة ١٢٩١ . ثم استولى عليها الملك الاشرف صلاح الدين خليل احد ملوك الديار المصرية وظلت تحت ولاية مصر الى سنة ١٥١٧ فدخلت في حوزة

الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الاول وقد تولاها الامراء التنوخيون في القرن السادس عشر ثم الامراء المعنيون ثم الشهابيون وفي سنة ١٨٣١ افتتحها ابراهيم باشا المصري ولم تطل اقامته فيها فرجعت سنة ١٨٤٠ الى احضان الدولة العثمانية وقد كانت ايالة تابعة صيدا ثم متصرفية تابعة لولاية سوريا ثم اصبحت ولاية بنفسها . وبعد الحرب العالمية وخروج الدولة التركية من سوريا اصبحت عاصمة لبنان الكبير وقد ابتدأ رقيها الحديث منذ سنة ١٨٤٠ وازداد عمرانها وتعد اليوم من امهات مدن الشرق وهي مشهورة بمعاهدها العلمية التي يؤمها الطلاب من القطر المصري وفلسطين والعراق وجميع الاقطار العربية وفيها من الصحف ما ينوف عن خمسين جريدة ومجلة وهذا كله يدل على رقي اهلها وتقدمهم في ميدان الحضارة والعلم

جبيل

هي اقدم مدينة فينيقية واقعة في شمال بيروت وتبعد عنها ٣٥ كيلومتراً . وقد كانت مدينة كهنوتية ذات نفوذ عظيم ويقال في التقاليد الفينيقية ان الاله ايل هو الذي بناها وكانت تدعى المدينة المقدسة في نظر الشعوب القديمة وعدد سكانها اليوم الفا نسمة وهي اهم مدينة اثرية في لبنان

طرابلس

ان مدينة طرابلس واقعة في الشمال الشرقي من بيروت تبعد عنها ٨٠ كيلومتراً تقريباً ونفوسها حسب الاحصاء الاخير ٣٧ الفاً معظمهم من

المسلمين . وهي تنقسم الى قسمين قسم يدعى الميناء وموقعه على شاطيء المتوسط والقسم الثاني يدعى طرابلس . وهي مشهورة بصناعة الصابون ومعاصر الزيت واهم حاصلاتها الحرير والفاكهة على اختلاف انواعها واخصها البرتقال وتعد الميناء الثانية في لبنان وفيها خط حديدي يربطها بحمص وحماه

صيدا

ان مدينة صيدا واقعة على شاطيء البحر المتوسط في الجنوب الغربي من مدينة بيروت وتبعد عنها ٤٨ كيلومتراً وهي مشهورة بجنائنها الفسيحة ورياضها الغناء . وقد سميت صيدا نسبةً الى صيدون بن كنعان بن حام بن نوح وكانت اول نشأتها بلدة حقيرة لصيد السمك ثم اصبحت من اعظم المدن الفينيقة بعد سقوط مملكة جبيل وبيروت ويقال ان اهلها هم اول من ركبوا البحار وحملوا متاجرهم الى جميع الاقطار وهم الذين اكتشفوا اللون الارجواني واستخرجوا مواده من حيوانات بحرية فكانوا يصنعون البرفير الذي كان يلبسه الملوك الاقدمون وهم الذين استنبطوا صناعة الزجاج والاواني الخزفية والنقش والحفر والمصنوعات المعدنية كالنحاس الاصفر وخلافه ويعزى الى الفينيقيين ايضاً استنباط احرف الهجاء . وقد اخذها اليونان عنهم واقتبسها الرومان عن اليونان واورثوها غيرهم

وقد بسطت مدينة صيدا سيادتها على كل مدن فينيقيا وبقيت زاهرة زاهية الى ان دمرها الفلسطينيون في القرن الثالث عشر قبل المسيح . فانتقلت السيادة الى مدينة صور . وفي اواسط القرن التاسع استولى الاشوريون عليها

وعلى سائر المدن الفينيقية ثم انتقلت الى ايدي الكلدان والفرس ثم استولى عليها اسكندر المكدوني ثم الرومان في بدء العصر المسيحي وقد بقيت تحت ايالتهم سبعة قرون وفي سنة ٦٣٥ مسيحية افتتحها العرب وبقيت في حوزتهم الى ان دخلها الصليبيون ثم امتلكها صلاح الدين الايوبي ثم استرجعها الافرنج ثم وقعت في حوزة المصريين ثم الحقت في القرن الخامس عشر بالدولة العثمانية في ايام السلطان سليم الاول

وقد بقيت كذلك الى الحرب الكبرى فضمت الى لبنان وهي قاعدة محافظة لبنان الجنوبي ويبلغ عدد سكانها ١٢ الف نسمة معظمهم من المسلمين

صور

ان مدينة صور واقعة في الجنوب الغربي من صيدا وتبعد عنها ٤٠ كيلومتراً ومعنى كلمة صور في اللغة الفينيقية «الصخرة» لان المدينة انشأها الملك حيرام الفينيقي على شبه جزيرة صخرية . وقد بعث ملكها الى داود وابنه سليمان خشب الارز من لبنان وارسل اليهما الصناع الفينيقيين لاجل بناء هيكل اورشليم . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح نزحت اليسار شقيقة بيكماليون ملك صور الى افريقيا مع بعض اعوانها وانشأت مدينة قرطجنة بالقرب من تونس . وفي سنة ٥٧٤ سقطت صور في يد بختنصر ملك الكلدانيين واسر ملكها واعيانها واتى بهم الى بابل ومن ذلك الحين فقدت مجدها وعظمتها واخذت قرطجنة السيادة من بعدها . وبعد هذا التاريخ تعاقبت عليها الادوار التي تعاقبت عَلَى صيدا . وهي اليوم قاعدة محافظة بلاد بشاره

ويبلغ عدد سكانها سبعة الاف نسمة معظمهم من الشيعيين . واهم حاصلاتها الحبوب والحرير

بعلبك

مدينة صغيرة تعلو عن سطح البحر ١١٧٠ متراً وهي واقعة في الشمال الشرقي من سهل البقاع وفي الشمال الغربي من دمشق وتعد من اقدم مدن العالم كما يستدل من الاثار العظيمة الموجودة فيها ويظهر انها كانت عاصمة مملكة كهنوتية ثم تحولت الى مدينة تجارية لاهمية موقعها الجغرافي ويقال ان الفينيقيين هم الذين انشاؤها وخصصوها لعبادة الاله بعل ولهذا السبب سميت بعلبك وقد حار المؤرخون في امر بناء قلعتها المشهورة التي تعد من اعجب عجائب الدنيا لانه يوجد بين حجارتها ثلاثة طول الواحد منها ١٩ متر ونصف وعلوه اربعة امتار وثخانته ٣ امتار وهي مبنية على علو سبعة امتار عن الارض فكيف قدر البناؤون ان يرفعوا هذه الحجارة الى ذلك العلو الشاهق ولا آلات رافعة عندهم . واما مسافة القلعة فتبلغ ٣٠٠ متر طولاً و١٨٠ متراً عرضاً واهم ما فيها هيكل الشمس فهو من عجائب الزمان في دقة صنعه وجمال نقشه . ويقال ان الباني لهذه القلعة هو انطونين الملقب بالتقي سنة ١٦١ قبل المسيح وفي اوائل القرن الثالث بنى قسطنطين هيكلاً على اسم العذراء على انقاض هيكل الزهرة ثم شيد الامبراطور ثادوسيوس سنة ٣٧١ كنيسة عظيمة على انقاض الهيكل الكبير ومما لا ريب فيه ان الرومان هم الذين اتموا الهيا كل العظيمة الموجودة ضمن القلعة . وقد افتتح العرب بعلبك بقيادة ابي عبيدة سنة ٦٤٣ وفي سنة ١١٣٩ دخلت في حوزة الامير

زنكي صاحب دمشق ثم غنمها صلاح الدين الايوبي سنة ١١٧٥ ثم جاءها تيمورلنك غازياً سنة ١٤٠٠ واعمل فيها السيف والنار وقد اتمت الزلازل خرابها سنة ١٧٥٩ وقد الحقت بالدولة العثمانية في ايام السلطان سليم الاول وضمت بعد الحرب الكبرى الى لبنان · ويبلغ عدد سكانها عشرة الاف نسمة معظمهم من الشيعيين وفيها ماخلا قلعتها المشهورة فنادق متقنة ومتنزهات رائعة تخلب الالباب كمحلة راس العين وخلافها ويؤمها السياح من جميع اقطار العالم · وليس فيها صناعة تذكر واهم حاصلاتها الحبوب والفاكهة

زحلة

مدينة زحله واقعة في غرب سهل البقاع تبعد عن بيروت سبعين كيلومتراً وتعلو ٩٥٠ متراً عن سطح البحر · ونهر البردوني يشطرها شطرين وهي مشهورة بعنبها وخمورها وواديها الجميل المدعو وادي العرائش الذي يعد من ابهج مناظر لبنان وزحلة من المصائف الممتازة ويبلغ مجموع سكانها ١٤ الفاً جلهم من المسيحيين

يقال ان اسمها مشتق من الاله زحل ولكن يرجح انها دعيت زحلة لان ارضها كانت تزحل من آونة الى اخرى في جهتها الشرقية ويرجع تاريخ بنائها الى القرن السادس عشر وقد اهتم الامراء اللمعيون بتحسينها وزيادة عمرانها وهاجمها الاكراد سنة ١٧٩١ واحرقوها وما عتمت ان رجعت الى سابق عهدها وزادت عمراناً وهي اليوم تعد من امهات مدن لبنان واهم حاصلاتها الخمر والحبوب

دير القمر

مدينة صغيرة تعلو عن سطح البحر ٩٠٠ متر ويبلغ مجموع سكانها ثلاثة آلاف نسمة كلهم من المسيحيين وقد دعيت دير القمر نسبةً الى حجر عثروا عليه بالقرب من كنيستها شيدة التلة · وكانت هذه المدينة عاصمة لبنان في عهد الامراء المعنيين والشهابيين وفيها عدة ابنية تاريخية اهمها قصر الخرج الذي بناه الامير فخر الدين المعني وقيسارية الحرير التي هي من بناء الشهابيين وقصر آل باز المشهور · ويقرب من دير القمر بلدة بيت الدين المشهورة بسرايها العظيم الذي انشأه الامير بشير الكبير على الطراز الشرقي وجعله مسكناً لعيلته وجلب اليه الماء من نبع البقاع بجوار عين زحلتا · ويعد هذا السراي من الآثار اللبنانية الخالدة

اشهر مصائف لبنان

اهدن : بلدة كبيرة في شمال لبنان تعلو عن سطح البحر ١٥٠٠ متر وهي ممتازة في جمال موقعها ووفرة غاباتها وكثرة ينابيعها واخصها نبع مار سركيس الذي يعد من اجمل متنزهات تلك البقعة · وفيها ابنية متقنة وفنادق ممتازة

بشري : بلدة عامرة بالقرب من اهدن واقعة في سفح جبل المكمل غربي الارز على علو ١٤٥٠ متراً عن سطح البحر وفيها متنزهات جميلة جداً وينابيع كثيرة وابنية متقنة

حصرون : بلدة جميلة قريبة من بشري قائمة على شفير وادي قاديشا

تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً وهي مشهورة بكرومها وغزارة مياهها و كثرة بقولها واثمارها . وفيها كثير من المنازل المتقنة والفنادق الجميلة و يقرب منها قصر الديمان المشهور الذي هو مصيف بطريرك الموارنة

حدث الجبة : موقعها في شمال لبنان على رابية بالقرب من الديمان تعلو عن سطح البحر ١٣٠٠ متر هواؤها جاف منعش ومركزها الطبيعي من اجمل مراكز لبنان الشمالي

ريفون : قرية صغيرة من اعمال كسروان تعلو عن سطح البحر ٩٥٠ متراً وتشرف عَلَى جبال صنين والمتن و بيروت والبحر ومناظرها الطبيعية من ابهج المناظر وهي طيبة الهواء والماء

فيطرون : قرية صغيرة في جرود كسروان تعلو عن سطح البحر ١٢٠٠ متراً ولا تقل عن ريفون في جودة هوائها وطيب مناخها وهي بلدة اصطياف ممتازة

عجلتون : قرية كبيرة في قلب كسروان تعلو عن سطح البحر ٧٢٠ متراً وهي تشرف على جبال صنين والمتن و كسروان والبحر . هواؤها معتدل ومناخها جيد للغاية ومناظرها فتانة

بيت مري : بلدة قريبة من بيروت تعلو عن سطح البحر ٧٠٠ متر وهي قائمة على رابية تشرف على جهات عديدة من لبنان ومحاطة بالغابات الجميلة والبساتين والكروم وفيها من الفنادق والابنية ما يروق في اعين طلاب الاصطياف والنزهة

برمانا : قرية عامرة من قرى المتن تبعد ربع ساعة عن بيت مري وهي

مشهورة بحسن موقعها وجمال ابنيتها و كثرة فنادقها ووفرة غاباتها وتعلو عن سطح البحر ٧٥٠ متراً

بكفيا : بلدة كبيرة في قضاء المتن واقعة على علو ٩٥٠ متراً وتعد من اهم مصائف لبنان سواء كان في مناظرها الطبيعية ام في فخامة ابنيتها واتقان فنادقها وفيها متنزهات جميلة للغاية كمحلة ظهر الباز وخلافها

ظهور الشوير : قائمة على رابية بالقرب من بكفيا وتشرف على الجهات الاربع فيرى الانسان امامه الجبال والاودية والسهول والقرى العديدة وبيروت والبحر . ناهيك بما فيها من المباني الجميلة القائمة بين غابات الصنوبر وقد اصبحت في الاونة الاخيرة قبلة المصطافين وطلاب النزهة . وهي تعلو عن سطح البحر ١١٥٠ متراً

ويعد من اهم مصائف المتن ايضاً حمانا المشهورة بشاغورها وواديها الجميل وفالوغا الموصوفة بمائها المعدنية والخنشاره وبجنس والمروج وبيت شباب وراس المتن وعين عار وقرنة شهوان وصليما وقرنايل وبسكنتا وكفر سلوان

عاليه : مدينة صغيرة في قضاء الشوف تعلو عن سطح البحر ٧٨٠ متراً وهي اجمل واكبر مصائف لبنان اولا لوقوعها بالقرب من بيروت على خط السكة الحديدية وثانياً لجودة مناخها واعتدال هوائها وكثرة فنادقها وفخامة ابنيتها وجمال مناظرها وفيها مدرسة الجامعة الوطنية المشهورة

سوق الغرب : بلدة جميلة قريبة من عاليه يؤمها المصطافون من كل جانب لحسن موقعها وقربها من بيروت

بحمدون : قرية كبيرة من قرى الشوف تعلو عن سطح البحر ٩٥٠ متراً

وتبعد عن بيروت ساعة في السيارة هواؤها جاف منعش وعنبها لذيذ مشهور وفنادقها جميلة وابنيتها متقنة وتعد من المصائف الممتازة في لبنان وهي واقعة ايضاً على خط السكة الحديدية

عين صوفر : بلدة صغيرة واقعة فوق بحمدون على الخط الحديدي تعلو عن سطح البحر ١١٥٠ متراً وتشرف على وادي حمانا الجميل وعلى معظم جبال المتن والبحر . وهي تعد من اجمل مصيفات لبنان

ويوجد في الشوف من المصائف الممتازة ايضاً عبيه وعيناب وعيتات وشرتون ورشميا وعين زحلته والباروك ودير القمر وبتدين وبعقلين والمختاره

جزين : بلدة كبيرة في لبنان الجنوبي تعلو عن سطح البحر ٩٠٠ متر . وتعد في الدرجة الاولى بين مصائف لبنان سواء كان في جمال موقعها الطبيعي وغذارة مياهها ام في فخامة ابنيتها و كثرة فنادقها وشلالها الرائع اشهر من ان يوصف . وفيها عدة متنزهات مشهورة كمحلة عزّيبة وخلافها

ويتلو جزين في لبنان الجنوبي بكاسين وهي محاطة بغابات الصنوبر وهواؤها متصف بالجودة وملائم للصحة . ويوجد ايضاً في لبنان الشمالي وكسروان قرى عديدة قابلة الاصطياف ما خلا التي ذكرتها مثل عرمون وعشقوت ودرعون والكفور والغينة وميروبا وقرطبا والعاقورة وتنورين ودوما وقزعون وبقاع كفرا الخ . ومما لا ريب فيه ان كل قرى لبنان صالحة للاصطياف لان المناخ الجيد والهواء النقي موجودان في كل بقعة من بقاع هذا الجبل

ارز لبنان

قد كان لبنان في العهد الماضي مجلبباً بغابات الارز ولم يبق منها الان سوى غابات قليلة اهمها غابة ارز لبنان الواقعة في سفح قمة ظهر القضيب فوق قصبة بشري وهي تعلو عن سطح البحر ٢٦٥٠ متراً ومحاطة بسور محيطه ٢٤٠٠ متر بناه رستم باشا احد متصرفي لبنان

يوجد في هذه الغابة ٤٠٠ شجرة تقريباً بين كبيرة وصغيرة . اما الكبيرات منها فهي ١٢ واضخمهن يبلغ محيطها ١٥ متراً وطولها ٣٥ متراً تقريباً

ومن خشب ارز لبنان شيد الملك سليمان هيكل اورشليم وكانت الفراعنة وملوك بابل يستعملونه في ابنيتهم ايضاً . وفي اواخر القرن الماضي شيد البطريرك يوحنا الحاج الماروني كنيسة صغيرة في قلب الغابة وقد ابتدأ بعض اهالي بشري في ابتناء الفنادق في تلك البقعة لان السياح يؤمونها في فصل الصيف من كل جانب . و يوجد من اشجار الارز في لبنان ما عدا تلك البقعة غابة بين قصبة بشري وتنورين يقدر عدد اشجارها بعشرة آلاف شجرة و يوجد ايضاً غابات حديثة في جبل الباروك وفوق معاصر الشوف

آثار لبنان

ان اقدم آثار الانسان في لبنان يرجع عهدها الى العصر الحجري نظراً لوجود ادوات صوانية وخزفية في مغاور عدلون بين صور وصيدا وفي مغاور نهر ابراهيم ووادي انطلياس ومغارتي جعيتا وحراجل . وفي جهات عديدة من لبنان يرى بعض الآثار المتحجرة من شفار ومخارز ومجارف مصنوعة بعضها

من عظام الحيوانات والبعض الآخر من الحجارة الصوانية مما يدل علَى ان لبنان كان مأهولاً قبل ازمنة التاريخ

ومما لا ريب فيه ان مدينة جبيل تحوي اقدم آثار لبنان لانها اقدم المدن الفينيقية وقد اكتشف المسيو بيار موله سنة ١٨٦١ اسطوانة عليها كتابة هيروغليفية يرجع عهدها الى ما قبل فراعنة مصر وعثر ايضاً على قطع عديدة حفر عليها اسم ميزانيوس من السلالة الرابعة لفراعنة مصر واسم اوناس من السلالة الخامسة · واسم بابي من السلالة السادسة · وفي سنة ١٩٢٢ عثر المسيو مونتل على تمثال الهة جالسة على كرسي في الهيكل المصري وعثر ايضاً على جرَّة مملوءة بالحلى واللؤلؤ وبعض الرموز الدينية من البرونز · واكتشف في جبيل ايضاً ناووساً يرجع عهده الى ١٥ قرناً قبل عهد اسكندر المكدوني · وفي سنة ١٩٢٣ اكتشف المسيو مونته الافرنسي بئراً عميقة وبجانبها دهليز يحوي عدداً من النواويس المصرية وبعض القبور القديمة العهد ووجد ضمنها خواتم وعقود واساور ذهبية وتحف ثمينة واسلحة مقدمة من فراعنة مصر الى ملوك جبيل ويرجع تاريخها الى سنة ١٨٠٠ قبل المسيح · ولا تخلو مدينة البترون من الآثار المهمة لانها مدينة قديمة ولكنها احدث عهداً من جبيل وبيروت ويقال انها بنيت في القرن العاشر قبل المسيح · وفي سنة ١٩٢٢ اكتشف مغارة عظيمة في بيروت تمتد من شارع غورو الى نهر بيروت ويظن انها كانت مدافن رومانية ووجد فيها ثلاثة نواويس من الخزف المشوي وكتابة من العصر المسيحي · وقد اكتشف ايضاً بقايا هياكل رومانية ويونانية واعمدة كبيرة

وفي الاونة الاخيرة عثرت البعثة الافرنسية في جبيل عَلَى مجموعة تماثيل صغيرة من البرونز تمثل جنوداً مصرية وعليها كتابات هيروغليفية باسم الفرعون كيوبس باني اهرام الجيزة واكتشفت ايضاً في جهات صيدا وصور تمثالاً من الفخار للالهة الزهراء واواني كثيرة وتماثيل عديدة يرجع عهدها الى ايام الفينيقيين والمصريين والرومانيين ويوجد ايضاً اثار قديمة مهمة في اكثرية القرى اللبنانية المجاورة الساحل الفينيقي وفي داخلية لبنان ايضاً . فعلى الحكومة اللبنانية ان تهتم في تأليف البعثات الاثرية للتنقيب على الاثار القديمة في مختلف انحاء لبنان . ولا شك انه يصبح لديها اعظم الآثار التاريخية في العالم لان لبنان غني باآثاره كما هو غني بعذوبة مائه وهوائه

سكان لبنان

يبلغ مجموع سكان لبنان من مقيمين ومغتربين ثمانمائة الف نسمة . من طوائف مختلفة ومن اصول متنوعة لان لبنان كان قديماً موطن الفينيقيين الذين يمتون بانسابهم الى الكنعانيين وقد اجتاح لبنان الاشوريون والمصريون والاسرائيليون واليونان والرومان والعربْ والصليبيون والتتر والاتراك وامتزج هؤلاء الاقوام بالسكان الاصليين واصبحوا اليوم تحت سماء لبنان كتلةً واحدة في سيمائهم وتقاسيم وجوههم ولا فرق بينهم سوى تعدد الاديان والمذاهب واما اهم طوائف لبنان فهي :

اولاً : الطائفة المارونية ومجموعها ثلاثمائة الف وهي اقدم الطوائف

في لبنان تخضع للكنيسة الرومانية وترجع بانسابها الى الفينيقيين والمردة والعرب والصليبيين

ثانياً : الطائفة السنية ومجموعها ١٢٥ الفاً نزحوا من بلاد العرب وسكنوا لبنان بعد الفتح الاسلامي . والطائفة الشيعية وعددها ١٠٥ الاف نسمة وقد نزح الشيعيون الى لبنان من العراق العربي ومن بعض جهات العجم . والطائفة الدرزية وعددها ٤٤ الفاً نزح بعضهم من حاب الى لبنان والبعض الاخر من العراق . والطائفة الارثوذكسية وعددها ٨٢ الفاً . والطائفة الكاثوليكية ويبلغ مجموعها ٤٣ الفاً . و يوجد ما خلا الطوائف التي ذكرتها عدة طوائف مختلفة ولهذا السبب يصح القول عن لبنان انه وطن الاديان والمذاهب

بيروت في نظر مهاجر

وحول الشتاء وغبار الصيف

من بواعث الازعاج في هذه المدينة تراكم الوحول في جاداتها مدة الشتاء وتطاير الغبار منها في الصيف فلو ان هيئة مجلسها البلدي اهتمت بمساعدة الملاك والمستأجرين لتزفيت الشوارع او تبليطها لاصبحت المدينة مستحبة . ومن واجب الحكومة ان تسعى لراحة الاهلين ولقتل الجراثيم العديدة التي يلعب بها الغبار المتطاير من ناحية الى اخرى

الضوضاء

آفة من آفات مدن الشرق لان الباعة في الاسواق ينادون باعلى اصواتهم والمارة يتحدثون فيما بينهم بصوت غير منخفض ولهذا السبب نرى مدينة بيروت التي لا تبلغ المائة الف ساكن تحصل فيها جلبة وضوضاء اكثر من مدن باريس ولندن ونيويورك

القذارة

واهم اسبابها عدم وجود اقنية تحت الارض لجر الاوساخ والاقذار الى خارج المدينة كما هي الحالة في كل مدن اوربا واميركا

تعدد الازياء

اول ما لفت نظري في بيروت بعد تغيبي عنها مدة اربعة عشر عاماً

تعدد الازياء فرأيت الناس هنا يرتدون الملابس المختلفة كالعقال والكوفية والقفطان والعمائم والسراويل والطربوش والقنباز والبرنيطة والبنطلون وما شاكل فقلت في نفسي لا شك بان تعدد الازياء ناتج عن تعدد المشارب

التفرنج

تعجبت كثيراً من كلف الناس وانشغافهم بكل شيء اجنبي من لباس واخلاق وعادات وخصوصاً السيدات والاوانس اللواتي يحسن لغات الافرنج معنىً ومبنىً ولا يعرفن شيئاً من لغتهن العربية الشريفة وطالما سمعت كلمتي (بونجور و بونسوار) على جميع الافواه حتى صرت تواقاً لان اسمع في بلاد الضاد كلمة صباح الخير ولو من افواه الشيوخ

التكالب على الوظائف

وهو كثيرٌ في بلادنا لعدم اهتمام الناس بالصناعة ولا بالزراعة وقد حدثني احد المأمورين قائلاً ان الناشئة الجديدة التي تنهي دروسها في هذا العام والعام المقبل لن تجد فراغاً في دوائر الحكومة المكتظة بالموظفين والكتاب فالى اين يكون مصيرها أليس الى المهجر ؟ اعني ان وسائل الارتزاق في البلاد هي على زعمه الوظائف لا غير واللبيب يفهم

التبذير

وهو داء الشرق الذميم ومن ورائه خراب البلاد باسرها ونحن اولى من كل امة باتباع سبل الاقتصاد لفقر البلاد من المواد الخام ويجب ان يعلم كل

منا ان من يستدين فلساً يصبح عبداً مطيعاً لدائنه وما حرية المرء الا في عدم استدانته و كذلك حرية الامم ومن يدرس سير الصادرات والواردات في لبنان الكبير لا بل في سوريا جمعاء يقطر قلبه دماً على حالة البلاد الاقتصادية

اعتبار المال اكثر من الرجال

هذه هي حالة الشرقيين عموماً فانهم يعتبرون صاحب المال دون ما نظر الى شخصيته وآدابه حتى اني سُئلت مراراً كم هي الثروة التي ربحتها في اميركا كأن الانسان في الشرق قيمته في مبلغ ثروته لا في مبلغ علمه وادبه

جهل الناس الحقيقة

الناس يهتمون هنا بالفخفخة والمجد الباطل ويحبون المباهاة والمفاخرة كباراً وصغاراً ولكن بغير الحقيقة فترى التلميذ يترك المدرسة مملوءاً عجرفة وكبرياء ويبتدىء باحتقار الزراعة التي عليها قيام الحياة والفلاح عامود الامة فاذا اختل تختل الامة بامرها وليعلم ابناء لبنان المتعجرفون ان رئيس الولايات المتحدة تلك الجمهورية العظمى هو فلاح وابن فلاح

الغلو في المحادثة

اذا حدثك احدهم عن ثروة تاجر زادها اضعاف الاضعاف واذا كلمك عن خطيب وضعه فوق قس وسحبان . وبالاختصار انه اذا ابتدأ في الثناء فاللغة العربية مع اتساعها وكثرة مترادفاتها لا تفي بمقصوده وكذلك اذا تكلم ذاماً فهذه هي طبيعة اهل الشرق

رقي الافراد وانحطاط المجموع

اذا كلمت اللبناني كفرد تراه يضاهي برقيه وتقدمه العلمي ارقى طبقات العالم المتمدن واما اذا جلت نظرك في المجموع اللبناني والسوري وتأملت شدة الانقسام المستولي عَلَى السكان سواء كان من جرّاء المذهب ام الجهة ام القرية ام العائلة واحببت ان تصل الى النتيجة المنطقية ظهر امامك حالاً ان اسباب الانقسام من عوامل سوء التفاهم وهذه من عوامل الجهل فعندئذٍ تعلم حق العلم نتيجة انحطاط المجموع بالرغم من رقي افراده

الافراط في التجمل

وهي عادة مألوفة عند طبقات الامة من ارباب السياسة والتجار واصحاب الحرف والمهن وما شاكل فاذا استوقفت سيارة وسألت سائقها عن الاجرة يجيبك على الفور « تحت امرك مثلما تريد يا افندي السيارة وصاحبها ملك لك » ولكن حين الدفع تنقلب الآية فتصير انت تحت امره لانه يتقاضاك الاجرة مضاعفة على الاقل ولا يكون راضياً تمام الرضى واما في سائر مدن اوربا واميركا فكل امرىءٍ يقوم بواجبات عمله دون ان يكون آمراً او مأموراً ويتقاضاك بدل شغله بلا زيادة ولا نقصان لان الناس في الغرب يرضي بعضهم بعضاً بالافعال وهنا بالاقوال وشتان ما بين الامرين

كثرة الكلام وقلة المعنى

لاحظت ذلك في الخاصة والعامة في الكتبة والشعراء ٠ فاذا حضرت

مجلساً من مجالسهم ترى الناس على اختلاف طبقاتهم يتحدثون فيما بينهم مكثرين من عبارات التبجيل والاكرام دون التفات ما الى المعنى المراد وكذلك معظم الكتبة والشعراء فانهم يملأُون اعمدة الجرائد بمقالاتهم وقصائدهم مكثرين من سرد العبارات الرشيقة ومن تكلف الفصاحة في التركيب والجذالة في الانشاء وبالاختصار فان جلّ اهتمامهم بالمبنى اكثر مما هو بالمعنى . فلو ترجمت مقالاتهم الى لغة اخرى لخسرت مكانتها لخلوها من المعنى الذي هو جوهر الكتابة وقد حان لابناء الشرق ان يروضوا عقولهم لكي يكونوا مولدين كابناء الغرب لان سماء بلادنا الصافية هي مهبط الفكر وملهمة الوحي . ولا ينقصنا الا الثقة بالنفس وترويض الدماغ علَى الابتكار والعمل

الشكوى

ما وجدت رجلاً في لبنان الكبير لا يشكو ولا يتألم . رأيت البعض يتذمرون من سوء الحال وغيرهم يتكهنون بانهيار البلاد الى الخراب والدمار وقد بدت اماني الحالة النفسية في عموم اهل الشرق مضطربة واليأس ضارب اطنابه في عرض البلاد وطولها فماذا تكون النتيجة اذا بقي الحال علَى هذا المنوال ولم تنهض الامة من عثرتها وتستيقظ من سباتها فانها لا شك تتلاشى وسيقذف تيار المهاجرة البقية الباقية من ابناء البلاد والسلام على لبنان

الحدائق

لا اثر للحدائق العمومية في مدينة بيروت فلو شاءت احدى العيال انتجاع الهواء النقي والنزهة تضطر للذهاب الى ضاحية المدينة للتمتع بمناظر

البرية وهوائها واما في مدن اوربا واميركا فلا تخلو مدينة مهما كانت صغيرة من الحدائق العمومية الكثيرة المنشأة لراحة الاهلين ولهذا السبب الفت البلدية وجمهور البيروتيين الكرام الى ضرورة انشاء الحدائق العمومية في كل احياء المدينة لنزهة العيال ولتحسين الصحة العمومية وهي فوق ذلك تزيد المدينة جمالاً في عين زائريها

المقابر

المقابر كثيرة في بيروت كما هي الاخلاق والمذاهب وهي مع تعدادها متقنة ومزخرفة ولكن وجدت اكثر المقابر في قلب المدينة وهذا ما لا يجب ان تسمح به الحكومة وقد زرت البارحة مدافن مار متر والمدافن التي على طريق الشام فدهشت لجمال التماثيل الرخامية المشيدة فوق القبور وتأملت كثيراً دقة صنعها وحسن هندستها وما بُذل من المال لبنائها وهناك بين سكون الموتى وتحت ظلال قبورهم المزخرفة جالت في خاطري ذكرى الولايات المتحدة وزيارتي لمدافن فيلادلفيا ونيويرك المبنية بغاية البساطة بالنسبة لمدافن بيروت فقلت في نفسي هنا في الشرق يهتمون بالاموات اكثر من اهتمامهم بالاحياء واما هناك في الغرب فبالعكس ولهذا السبب نرى مدينة الاموات عندنا اكثر جمالاً من مدينة الاحياء

المتسولون

كيفما مرَّ المرء في شوارع بيروت يرى المتسولين الكثيري العدد من رجال ونساء وشيوخ واطفال يزعجون المارة بالحاحهم المتواصل بطلب الاحسان

ولم اجلس مرة في قهوة ما مع احد الاصحاب دون ان ارى جماعات المتسولين يستندون الاكف بثياب رثة بالية ومظاهر موحشة وهم يتقاطرون سحابة النهار ذرفات ووحداناً فشعرت في نفسي كانني في مأوى للفقراء لا في قهوة. وقد مكثت مدة في نيويرك ومثلها في باريس وعدد سكانهما يتراوح بين الثمانية والتسعة ملايين ولم انظر متسولاً في الشوارع لا في هذه ولا في تلك لان الامم الراقية تصنع الملاجىء للفقراء والمعوزين لترد عنهم غائلة الجوع وتمنع ازدحامهم في الجادات العمومية. واني الفت انظار الحكومة اللبنانية اسوة بسائر الحكومات المتمدنة الى وضع حد للتسول بفتح الملاجىء صيانةً للمعوزين ولكرامة لبنان في اعين الاجانب الذين يأمون ربوعنا للسياحة والنزهة

الشركات المساهمة والمشاريع العمومية

لا شركات مساهمة في البلاد واذا وُجد بعض شركات يكون القائمون بها من الاجانب واما من ابناء لبنان فحتى الان لم ارَ شركة مساهمة تستحق ان تذكر ولسوء الحظ رأيت اكثر اغنياء الوطن قانعين بحبوحتهم وطمأنينتهم دون التفات ما لقيام لبنان اقتصادياً فلو تألفت منهم الشركات الوطنية المساهمة وتولدت فيهم روح الغيرة للقيام بالمشاريع العمرانية على اختلاف انواعها لاصبح اهل لبنان في بضعة عقود من السنين على حالة يسر ورخاء واقلعوا عن فكرة المهاجرة واللحاق باخوانهم الضاربين في مشارق الارض ومغاربها فبهذه الصورة نقدر ان نحلم في مستقبل مجيد وان نحفظ كيان الوطن من الاضمحلال اذ نثري بالمال والرجال والا فلا رجال في المستقبل ولا مال

الصناعة

مستقبل لبنان قائم بالصناعة اكثر منه بالزراعة لان الاراضي اللبنانية مهما استثمرت لا تكاد تفي باود سكانه فحالتنا من هذا القبيل اشبه بحالة سويسرا وبلجيكا وليس لنا من مورد فعال في المستقبل سوى مورد الاصطياف والصناعة مع الاهتمام الكلي بالزراعة واني استسلم للحزن الشديد حينما اتأمل بان اصغر جمهورية من جمهوريات العالم الجديد حاصلة على قسم كبير من الصناعة وفيها معامل الخام والمقصور والاشيات والاجواخ على اختلافها اما لبنان الكبير وسوريا فلا يوجد فيهما سوى بعض انوال للحياكة على النمط القديم وكل ما يستعمله ابناء البلاد من الابرة الى الطربوش يشرى من الغرب واني ارى من الواجب اتقان فن الصناعة في لبنان الكبير لضيق ارضنا الزراعية وعدم خصبها فعلى المجلس النيابي ومفكري الامة ان يهتموا في هذه المسألة الحيوية وينشطوا الاهلين للاهتمام في اقامة المعامل ويعدوا الى زيادة الضرائب الجمركية على البضاعية الاجنبية اذا اقدم الوطنيون على نسجها في البلاد ولا شك قيام المعامل يبقي على اليد العاملة في ربوع الوطن وتتساوى الصادرات والواردات في لبنان الكبير وهذه على زعمي هي الطريقة الوحيدة لنهضة البلاد اقتصادياً

الزعامة والاحزاب

لا زعامة في لبنان الكبير ولا سوريا فما وجدت رجلاً يدعوه الشعب زعيماً بكل معنى الكلمة او بالاحرى يحصل على كل صفات الزعامة واما

الاحزاب السياسية المنظمة فهي غير موجودة في البلاد ولم ارَ ماعدا الاحزاب الطائفية سوى بعض احزاب شخصية . وقد كنت بالامس اتجاذب اطراف الحديث واحد المأمورين المعروفين فقلت له الى اي الاحزاب تنتمي في سياسة شؤون البلاد فاجاب على الفور انا من حزب فلان مسمياً لي شخصاً من ابناء لبنان المعروفين فسألته ما هي مطاليبكم الاساسية وما هو بروغرامكم الذي تعتقدون من ورائه باقالة البلاد من عثرتها فارتبك في الجواب اذ لا بروغرام ولا اساس مكين لسوء الحظ لاحزابنا ثم اردف هذه العبارة لا احد يقدر ان ينهض البلاد من انهيارها سوى اعجوبة ربانية فعندئذٍ فهمت ان الاحزاب السياسية في لبنان وسوريا ليس من شأنها السعي وراء سعادة الوطن ورقيه بل للتربع علَى كرسي الوظائف لا غير

الصحافة

في لبنان الكبير الذي لا يبلغ السبعمائة الف ساكن اكثر من مائة صحيفة من يومية ونصف اسبوعية واسبوعية وهذا كثيرجداً بالنسبة الى عدد السكان مع انني لم ارَ الاقبال عظيماً على مطالعة الجرائد ففي اوربا واميركا ارى الكبير والصغير والعامل والعاملة والعتال ومساح الاحذية كلهم يطالعون الجرائد ويتفقدون بكل انشغاف سير الحوادث العالمية واما هنا فالصحافة وجدت للخاصة فقط ولا تعيرها العامة ادنى اهتمام ورغماً عن ذلك فقد تراءى لي ان ادباء اللبنانيين ولعون في مهنة الصحافة ولعاً شديداً حيث ارى ان كل من يعرف قليلاً من اصول اللغة العربية يسعى سعياً حثيثاً لانشاء جريدة ام مجلة كأنه يجهل بان الصحافة علم مختص بذاته فعليه ان يدرسها اولاً قبل

معالجتها لان من يحترف حرفة دون تلقينها لا يفلح بها ٠ واما الكاتب الغربي فلا يحترف الصحافة دون ان يصرف شطراً عظيماً من عمره دارساً اصولها ومتفهماً اساليبها ومراقباً تمام المراقبة طريقة تنسيقها وقواعدها واني اعتقد تمام الاعتقاد بان حياة كل شعب ورقيه وتمدنه وعلومه تتجلى باجلى بيان في صحافته فانها ولا شك روح الامة وحياتها المادية والمعنوية ٠ فلو قسنا صحافة لبنان بسائر الصحافة الشرقية لظهر لنا جلياً تفوق اللبناني وسبقه في حلبة الرقي والتمدن على سائر بلاد الشرق واما اذا قوبلت في صحف اوربا واميركا فنرى النقص ظاهراً للعيان بكل مظاهره فالمقالات الرئيسية التي تدبجها انامل كبار محرري الجرائد في باريس ولندن ونيورك تفوق كثيراً ما يكتبه ادباؤنا وصحافيونا لان الكتبة في الغرب اختصاصيون ولهذا السبب ينبغون في كتاباتهم ويخدمون بلادهم خدمة جلى واما هنا في الشرق فكل من امسك قلماً في يده شاعر وعالم ومؤرخ فهو الكل بالكل كانه يجهل ام يتجاهل ان في الكتابة مواضيع كثيرة كما في الطب فمن يتخصص للمواضيع السياسية مثلاً يقدر ان يستوعبها فيفيد ويستفيد وكذلك من يتخصص في سائر المواضيع العلمية ٠ فهذا هو الخلل العظيم في كتابنا وقادة افكارنا فليتخصص كل واحد منهم في علم من العلوم

الحياة في القرى اللبنانية

الوحدة مبعث التأمل

الحياة لذيذة في قرى لبنان ولذتها قائمة في المعيشة الساذجة الهنيئة والبعيدة عن نخفخة وجلبة المدن

اني اخال نفسي وانا في بلدتي كاني بمعزل عن هذا العالم عالم الضوضاء والحركة لاني اسكن في جو هادىء سماؤه صافية ونسيمه بليل · اتأمل في وحدتي في هذا الكون العجيب والوحدة هي مبعث التأمل وملهمة الوحي ومنبهة القوى العاقلة

في اعماق البرية وفي مفاوز الغاب ومجاهل القفار اشعر بالوحدة ولكن عن بني الانسان فقط لان لا وحدة تحت الشمس · فاذا لم ابصر هناك بشراً حياً فاني ابصر الحيوانات المختلفة والحشرات المتنوعة تسير ذهاباً واياباً في طلب رزقها واذا لم اسمع صوت اخي الانسان فاني اسمع تغريد الطيور وزقزقة البلابل على الاغصان · واذا توارت عن ناظري مساكن الادميين فاني انظر في وعورة القفر اوكار النمل واعشاش الطيور واوجار الحيوانات الغير الداجنة واذا فاتتني الروائح العطرية التي صنعتها انامل الانسان العاقل فلا يفوتني شذى ازهار الحقل ورياحينه · فانا ولو كنت بعيداً عن بني جنسي لا اشعر بالوحدة لان كل ما يقع على بصري من الحيوانات الحية المتنوعة يلقنني امثولة مفيدة

العصفور بتغريده الجميل يحبب اليّ الموسيقى والانغام المطربة والنملة الصغيرة التي تجد بلا ابطاء في ايام الصيف لتجمع مؤونة الشتاء تعلمني الحكمة والنظر في المستقبل والحيوان الغير الداجن الساعي وراء رزقه ليلاً ونهاراً يلقي امامي امثولة النشاط والسعي المتواصل . والشجرة التي تمد اغصانها لتستقبل حرارة الشمس وتثقب في جذوعها بطن الارض طلباً للغذاء دون توانٍ ولا ملل تمثل نبضات قلبي المتواصلة، التي تخفق خفقاناً دائماً بلا انقطاع لتغذية الجسم البشري في تسيير الحركة الدموية لسائر اعضائه

الحياة هي ذاتها ولو تمثلت في صور مختلفة فاني كما اراها في الانسان الحي اشعر بها في الحيوان الساري وفي اغصان الشجرة واوراقها وفي مقالع الحجارة ومناجم الفحم

والموت ولو تنوعت الاجناس الحية في الكون يعمل نفس العمل في الانسان والحيوان والشجرة والحجر الاصم في كل مكان تتجلى امامي اثار الحياة والموت فكأنهما اخوان لا يفترقان

في قمم لبنان واوديته المتناهية في الظرف ارسل نظري في الحقول البديعة والرياض الغناء فينفسح امامي مجال كبير للتأمل في اللانهاية وميدان واسع لمناجاة الخالق القدير مبدع هذا الوجود. هناك افتكر في كل قواي في نفسي العاقلة التي لا تموت بموت العالم لانها ليست من هذا العالم

في الليل ويا ما حلى ليالي الصيف في القرى اللبنانية هناك تحت اديم السماء اللامعة بانوار الكواكب لا اسامر النجوم المضيئة بل اسامر عقلي ولا

ارقب بدر الافق بل ارقب نفسي · في الليل الهادىء احاسبها على ما فعلت في نهارها وتحت انوار النجوم الضئيلة القي عليها امثولة المحبة والفضيلة والعدل والرحمة واذكرها يومها الاخير لعل في ترداد الذكرى عبرةً لها

السنديانة القديمة

ذهبت ذات يوم الى البرية لاتمتع بهواء الحقل النقي فمكثت تحت ظل سنديانة قديمة يزيد عمرها عَلَى مائتي سنة كان يستظل بها آبائي واجدادي الذين وافتهم آجالهم من مدة طويلة وهي لم تزل حية تستقبل حرارة الشمس ومطر السماء وسماد الارض فقلت في نفسي مسكين الانسان ما اقصر عمره بالنسبة الى عمر هذه الشجرة فقد اختطفته المنية من مدة طويلة واختطفت بنيه واحفاده وابناء احفاده وهذه الشجرة باقية عَلَى حالها تناطح السحاب كانها تسخر بهم و بفصيلتهم الانسانية

عند تأملي في حياة هذه السنديانة قلت في نفسي آه لو كان معدل عمر الانسان الاعتيادي ما بلغته هذه الشجرة لاصبحت الارض التي نحن عليها في عصور قليلة جنة من الجنان وفردوساً زاهرة بالعمران · ولكن الانسان المسكين لا يكاد يفقه معنىً للحياة حتى يماجله هادم اللذات ولهذا السبب ارى بطء الانسانية بسيرها في معارج الرقي الادبي والمادي قائماً على قصر عمر الانسان

الصياد والعصفور

مرَّ صياد بالقرب من تلك السنديانة التي تظللني من شمس تموز المحرقة فحياني وجلس هنيهةً — يجاذبني اطراف الاحاديث ثم بهت عند استماعه صوت

عصفور يغرّد على اغصان الشجرة فتربص يسارقه النظر حتى ظفر به فاطلق عليه بندقيته فخرّ للحال يختبط بدمه ثم التقطه وهو بين حي وميت ووضعه في حقيبته باسماً لانه اصاب المرمى

مسكين العصفور الصغير الذي يجازيه الانسان بالقتل رغماً من كونه يؤدي خدمة جلى لبني البشر في اكله الديدان والحشرات التي تؤذي الاشجار وتذهب بنمو المزروعات على اختلاف انواعها

ماذا يستفيد الانسان في قنص العصفور لا لحمه يشبع ولا دهنه يسمن ولنا غنى عنه بالابقار والغنم والماعز . فلندعه يسرح في الحقول مغرداً على افنان الاشجار ولنتركه وشأنه يسبح باري الوجود في ترنيمه وشدوه

العصفور خلق نافعاً والنافع لا تجب ابادته ولكن الانسان لم يزل وحشياً في غريزته وطباعه فهو يشعر بلذة غريبة في قتله الحيوانات واقتناصه الطيور والعصافير ومافتىء منذ فجر التاريخ يحارب الغريزة بسلاح العلم والرحمة وهي تحاربه بسلاح الطبع والاميال الوحشية ولكن لسوء الحظ لم يزل الطبع حتى الان يغلب التطبع والغريزة الوحشية تسود الرقي والرحمة.

فاذا انعكست الاية في العصور المقبلة وساد العلم على الجهل فعندئذ يسعى المرء بكل قواه لابادة الضار واستبقاء النافع ولقتل جراثيم الفساد ومحبة الذات وزرع بذور الخير

مسكين العصفور الصغير الذي يرشقه الصياد بناره الحامية ولا ذنب له فهو كالامة الضعيفة المهضومة حقوقها تقتنصها الامة الكبيرة القوية وتبتلعها وهي لا تدري لمن تشكو امرها

مسكين العصفور الصغير الذي يختبط بدمه فهو كالضعيف امام الحاكم الظالم المستبد يحكم بموته وهو لا يقدر ان يدافع عن نفسه

مسكين العصفور الصغير فهو كالواقع بين ايدي اللصوص يسلبونه امتعته ثم يميتونه شرّ اماتة وهو يتأوه و يتململ ولكن لا مجيب لمستجير

مسكين العصفور الجريح الهاوي من نار الصياد ودمه يسيل من عنقه الصغير ومن جناحيه اللطيفتين وساقيه الضعيفتين يرتجف من الالم والعذاب ولكن لا رحمة ولا شفقة في قلب القناص القامي الذي يحسب القنص من اسباب لهوه وانشراحه · فهو يشبه البريء المظلوم المقيد بالسلاسل الحديدية والمبتور الساعد والمشوه الوجه والصدر من ايدي الائمة الظالمين يستغيث باعلى صوته ولا يغاث و يستجير بظلامه ولكن كالمستجير من الرمضاء بالنار

ما زالت الشريعة بجانب القوي والحق يلمع بين شفرات السيوف وفوهات المدافع فكلنا مثلك ايها العصفور

نعم كلنا مثلك ايها العصفور · في هذا الكون نرى القوي يظلم الضعيف والغني يختلس الفقير والحاكم يستبد بالمحكوم والحيوان الكبير يفترس الصغير والشجرة القوية النامية تخنق بتمديد اغصانها وتلافيف جذوعها الشجرة الضعيفة القريبة منها وانت ايضاً ايها العصفور تأكل الديدان والحشرات الصغيرة · فهذه هي سنة تنازع البقاء سنة الغريزة الوحشية · ولكن ليست سنة النفس العاقلة الرحومة والانسان العاقل الرحوم

فليفق الذين يدعون التمدن والرقي وليقيموا الحق ممزوجاً بالرحمة في

احكامهم وقوانينهم والا فلا فرق بين المتمدن والمتوحش او بالاحرى بين الانسان والحيوان

القروية وخاروفها وورادها

في شهر حزيران من كل سنة تنتهي مواسم القز في لبنان ويبتدئ موسم اقتطاع الغنم لتعليفها ونساء هذا الجبل يلقمنها ثلاث مرات او اكثر في النهار بايديهن ومرة او مرتين في الليل وهن يبذلن الاعتناء الكلي بها لاجل تسمينها ويصرفن زهاء اربعة اشهر عَلَى هذه الحالة واصلات الليل بالنهار وباذلات عرق الجبين ولكنهنَّ لا يحصلن من وراء هذه المتاعب الجمة الا على بضعة ارطال من اللحم يحسم اكثرها في قيمة العلف والنزر الباقي قيمة الاتعاب وعرق الجباه

مررت من مدة بالقرب من احدي القرويات فوجدتها جالسة في نافذة بيتها وامامها في خارج البيت خاروفها الابيض النظيف وفي عنقه ايقونة العذراء لاجل وقايته من الطوارئ وهو قائم ضمن خيمة صغيرة منشأة خصيصاً له ازاء النافذة . وفي داخل البيت وقع نظري على طفل صغير في سريره وطفل آخر على ركبة امه يلهو في مضغ بعض الفاكهة التي كانت بيديه الصغيرتين فيضعها تارة في فمه مبتسماً وطوراً امام عينيه محدقاً بها كمن يتبحر بامر ذي بال . وبينا انا اتأمل عن بعد في هذا المشهد اخذت القروية تلقم خاروفها وتغني له بصوت منخفض هذه الاغاني القروية الساذجة

يا خروفي يا ونُّو يا باشا ما في منو
كل الغنم قيلَّث وخروفي مدوَّر سنُّو

وبينما هي تردد هذه الاهازيج سمعت صوت طفلها يبكي في سريره فقامت للحال وارضعته من ثدييها قليلاً ثم عادت الى النافذة ووضعت طفلها الاكبر على ركبتها وابتدأت تلقم (خروفها) كالعادة وهي تهز باحدى رجليها سرير طفلها الصغير وتغني له لكي ينام هنيئاً هذه الاغاني اللبنانية المعروفة عند سائر الامهات

نام يا بابا ونام هزتلك ما كنت تنام

لم يمضِ بضع دقائق على غنائها حتى نام الطفل على صوت امه ونام الثاني بين ذراعيها فقلت في نفسي هكذا كانت امي تُتعذب وتعتني بي . على مثل هذا السرير كانت تقمطني الوالدة منذ ثلاث وثلاثين سنة وعَلَى نغمات صوتها الحنون كنت اغمض عيني وانام هنيئاً

ان تلك الاغاني اللطيفة التي تدعى اغاني الام هي ابعد ما اتذكره من ايام الطفولية وذلك السرير هو بيتي الاول في الحياة الدنيا لا بل هو اول فراش افترشته في الوجود كما ان القبر هو آخر فراش ستفترشه لي الغبراء

تأملت في حياة هذه القروية فرأيتها سعيدة بالرغم من فقرها لقناعتها . وما السعادة الحقيقية سوى وليدة القناعة ولهذا السبب استولت عليَّ الرغبة في محادثتها فهممت اليها وسألتها عن ولديها فاجابت هما بخير اشكر الله ولكن الكبير يعذبني آناً بعد الاخر في بكائه والصغير هين جداً فهو لا يبكي الا اذا كان بحاجة للرضاعة او لألم يطرؤُ عليه فسألتها هل انت كما اخالك سعيدة في حياتك مع عائلتك ؟ فقالت نعم كل السعادة فعندئذٍ قلت في نفسي ما ذكرته آنفاً لا يملك الانسان ناصية السعادة الا اذا كان مالكاً ناصية راحة

الضمير والقناعة . فمن كان مثقلاً بالهموم والهواجس لا يجد للسعادة اثراً سواء كان في القصور ام في الاكواخ في المزارع والقرى ام في المدن الكبيرة الجميلة الغاصة في المسارح والملاهي . لان الناس على اختلاف انواعهم ومراتبهم اذا لم يلمسوا السعادة في داخل قلوبهم وضمن عتبة بيوتهم لا يجدونها في الخارج

مسكينة القروية اللبنانية تشقى وتتعب كثيراً في حياتها ولكن بدون جدوى لعدم حصولها على نتيجة كافية جزاء اتعابها فلو كانت الصناعة ممتدة في طول البلاد وعرضها لكانت بدون شك تجني ثمرة اتعابها وتصبح بغنىً عن تلقيم الغنم بضعة اشهر لتحصل على ارباح تافهة . ام بالاحرى لو راجت في لبنان صناعة الخرج والتطريز فقط لاجل تصديرهما الى اوروبا واميركا لكانت المرأة اللبنانية في ساعات فراغها من الاشغال البيتية تشتغل بهما فتحصل على نتيجة مرضية حيث لا يذهب عرق جبينها ضياعاً كما يذهب الان في تلقيم الغنم وخلاف اشغال مضنكة وغير مفيدة

في هذا الكون لا يحصل الانسان على المكاسب الا من وراء اشغال العقل والجسم المقرون بالعلم والادارة واما الاجهاد الجسماني وحده فهو لا يأتي بالفائدة المطلوبة . فالعتال الذي لا يشغل دماغه لا تكثر مطلقاً ارباحه واما اولئك المشتغلون في عقولهم اكثر من اجسامهم فهم الناجحون والبالغون اقصى درجات الرقي والفلاح كالاظباء والمحامين والصيادلة وخلافهم

فليتعوّد اللبنانيون واللبنانيات ان يشتغلوا في عقولهم واجسامهم وان يقتدوا بالافرنج والاميركان في ابتكارهم اشغالاً يكون من ورائها نتيجة

محسوسة لان من يفتكر يبتكر وما العلوم والفنون والاختراعات سوى وليدة الفكر البشري

في هذا العصر عصر الرقي والتمدن لم يعد الانسان يقبل في المعيشة الساذجة التي كان يعيشها الاباء والاجداد فالحياة الحاضرة مثقلة بالمصاريف الباهظة والتكاليف الجمة الجليلة فمن لم يكن قوي الادراك ماضي العزيمة لا يقدر ان يعيش بطمأنينة ورخاء في مستوى ابناء عصره · فليفقه الغافلون

الاعراس

قبل ان ابتدىء بوصف ولائم الاعراس في القرى اللبنانية اود ان اسرد كلمة موجزة عن طريقة انتخاب الزوجة

كان الاباء فيما مضى هم الذين ينتخبون لابنائهم زوجات حسب ارادتهم ومشيئتهم وكان الخطيب لا يجتمع بخطيبته قبل القران الا نادراً · ولم تزل هذه العادة المشؤومة شائعة في معظم جهات سوريا والبلاد العربية حتى الان

واما في لبنان فقد تبدلت الحالة واصبح الشاب حراً طليقاً في اختيار الفتاة التي يريدها فهو يتردد عليها مراراً ويعاشرها مدة من الزمن قبل اقترانه بها لانه لم يعد عبداً للتقاليد الوراثية البالية بعد اقتباسه التمدن الحديث الذي سيقضي على القديم قضاء محتوماً آجلاً كان ام عاجلاً

منذ ايام قليلة حضرت احد الاعراس في بعض القرى اللبنانية وهاك ما شاهدته بالحرف :

في الليلة السابقة ليوم الاكليل ذهب بعض اهل (العريس) الى بيت

(العروس) وبعد ان غسلوها وجلوها وعطروها بانواع الطيوب والمساحيق البسوها بدلة من بدلات العرس ثم اجلسوها على دكة عالية في البيت وابتدأت عندئذٍ احدى القرويات تغني لها تلك الاغاني اللبنانية المعروفة في مثل هذا المقام

الله بلالي بلالي سهران طول الليالي

وكان الحاضرون من رجال ونساء يرددون باصوات عالية ما تغنيه تلك المرأة

واما (العروس) المصمودة عَلَى الدكة فكانت تذرف الدموع الغزيرة وطوراً تحدق بالارض كانها تحمل عَلَى عاتقها من الهموم والهواجس ما لا يطاق فاعتقدت لاول وهلة ان تلك الفتاة مرغمة ارغاماً على الاقتران بمن لا تحبه ولا تهواه . فسألت احد الحضور عن ذلك فاجاب سلباً لا بل هي عادة مألوفة ان تظهر (العروس) في مثل هذه الساعة في مظاهر الحزن والكآبة مع انه من الخطل ان ترى باكية في الساعة التي ابتدأت بها في وضع حجر الزاوية لقيام بيتها الجديد . الا تعلم ان افضل حلية تتحلى بها الفتاة هي الامومة (اعني ان تدعى أمّاً) واكمل الالقاب التي يربحها الشاب في حياته هي الابوة (اعني ان يدعى ابّاً)

ليست عقود اللؤلوء والجواهر الثمينة المرسلة على صدور الحسان باجمل منظراً واكثر رونقاً وبهاءً من مشاهدة الاطفال بين اذرع امهاتهم متكئين على صدورهن وهم يرضعون حليب الامومة

في بيت (العريس) كانت تلك الليلة حافلة في الرقص على (الدبكة)

وفي قول المغنى المشهور عند عامة اللبنانيين وفي صباح اليوم الثاني وهو يوم الاكليل ذهبت اخت (العريس) مع بعض قريباتها الى بيت (العروس) وبيدها طقم الاكليل الناصع البياض والبستها اياه بمعونة اشبينتها ثم خرجت العروس من بيت ابيها الى الكنيسة وعلى يمينها اشبينتها وعلى يسارها اخت (العريس) وامتطت جواداً مزيناً ارسله (العريس) خصيصاً لها واضعة احدى يديها على خدها الايمن وعيناها الذابلتان ترسلان دمعة اثر دمعة . ولم تكد تخطو خطوتها الاولى حتى ابتدأ الرجال ينشدون الاهازيج اللبنانية المعروفة (بالحدا) والنساء يغنين ويزغردن من كل فج وصوب ناثرات بعضهن عليها الازهار والروائح العطرية والبعض الاخر الرز والقمح وما شاكل ذلك

ثم التقى العروسان قبل الوصول الى باحة الكنيسة فتقدم (العريس) وانزل (عروسه) عن الجواد ودخلا سوية الى الهيكل برفقة المدعوين حيث بارك اكليلهما احد الكهنة

وبعد انتهاء مراسيم الحفلة الدينية برح العروسان الكنيسة مع لفيف الحاضرين فركبت (العروس) جوادها قاصدة بيتها الجديد ولاعبو السيف امام حصانها يتخطرون ذهاباً واياباً ثم مشى خلفها العريس برفقة اشابينه بين الاهازيج والزغاريد المتواصلة التي كانت تسمع من كل فج وصوب من افواه المدعوين رجالاً ونساء

وما كادت تصل (العروس) الى عتبة البيت حتى اخذت ام (العريس)

تغني وتزغرد متأهلة في عروسها وضيوفها وهاك بعض ما سمعته منها

إيها : اهلا وسهلا فيكم يا ضيوف عزاز

انتم اعزّا وجايين من بلاد عزاز

اغلى من البن اغلى من طيور الباز

اغلى من المال لو كان صاحبو معتاز

للي ... للي ... للي

هناك في داخل بيت (العريس) وقع نظري على الهرج والمرج والدق والرقص والغناء ولعب السيف والحوربة والتصفيق حتى اصبحت تلك الدار تدوي دوياً عظيماً من جراء تلك الاهازيج البالغة العنان وفوق ذلك كانت اصداء الجبال والاودية ترددها فتزيدها لغطاً ودوياً

ومما لا مراء فيه ان حفلات الاعراس في معظم القرى اللبنانية لم يزل القرويون يحتفلون بها على الفطرة رغماً مما يراه المرء من ازياء التحضر في بعض الملابس والمآكل . لان هناك في قاعة العرس لم تقع عيني عَلَى حلقة للرقص منظمة ولا موسيقى متقنة ولا غناء مرتب بل كان كلٌ من المدعوين يغني على ليلاه خالطاً الحابل بالنابل في هرجه ومرجه

كل هذا يحصل عادةً بين الجماعات الغير المتنورة لفقدان النظام الذي هو اساس الرقي والعمران

فمن رام عملاً مهما كان تافهاً لا يفلح به اذا لم يخلق له نظاماً يسير عليه لان النجاح الحقيقي هو وليد النظام الذي بدونه لا رقي في الامم ولا علم ولا مدنية

بقي لي ان اذكر امراً مهماً في مسألة الزواج الا وهو الزواج المدني الذي ليس له اثر في ربوع سوريا ولبنان حيث تقام عقود الاكليل في المراجع الدينية لا غير · مع ان جميع الامم المتحضرة سنت قانون الزواج المدني المعول عليه الان في اوربا واميركا ، ونحن اولى الامم باتباعه مقروناً بالزواج الديني لمن يشاء وربما اصبح في المستقبل القريب صلة تقارب بين ابناء هذا الوطن الذين فرقتهم الاديان و بددتهم المذاهب

المآتم

ان اوراق (النعي) المجللة بالسواد يستعملها ابناء المدن لايصال الاخبار الفاجعة لذويهم واصحابهم واما في القرى اللبنانية فدقات الاجراس المتقطعة التي تدعى دقات الحزن هي بمثابة تلك الاوراق ولكنها تفعل فعلها الذريع بلحظة عين حيث يعلم ابناء القرية دفعة واحدة ان احدهم فارق الحياة فيتركون اشغالهم ويذهبون بكليتهم الى بيت الحزن

هناك في دار الفقيد صراخ وبكاء وعويل لا يهدأ للناس روع ولا تنشف لهم دمعة

منذ ايام قليلة حضرتُ مأتماً من مآتمهم فرأيت الناس ازواجاً وافراداً يصيحون باعلى اصواتهم يولولون سحابة نهارهم وهم يحملون في ايديهم المحارم الحمراء الكبيرة لمسح دموعهم · بعضهم يبكون والبعض الاخر يتباكى

ورأيت النساء يلدمن الصدور و يسدلن الشعور و ينادين بالويل والثبور كأن الولولة والصياح يرجعان الحياة الى الفقيد والدموع الغزيرة تشفع به

امام ربه . ثم ابتدأوا رجالاً ونساءً يعددون الراحل بما ليس فيه ويوسمونه بكل مكرمة ومحمدة كقولهم عنه : كان يكسو العريان ويشبع الجائع ويغيث الملهوف كان قس الفصاحة ومنهل النباهة ومصدر الشجاعة الى ما هنالك . مع ان الفقيد رحمه الله كان من القرويين الساذجين يعيش من عرق جبينه وما كان يعلم من امر الدنيا غير معوله وفأسه وهم هكذا يشيعون كل راحل مكثرين في اطرائه ومرددين عبارات الثناء التي لا تنطبق عادة على حياة الميت

واما الندب الشائع استعماله في لبنان فاذا قيل بصوت منخفض فهو مستحب ومقبول لانه يفرج القلوب الكسيرة ولكن ما تعودتُ سماعه في معظم القرى اللبنانية ليس عليه من صبغة الحزن ما يثير العواطف ويستفز الشعور لان اكثره لغطٌ ودويٌ وولولة

فيجب الاقلاع عنه وعن كل ما يشين حياتنا الاجتماعية نابذين العادات القديمة التي ليس من ورائها جرّ مغنم ولا مسوغ للمحافظة عليها

وفضلاً عن ذلك ان الحزن الحقيقي يستتب في داخل الدماغ وخلايا القلب لا في العيون الدامعة والالسن الناحبة . فكم عبرةٍ تذرفها المآقي وهي لا تشف عن حزن وكآبة . وكم اناس يتلون عبارات الرثاء والتأبين وهم في الواقع لا يحملون همّاً ولا يعرفون غمّاً

ما ارهب الموت واوقعه في القلب اذا شاهد الانسان مأتماً ورأى الجثة الهامدة موضوعة في منتصف القاعة والناس حولها صامتون كأن على رؤوسهم الطير يناجون ربهم في قلوبهم ويتأملون في غرور الحياة وفي يومهم الاخير !

ان الصمت حيال الموت يجعل المرء اكثر تخشعاً واعتباراً لانه يطلق عنان افكاره في التأملات الروحية ويفسح مجالاً لفحص ضميره في كل شاردة وواردة · واما الصراخ والعويل والولولة فانهم لا ينفعون راحلاً ولا يفيدون باقياً

لعمر الحق ان الانسان مهما كان عاقلاً وحكيماً فهو رقيق الشعور كثير الانفعال اذا ألمت به مصيبة فلا بد ان يرضخ تحت اثقالها مدة من الزمن ثم يتغلب عليها بقوة ارادته وصبره لان الرجل العظيم هو الذي يقوى عَلَى احتمال نوائب الزمان بكل شجاعة وتؤدة ولا يعرف معنى للتضعضع ازاء الخطوب مهما كانت فادحة

منذ ايام زرت بعض مدافن القرى اللبنانية فشاهدت هناك عظام الموتى منثورة فوق القبور في كل مكان كأن القوم لا يعلمون بان هؤلاء الموتى هم بقايا آبائهم وامهاتهم واخوانهم وانسبائهم اما كان احرى بهم ان يحفروا بئراً في وسط المدافن لوضع الهياكل الرميمة كي لا تتبعثر في كل ناحية وتلعب بها الرياح أنَّى تشاء !

فليعلم ابناء امي ان الذين يكرمون موتاهم يهتمون بحفظ بقاياهم

الفلاح

في اواخر شهر حزيران الماضي ذهبت للتنزه في البرية فمررت بالقرب من فلاح طاعن في العمر وهو على الرغم من شيخوخته يحرث الارض بيده في بقعة تحوي بعض اغراس التين والزيتون فالقيت عليه السلام ثم سألته عن

عمره : فاوقف فدانه وقال انا في السبعين ولكني والحمد لله لم يزل يسري في عروقي عزم الشباب ونشاط الفتوة لاني لم استسلم في ايام صباي للتهتك والخلاعة ولا الفت المسكرات والموبقات بل كنت من ابناء الجد والفضيلة وقد حرصت على صحتي الغالية في جميع ادوار حياتي ولهذا السبب تراني الان اتمتع بها في اواخر ايامي وسأقضي ما تبقى لي من العمر خالياً من الالم الجسماني لاني صحيح الجسم ولكني اتألم ادبياً لآلام الناشئة الجديدة وامراضها

نعم اتألم حينما ارى شبان العصر الاباحيين الذين يعاقرون الخمرة في غدواتهم وروحاتهم و يلعبون الميسر في ليلهم ونهارهم وهم منعكفون على ملذاتهم الباطلة وشهواتهم الحيوانية

اتألم ولا يجدي التألم نفعاً حينما انظر بام العين الامراض الخبيثة المتأتية من مخالطة بنات الازقة متفشية في معظم الشبان العصريين هادمةً اجسامهم وعقولهم لان العقل السليم في الجسم السليم

اتألم حين اشاهد احفاد المردة الاقوياء قد اصبحوا نحفاء البنية ضعفاء الاجسام عديمي القوة والنشاط وقد تجاوزوا الحد في تهتكهم حتى فسدت اخلاقهم وقلت ادابهم وساءت احوالهم المادية والادبية ولا رادع يردعهم عن غيهم وضلالهم

اتألم حين اجيل طرفي بما صنعه الاباء والاجداد الذين مهدوا البطاح والوهاد وثقبوا الصخور والانجاد ونقبوا هذه الاراضي اللبنانية من رؤوس القمم الى بطون الاودية حتى اصبح لبنان من جراء عرق جباههم ودماء قلوبهم جنة من الجنان

واما هؤلاء الشبان فهم لا يحرثون ارضاً ولا يزرعون بقاعاً لانهم يعتقدون بان ذلك يحط من كرامتهم ويضع من قدرهم فقلت له اراك حانقاً على الناشئة الجديدة فهل لك اولاد لا يأتمرون بامرك ولا يفعلون مشيئتك في حراثة الارض وزراعتها؟ فاجاب قائلاً : انت عائد من ديار المهجر ولم تزل تجهل حالتنا. تأمل في هذه البلدة التي يزيد سكانها على الاربعماية نفس وليس فيها سوى بضعة شيوخ لا يتجاوز عددهم اصابع اليد وهم رغماً من هرمهم يحرثون ويزرعون واما شباننا العصريون الذين يبلغون الماية عدداً فهم يحتقرون الزراعة والزراعين والفلاحة والفلاحين واني استسلم للحزن الشديد حينما يلوح امامي شبح المستقبل المظلم حيث تقضي البقية الباقية من شيوخ لبنان الاقوياء فتصبح هذه الارض التي احببتها كثيراً قفراً بلقعاً وقاعاً صفصفاً من جراء تهامل فتياننا وقلة نشاطهم وعدم رغبتهم في اتباع سنة ابائهم واجدادهم في غرس حقولهم وزرع بقاعهم. اتأسف حينما افتكر بان عرق الاباء والاجداد الذي تصبب من جباههم في استثمار لبنان وتشجيره سيذهب ضياعاً

وحينما اتأمل في حالة لبنان الحاضرة لا املك نفسي عن البكاء فاعذرني

تركت الشيخ الفلاح يشرق بدمعه ويتأوه على حالة الوطن متشائماً في مستقبله فاثرت بي كثيراً عظته المزدوجة اعني العظة الاولى التي القاها على مسامعي فقد انطبعت في ذهني ورسخت في طيات قلبي ودماغي والعظة الثانية التي نشرها امامي من دموعه ومن انينه المتواصل الصادر من تموجات صدره

وحنايا اضلعه قد اثرت في نفسي تأثيراً مبرحاً وجعلتني اشاركه في احزانه وبكائه وفي اتراحه وشقائه

يا ابناء الارز اسألكم بحق الاباء والاجداد ان تحافظوا على الاخلاق اللبنانية الصرفة البعيدة عن الموبقات وان تقتبسوا من ابناء الغرب حب العلم والتفنن في الصناعة والزراعة لا التفنن في الاباحة والخلاعة واحرثوا هذه الارض التي ولدتم بها فهي وطنكم ومسقط رؤوسكم ومثوى عظام ابائكم واجدادكم وتمعنوا في عظة هذا الشيخ فهي عظة كل لبناني حكيم يحب ترقية وطنه و يتفانى في سبيل مواطنيه

على طريق العين

عصاري ذات يوم من ايام تموز سنة ١٩٢٤ ذهبت لترويح النفس الى عين الجوزة القائمة في الناحية السفلى من قرية شرتون فوصلت اليها قبل المغيب وهناك بعد ان غسلت يدي ووجهي مراراً بمائها البارد العذب اخذت اتناول الماء في كفي حفنةً حفنةً واترعه صرفاً زلالاً على عادة الاباء والاجداد فشعرت بلذة خارقة لم اشعر بمثلها على موائد ابناء التمدن ازاء اقداح الجعة والشمبانيا

عند تلك العين كنت اجلس صغيراً ومن تلك الماء كنت اترع حتى صرت يافعاً وفي ذلك الكوثر الجاري بين اتلام الخضر واغراس التوت كنت الهو والعب مع اترابي الصغار اقضي الساعات الطويلة الهنيئة بعيداً عن مشاغل الحياة وهمومها

عند ذلك الينبوع الصافي كان الاباء والاجداد يلتئمون في ايام صغرهم وعنفوان شبابهم وطور هرمهم لقضاء حاجاتهم وري ارضهم وسقي مواشيهم

غابت شمس تلك النهار في طيات الابدية وغاصت حرارتها في الارض ولم ازل جالساً الى العين اتذكر في الماضي البعيد عهد الاباء والاجداد والماضي القريب المتعلق في طفولتي وطفولة اترابي وبينما انا على تلك الحال شعرت بنسيم الغروب المنعش يهب على الاشجار فتتهادى اغصانها ويهفو على الازهار والاثمار فتتمايل وتتناثر. في تلك الساعة ابتدأ الناس حسب عادتهم المألوفة يؤمون طريق العين كباراً وصغاراً. رأيت احدهم آتياً يسقي ابقاره وهي بمثابة يمين الفلاح وشماله لانها تؤدي خدمة جلى للانسان في فلاحتها الارض والبانها ولحومها وجلودها ونظرت الاخر آخذاً بزمام حماره وهو تارةً يدق على «ارغله» وطوراً ينشد الاناشيد اللبنانية المطربة كالعتابا والبغدادي وخلافهما فاثر بي غناؤه الشجي تأثيراً عظيماً واخذ بمجامع قلبي صوت «ارغله» الحنون وحرك عواطفي من مكنوناتها واثار شواعري من مخبآتها. في تلك الساعة شعرت ما لم اشعر بمثله في مسارح الغناء والموسيقى في اميركا واوربا رغماً عما كنت اشاهد هناك من براعةٍ في الفن واصول في اللحن وخلابة في الصوت ودقة في الابداع ورقة في الايقاع على الآلات المطربة

نعم لم اشعر بما شعرت لاني الفت تلك الاناشيد من صغري وهي عندي بمثابة انشودة الوطن وترنيمة الام لطفلها

ثم اقبلت الفتيات القرويات حاملات على اكتافهن الاجرار ليملأنها ماء. رأيتهنَّ يسرن على طريق العين ازواجاً وافراداً غير متأنقات ولا

متجملات يرتدين اثواباً نظيفة لائقة و يتقمطن المناديل الصغيرة على رؤوسهن للوقاية من حرارة الشمس والهواء وشعورهنّ الطويلة مضفورة ومسترسلة على اكتافهنّ . لا اثر عندهن (للموضة) الباريسية البراقة والخلابة معاً حيث لم ارَ صدراً عارياً ونهوداً بارزة ظاهرة واذرعاً مكشوفة الى موءخر الكتف ولباساً شفافاً ضيقاً ولا مساحيق ولا حمرة على وجوهن سوى مساحيق الخجل وحمرة الحياء اللذين يكثران من جمالهنّ الطبيعي المزدوج اعني جمال النفس وجمال الجسم

تحمل القروية اللبنانية جرتها المملوءة ماء على كتفيها وهي على الغالب حنطية اللون رشيقة القد ربعة القامة جذابة فيها من معاني الجمال والظرف ما يغنيها عن التبرج والتجمل

ومن يتمعن بها قليلاً يرى في عينيها الجميلتين اللامعتين علامات الذكاء والفطنة وفي تقاسيم وجهها وتقوس حاجبيها شعلة العواطف والحنو وفي سيرها وسلوكها آثار الهدوء والفضيلة

نظرت اثنتين منهنّ على طريق العين تتكلمان فقالت احداهن لرفيقتها يا عزيزتي اني حزينة للغاية لان اخي سيبرحنا الى اميركا في الشهر القادم ووالدتي المسكينة تلح عليه بعدم السفر وهو لا يصغي لكلامها فاجابتها بصوت خافت : ما هذه الحالة التي وصلنا اليها فكل من يبلغ اشده في هذه القرية يهاجر الى اميركا وسنبقى نحن الفتيات لوحدنا بلا معين ولا نصير اذا لم نلتحق بهم . هذه هي حالتنا النفسية يا رفيقتي وسنصبح وأيم الحق في هذه البلاد نساء بلا رجال وفتيات بدون فتيان

مسكينة الفتاة اللبنانية فهي بعد هجرة فتاها كالزنبقة الذابلة التي لا عين تنظر اليها ولا يد تسقيها لتنمو وتزهر

مسكينة تلك الفتاة فهي تنظر في المستقبل نظر المتشائم وتناجي فتاها المهاجر الضارب في مشارق الارض ومغاربها ليتذكرها و يعود اليها

مسكينة تلك الفتاة قد بحّ صوتها وتصاعدت زفراتها وتقطعت حبات قلبها وهي بانتظار فتاها المتغرب الذي يلهو في مهجره مستعيضاً عنها في الاوانس الغربيات والغواني الناعمات

مسكينة تلك الفتاة فهي تنظر الى البحر شذراً لانه اقصى فتاها عنها وتلعن السفينة التي اقلته الى بلاد كولمبس لانها تأخذ ولا ترد وتستدين ولا تفي

هذا البحر الذي يدعى المتوسط فهو يحمل اللبنانيين الى اقصى المعمور كودائع يردها الى اصحابها ولكن هيهات ان ترد الودائع . لان ديار الغربة تبتلع النازحين اليها كما يبتلع البحر العظيم ماء الانهر والجداول

الفتيات ومعامل الحرير

من يتفقد القرى اللبنانية لا يرى اثراً للصناعة في طول البلاد وعرضها سوى معامل الحرير التي لولاها لكان العمال والعاملات في لبنان في اسوأ حال

منذ انبثاق الفجر يرى الانسان الناهض باكراً من فراشه الفتيات القرويات سائرات الى المعامل زرافات ووحداناً حاملات في ايديهن طعام

الغذاء وفي صدورهن قلوب نقية تعبر عن شعور رقيق وعواطف سامية

دخلت بعض المعامل لاجل التسلية وتمضية الوقت فوجدت الفتاة القروية الجميلة جالسة امام دولابها وهي تضع يديها اللطيفتين في الماء الغالي سحابة النهار لحل الفيالج . نظرتها تشتغل بكل اتقان ونشاط وهي تفوق العاملات الغربيات باندفاعها على العمل في كل صبر وتؤدة كأنها صاحبة المعمل وهي لا تشتغل في يديها فقط بل في دماغها ايضاً لان مدير المعمل يحسم عَلَى كل فتاة مما تتقاضاه من الاجرة اليومية اذا لم يكن حريرها سالماً من الشوائب ولهذا السبب فهي تشغل العقل والجسم معاً

يبتدىء الشغل في معامل الحرير الساعة السادسة صباحاً وينتهي الساعة السابعة مساءً ولا راحة للعاملات في خلال النهار سوى ساعة ونصف ساعة تقريباً فهنَّ يشتغلن ما يزيد عن احدى عشر ساعة يومياً وهذا كثير جداً بالنسبة الى قانون الشغل في اوربا واميركا حيث سنَّت الحكومات الغربية شريعة الثماني ساعات لا غير يشتغل بها فقط العمال والعاملات في نهارهم في جميع انواع الصناعات والاشغال . وقد شاءت الحكومات المتمدنة تخفيض ساعات العمل حفظاً لكيان العمال ومحافظة عَلَى صحتهم الغالية لان معظم سكان الامم منهم ورغماً من سهر الحكومات المتواصل لترقية الطبقة العاملة فاننا نقرأ في الجرائد من آونة الى اخرى اعتصاب العمال في اميركا واوربا لاجل تحسين حالهم وزيادة اجورهم الى ما هنالك . . واما العاملات اللبنانيات فهن يشتغلن الاحدى عشرة ساعة دون توانٍ ولا ملل ولا يعرفن معنىً للاعتصاب الذي يقع دائماً في بلاد الغرب اذ لا نقابة للعمال في القرى اللبنانية . والنقابات كانت

الباعث الاكبر في البلاد الغربية لتنقيص ساعات العمل وزيادة الاجور وهي لم تزل حتى الان منبع الاعتصاب عند الحاجة الماسة

فالنقابات هي من دلائل الارتقاء كما ان العامل الغربي يعتقد تمام الاعتقاد ان كل فرد من افراد الامة له ملء الحق في الحياة والطمأنينة والتلذذ في خيرات الارض التي هي أم الجميع لا أم فئة منهم

ولكن من تأمل ملياً في حالة المعامل في لبنان يرى ان العاملة والعامل ورب المعمل كلهم يشتغلون بجد ونشاط واقدام ولكن بدون جدوى لان ما ينتجونه من عرق جباهم تذهب فائدته الى المعامل الاجنبية التي هم تحت رحمتها ومطلق تصرفها . ومن درس تاريخ المعامل الحريرية في لبنان منذ نشأتها حتى الان تظهر له الحقيقة حيث لا يرى الا النزر القليل الذين نجحوا نجاحاً مذكوراً من جراء اشتغالهم في هذه الصناعة بل بالعكس كانت نهاية معظمهم الافلاس والخراب . وهذا يدل صريحاً على ان اللبناني تنقصه الخبرة الصناعية فهو يتهجم تهجماً على كل فنّ يزاوله دون ان يدرسه درساً وافياً ليأمن من الشطط فهو والحالة هذه في صناعته كمن يبحث عن حتفه بظلفه

فمتى استغنى ارباب المعامل الحريرية عن المال الاجنبي واهتموا في تأسيس مصرف مضمون من مجموعهم يكفل لهم احتياجاتهم اللازمة ثم انشأوا بمعونة بعض المثرين من ابناء البلاد معامل للنسيج لتكون جزءاً مكملاً للمعامل الحريرية الحاضرة فعندئذٍ تسلم صناعتنا الحريرية من الخسارة ويزيد انتاجنا وتعرض بضائعنا في اسواق العالم كما تعرض اليوم البضائع الحريرية الافرنسية واليابانية والصينية

فمتى وصلنا الى هذه النتيجة تتحسن حالة ارباب المعامل في لبنان ويعقبها على الاثر تحسين امور العمال والعاملات في زيادة اجورهم وتنقيص ساعات شغلهم . واما اليوم والحالة هذه فلا لوم على ارباب المعامل ولا تثريب فاللوم كل اللوم على الفقر الذي مصدره الجهل فليفقه الغافلون

كنيسة القرية وطفولتي

ليست كنائس المدن المزدانة بالتحف الغالية والتماثيل الثمينة باكثر جلالاً واشدّ وقعاً في النفوس من كنائس القرى البسيطة الخالية من كل زينة لانني ارى امامي في تلك الهياكل المزخرفة من عظمة البناء وجمال الفن ما يلهيني عن التأمل في الخالق والتبحر في الصلاة والعبادة

واما كنائس القرى الحقيرة فيرى الانسان فيها مجالاً واسعاً لمناجاة ربه ومناقشة ضميره الحساب

ان كنائس المدن الحاوية المذابح الرخامية والعواميد الضخمة تمثّل امامي الثروة والعظمة والجبروت . واما تلك الهياكل البسيطة في القرى فهي تمثل الفقر والتواضع والمسكنة

هذه يؤمها غالباً الفقراء والفلاحون وتلك يدخلها عادة الاغنياء والاماثل

يقرع جرس القرية في كل صباح ومساء منبئاً الناس موعد الصلاة واما القرويون فانهم يؤمون الكنيسة في ايام الاحاد والاعياد كباراً وصغاراً

لحضور الذبيحة الالهية وكما انهم يختلفون الى الهيكل لاقامة الصلاة فهم ايضاً يجتمعون هناك في سرائهم وضرائهم

في المدن رأيت السيدات والاوانس يذهبن الى الكنيسة مرتديات اثمن الحلى لابسات اجمل الحلل كأنهنّ يدخلن قاعات الزهو والبهرجة لابيت الله. واما القرويات فهن في الغالب يلجنَ باب الهيكل غير متجملات ولا متبرجات لانهن يقصدن الصلاة لا الغواية والزينة

لم انسَ حين كنت صغيراً العب مع اترابي في دار كنيسة القرية وهناك كنت ارى شبان البلدة يتسابقون على دق الجرس لاظهار قوتهم وبراعتهم كما يتسابق اليوم ابناء الغرب في الالعاب الرياضية كلعبة «التنيس» وخلافها

لم انسَ حين كنت استظل تحت افنان سنديانة الكنيسة من حر الشمس او من وابل المطروحين كنت اصعد اليها متسلقاً اغصانها المترامية الاطراف تارةً لقطف اثمارها وطوراً لاجل التسلية والتفكهة

ان دار الكنيسة حيث كنت ألعب هناك في طور الصغر قد سلبت مني ايام الطفولة. فبعد ان ترعرعت في ديار المهجر عدت الى بلادي واميّت تلك الدار اسائلها عن طفولتي اين وضعتها وفي اي مكان خبئتها فلم اجد لها اثراً لان الزمان قد التهمها كما سيلتهم شبابي ومشيبي

حينما اناجي نفسي اشعر كأنني لست انا ذلك الطفل الصغير الذي كان يلهو ويلعب في ايام الحداثة ولا يفتكر في امر من امور الدنيا سوى المأكل والمشرب طارحاً خلف ظهره اثقال الحياة وهمومها

نعم انا ذلك الطفل . انا طفل الماضي — وشاب اليوم — وشيخ الغد
ان روح ذلك الطفل هي نفسها تتسرب في احشائي الان وتتمخض في
داخل دماغي

ان عواطفه الكامنة في جسمه الصغير قد تمددت في تمدد اوداجه وظهرت
للعيان في ظهور شبابه

ان الطفل يشبه الغرفة المقفلة مفتاحه الشباب وخزانته الكهولة

مررت البارحة مساء في دار كنيسة القرية فرأيتها مضاءة وسمعت
المؤمنين يتلون الصلاة ويطلبون باعلى اصواتهم من باري الوجود كي يرفع
نير الغلاء والمجاعة عن زقاب عباده

فدخلت عندئذٍ الكنيسة وهمستُ في اذني احدهم هذه الكلمات :
صلوا لربكم ولحكومتكم — الى ربكم ليدر عليكم خيرات الارض وبركاته
والحكومة لتمنع احتكار تلك الخيرات —

قد زرت معظم كنائس القرى اللبنانية فوجدت في بعضها حاجزاً من
الخشب يقسم الكنيسة الى قسمين القسم الاول المواجه المذبح يختص بالذكور
وحدهم والقسم الثاني للاناث . واما اليوم فلا ارى من مسوغ لبقاء هذا الحاجز
الذي اوجده جهل الاجداد حباً بالفضيلة التي تبنى اساسها على التربية الصحيحة
والعلم الصحيح لا على تلك الحواجز البسيطة التي لا شأن لها . وفضلاً عن
ذلك ان المرأة هي رفيقة الرجل وحليلته لا تُنبذ ظهرياً لان لها ما له من
الحقوق والواجبات سواء كان في بيت الله ام في الهيئة الاجتماعية

حينما كنت في الخامسة من عمري اخذتني المرحومة جدتي لانام في

الكنيسة من جرآء مرضٍ طرأ عليَّ فبت هناك برفقتها تلك الليلة وكان الفصل فصل شتاء والمطر يتساقط على الارض كأنه من افواه القرب والزمهرير متواصل والبرد قارص والعاصفة تهب تلو العاصفة واما انا فكنت دافئاً لكثرة الاغطية

وكانت المرحومة جدتي تارةً تصلي لله لاجل ابلالي وطوراً تتضرع اليه تعالى قائلةً : يا ربي ارحم المسافرين في تلك الساعة وساعد ابناء السبيل واليتامى والمنكوبين : فأثرت فيَّ صلاة الجدة وها قد كبرت ولم ازل اتذكر تلك الصلاة وتلك الليلة فأفيها قسطها من الرحمة

لقد قرب فصل الشتاء يا ابناء النعمة والثراء رفقاً بالفقراء والمعوزين

مدرسة القرية

في الخامسة من عمري دخلت مدرسة القرية وقد تعلمت فيها الحروف الهجائية والابجد والطوبي . والان كلما مسكت اليراع وتصفحت الكتب والمجلات اتذكر تلك المدرسة القروية التي كانت اساساً لعلمي في ايام الحداثة

كانت تلك المدرسة تضم داخل جدرانها اطفال البلدة من السنة الخامسة الى الحادية عشر واما الذين فوق هذا السن فكانوا على اعتقاد ابائهم واجدادهم قد انهوا علومهم لانهم اصبحوا يقرأون المزامير ويعلقون الاسم سوى النذر القليل منهم الذين كانوا يؤمون المدارس الكبرى في بيروت

لم ازل اتذكر حتى الان احد المعلمين المتهوسين الذي كان اقسى الاساتذة الذين عرفتهم في ايام صغري . ففي كل صباح كان يرسل احد

الطلبة الى (الحرج) ليجمع له حزمة كبيرة من القضبان الخضراء لاجل ضرب التلامذة اعتقاداً منه بان الضرب المبرّح الذي يجعل الدب يرقص والسعدان يتثنى ويتمايل هو ايضاً الواسطة الوحيدة الفعالة لتعليم الناشئة القراءة والكتابة . ولكن فاته ان التلامذة ليسوا من انواع الدبب والسعادين . وفات اباؤهم الجهلاء ايضاً الذين كانوا يوصون المعلم في بنيهم هكذا : « لك اللحم ولنا الجلد والعظم »

فليعلم الاباء والاساتذة بان المدرسة ليست جحيماً متأججة ولا ناراً آكلة فليجعلوها في اعين الطلبة وفي اذهانهم جنةً من الجنان تجري من تحتها الانهار والجداول وفردوساً ارضياً حاوياً كل ما لذ وطاب . لان الاطفال يقتبسون العلم بقوة التشويق والترغيب والمحاسنة اكثر من طريقة التنديد والتقبيح والمشاكسة

ان المدرسة اذا كانت متقنة ومنظمة هي وحدها تصنع من اطفال الامة رجالاً اكفاء في الاعمال المتنوعة والصناعات المختلفة واذا كانت مشوهة تصنع رجالاً مشوهين في مادياتهم وادبياتهم

لعمري ان السفينة اذا لم تكن آلاتها موقعة تمام التوقيع وسالمة من الشوائب لا تقدر ان تخترق الامواج ماخرةً عباب البحر وهكذا المدرسة فهي في الامة كالالة في السفينة

ليست الالعاب الرياضية مما يعتد به في مدارسنا مع انها لازمة تمام اللزوم لان سلامة الاذهان من وراء سلامة الابدان ويجب على الاساتذة ايضاً بان يقتدوا بالافرنج الذين سبقونا شوطاً في مضمار العلوم والحضارة

باتباع الاساليب المستحدثة والاكثر وضوحاً لتقريب العلم من اذهان الطلبة وتفهيمهم اياه بصورة جلية راسخة

حتى الان لا يوجد (برنامج) تتمشى عليه الامة اللبنانية في تعليم الناشئة سواء كان في المدارس الكبرى ام الصغرى ففي كل مدرسة يرى الانسان كتباً مختلفة في ايدي الطلبة حسب اهواء رئيس المدرسة او المعلم · وهذا هو الخطأ الفاضح الذي يجب استدراكه لان الامة لا تحصل على الوحدة القومية الا عن طريق وحدة التعليم الذي هو اساس اتحاد الامم وسبب نهوضها

فعلى نظارة المعارف ان تهتم في وضع (برنامج) التعليم وان تحسب في مقدمة الكتب اللازمة الاستعمال تاريخ الوطن وجغرافيته اللذين يجب ان يتعلمهما عموم الطلبة بدون استثناء لكي يعلم كلٌ من ابناء هذا الوطن تاريخ قومه قديماً وحديثاً وجغرافية بلاده ليحيط علماً بمدنها وقراها وصرودها ونجودها وانهارها واشجارها وكل ما بها من الصادرات والواردات

ولم ازل اذكر حينما كنت اتلقن العلم في مدارس بيروت الكبرى حيث كنا في الصفوف الابتدائية نتعلم التاريخ المقدس ثم تاريخ الرومان فالتاريخ العمومي والجغرافية العمومية المختصرة · وقد انهيت علومي في تلك المدرسة ولم يقع نظري على كتاب تاريخ لبنان وسوريا وجغرافيتهما مع ان سائر امم الارض يعلمون النشء قبل كل شيء تاريخ وطنهم وجغرافية بلادهم لانهما اساس الوطنية وصخرة الاستقلال

ومما هو جدير بالذكر ايضاً ان الفت نظر الحكومة لسن قانون التعليم

الاجباري فهو الامر الجوهري لحياة الامة · لاني وجدت في كثير من القرى اللبنانية اطفالاً صغاراً في سن المدارس بعضهم يرعون المواشي ويحترفون احدى الحرف والبعض الاخر يتخطرون في ازقة القرى وهم يهرجون ويمرجون سحابة نهارهم دون ان يدخلوا المدارس لاجل تثقيفهم وتهذيبهم · فعلى الحكومة والحالة هذه الاهتمام الكلي في عناية اطفال الامة واخذهم على عاتقها · وان تضع نظاماً صارماً تنذر الاباء تحت طائلة العقاب الشديد اذا هم لم يرسلوا بنيهم الى المدارس على الاقل من السنة السابعة الى الرابعة عشرة · فبهذه الصورة يخلو الوطن من الاميين في قليل من الزمن ويصبح في مستوى الامم الراقية

فليعلم ابناء الشرق ان لا زينة الا في العلم—ولا جمال الا في الفن—ولا ثروة الا في الصناعة —والمدرسة هي اساس العلوم والفنون والصناعات هي مهد الحضارة ونبراس التقدم، هي الكل بالكل و كفى

فضعوا جل اهتمامكم بها لانها الموئل الوحيد لقيام الوطن من عثرته وجموده

اتكال المتخلفين على المهاجرين

جال في خاطري هذا الموضوع منذ صرفت الاشهر الاولى في ربوع الوطن العزيز حيث ساعدني الحظ بالاحتكاك في سائر طبقات الشعب اللبناني وقد احجمت مراراً عن الخوض به لكي لا ازعج المتخلفين وأُلقي على عاتقهم تبعة الخمول والتواكل ولكن هي النفس الطامحة الى سرد الحقائق الراهنة

ابت عليّ سكوتي والزمتني اظهار ما يكنه فوءادي وما اعتقد به حقا وصوابا سواء رضي عني مواطني المتخلفون ام لم يرضوا · لاني اذا لازمت الصمت في هذه المسألة الحيوية اكون قد جنيت على نفسي وعلى امتي

لا يوجد شعب من شعوب البسيطة يتكل متخلفوه على مهاجريه سوى الشعب اللبناني · فمن يتفقد القرى اللبنانية قرية قرية ويتدخل في شوءون السكان ويعاشرهم مليّاً يرى معظمهم يعيشون على الحوالات المالية المرسلة من ذويهم الضاربين في مشارق الارض ومغاربها

فنرى الناس في لبنان على اختلاف طبقاتهم ينتظرون بفروغ الصبر البريد الاميركي لعلهم يستلمون بعض الحوالات لاجل جلب المؤن لبيوتهم وشراء لباسهم وسائر امتعتهم · واذا طولب احدهم بقيمة مستحقة عليه يجيب على الفور انه بانتظار المال من اهله المهاجرين لكي يقوم بوفاء ديونه وكذلك من كان قادماً على الزواج فهو ينتظر استلام الدراهم من العالم الجديد لاجل القيام بنفقات اكليله

حتى ان البعض منهم اذا كانوا مستعدين على ترك البلاد والنزوح الى ديار الغربة تراهم يكتبون بالحاح متواصل لذويهم وانسبائهم كي يرسلوا لهم « الناولون » لان هنا تحت سماء الوطن لا يستطيعون ان يجمعوا شيئاً حتى ولا القيام باود معاشهم

كأن البلاد اصبحت بنظر سكانها قاحلة مرملة لا نبات فيها ولا حياة · هذا كله متأتٍ من فقدان الثقة بالنفس اولاً وفقدان الثقة في تحصيل المال في الوطن ثانياً

فقدان الثقة بالنفس هي اكبر آفات المرء واشدهم وطأة على حياته لا بل هي الطامة الكبرى والبلية العظمى لان الانسان اذا فقدها يفقد كل شيء حيث يخسر قوة الارادة التي بدونها لا نهضة مادية ولا ادبية في العالم الانساني

لان المرء يصبح رهين التواكل والتصاغر والانانية والخمول

فمن كان مصاباً بهذا الداء العضال داء عدم الثقة بالنفس يرى التافه من الامور مستحيلاً والنزر اليسير صعب المنال فيكبو ويرزح تحت اثقال الخمول والوهن عرضة للطوارىء ومهبطاً للنوازل ولا يجني من جراء تهامله وخموله سوى الذل والمسكنة والفقر المدقع

واما صاحب الثقة بنفسه فيطمح طموحاً كلياً للحصول على الماديات والادبيات وهو لا يألو جهداً دون بلوغه مناه. تراه دائماً يجهد الجسم والعقل في المثابرة على اشغاله ويدأب ليلاً ونهاراً جاداً في تحسين اعماله. فهو يمهد الصعاب بقوة جده ونشاطه ويقتحم المخاطر طلباً للمجد والعلاء بقوة ارادته واعتماده على نفسه لان من لا يركب الاهوال لا ينال الرغائب

أليست الثقة بالنفس هي التي جعلت نابوليون الكورسيكي امبراطوراً على الافرنسيين ؟

أليست هي التي ساعدت اديسون الاميركي الشهير على اكتشاف اسرار الكهرباء لفائدة البشرية جمعاء ؟

أليست هي ايضاً تجعل الفرد عظيماً والامة عظيمة ؟

أليست هي التي اوجدت امثال دانتي وشكسبير وهوغو وابو تمام والمتنبي وابو العلاء ؟

نعم ان الثقة بالنفس تجعل المستحيل ممكناً والصعب القياد منقاداً والغير الموجود موجوداً اذ لا كبوة لمن يتكل على ذاته ولا عثرة لمن يعتمد على جده ونشاطه

فالويل ثم الويل لمن يفقد الثقة بالنفس فهو كالفاقد الحياة لا يعي ولا يستوعي

واما فقدان الثقة في تحصيل المال في الوطن فهو اعتقاد بغير محله لا يعتد به لان البلاد كسائر بلاد الله تربة وخصباً وانتاجاً ولا ينقصها سوى اليد العاملة لقيام الزراعة وتعميم الصناعة واستثمار الخيرات الكثيرة الدفينة في قلب الارض لان مواد البلاد وافرة ومتعددة لا تنضب عند ابناء الجد واصحاب الخبرة والمدارك السامية

فمورد الاصطياف مثلاً اذا اتقنه اللبنانيون تمام الاتقان في معظم انحاء الجبل وشيدوا البيوت الجميلة المستوفية الشروط وانشأوا الفنادق الحديثة الطراز في اكثرية القرى القابلة الاصطياف وسهلوا المواصلات واعلنوا على صفحات الجرائد الوطنية والعراقية والمصرية والاوروبية فهم لا شك يرون المصطافين يؤمون لبنان بالالوف وعشرات الالوف من كل حدب وصوب لما حباه الله من جمال البقعة وعذوبة الماء واعتدال الهواء وهو مورد اذا استثمر كالواجب لا يستهان به

وكذلك اذا اهتم بعض الاغنياء بمساعدة الحكومة المحلية في تأسيس

الشركات الوطنية والقيام ببعض المشاريع العمومية كالانتفاع من مياه الانهر المنحدرة من اعالي الجبال والذاهبة ضياعاً الى البحر للاهتمام بالري وبتوليد الكهرباء وباكتشاف معادن الفحم الحجري الموجودة بكثرة في بطون البطاح والاودية · فمثل هذه الثروات الطبيعية الكائنة في قلب الارض واديها اذا ظهرت الى حيز الوجود اراحت ابناء البلاد من اثقال الفقر وكاهل العسر ولو اصبح عدد السكان اضعاف الاضعاف

فلينتبه اللبنانيون الى خيرات بلادهم وليتكلوا على نفوسهم فهي الكفيلة لهم بالنجاح وعلى استثمار ارضهم التي تدر لهم عسلاً ولباناً· ولينبذوا الاتكال على الغير نبذ النواة ولو كان اباً او اخاً او نسيباً لان الاتكال على الغير يورث الكسل والخمول والهوان وفقدان الثقة بالنفس وبالوطن

ان البلاد في عهد الامراء كانت تقوم بنفقة سكانها من الاشتغال بالزراعة لا غير لان الناس في ذلك العهد كانوا بغنىً عن الملابس الحريرية والرياش الفاخر والازياء الحاضرة الكثيرة النفقة لانهم كانوا يعيشون اقرب الى البداوة منهم الى الحضارة · اما اليوم فقد تحضروا واصبحت مصاريفهم الباهظة لا تقاس بالنسبة الى الماضي

لعمري ان الحضارة ليس مغزاها كثرة النفقات والتكاليف الجمة الجليلة فحسب بل هي التي تجعل الانسان راقياً يفتكر ليبتكر ويشتغل ليستفيد ويخترع ليزيد انتاجه · ومن ثم يهتم بتحسين معاشه

واما اللبنانيون فقد تحدوا الافرنج في الملابس والمآكل والمراقص والمسارح والملاهي وسائر اسباب الرفاه بيد انهم لم يقتدوا بهم في الاشغال

والاعمال وقيام المشاريع العمرانية والصناعات المختلفة · ولهذا السبب اذا امعنا الروية فيما يلحق العائلة اللبنانية من النفقات في هذا العصر نرى المصروف غالباً يربو على المدخول لقلة اهتمام الناس في المثابرة على الاشغال وعدم اتكالهم على نفوسهم واتباعهم سبل الاقتصاد

ان الحضارة لا تقوم على ظواهر الامور بل على بواطنها وهي لا تسلم طويلاً اذا تأسست على الجهل والبذخ والتبذير لانها تشبه البيت المبني عَلَى الرمل اذا هبت الرياح واشتدت العواصف يهوى على الارض ويسقط سقوطاً عظيماً · واما الحضارة القائمة دعائمها على العلم الصحيح والخبرة والادارة فهي تعمر طويلاً وتعمر كثيراً

يا بني امي اذا احببتم ان تنهضوا من عثرتكم وتصبحوا في عداد الامم الراقية فيجب عليكم قبل كل شيء ان تفهموا قيمة الوقت ومعنى الاقتصاد ويجب على الاباء والامهات والاخوة والاخوات وسائر افراد الامة ان يشتغلوا جميعاً دون ان يتكلوا على مهاجريهم

فلو قام المتخلفون بنفقاتهم واكتفوا بدخلهم لكان المال المتدفق عليهم من ديار المهجر يبقى للمشاريع العمومية واستثمار الثروة الطبيعية الكامنة في قلب الوطن فبهذه الصورة يزيد انتاجهم فتزيد رفاهيتهم ويصبحون في غنىً عن المهاجرة · لان البلاد مهما كانت ضيقة لا تضيق بوجه سكانها المجتهدين

وفضلاً عن ذلك لقد نظرت بعيني مراراً بعض الشبان المتهوسين الذين يستلمون المال جزافاً من اهلهم وانسبائهم في المهجر وهم تحت سماء الوطن يبددونها تارةً في بيوت الخلاعة وطوراً على المائدة الخضراء (اعني المقامرة)

وقد صح بهم المثل السائر (ما لا تتعب عليه الايدي لا تحزن عليه القلوب) فهم في اعمالهم هذه يصرفون عرق جباه اهلهم ودماء قلوبهم ولا يدرون ولا يشعرون كأنهم صخور صماء وجلاميد لا احساس فيها

فليعلم هؤلاء الجهلة انه لا يوجد في العالم الجديد ولا في افريقيا واستراليا مقالع عمومية للذهب كمقالع الحجارة لكي يذهب المهاجر فيقتلع منها ما يشاء ويرسله الى ذويه لكي يبذخوا ويبذروا كلما طاب لهم الريح . فهناك في ارض الغربة كل درهم يربحه المهاجر يوازي نقطة دم لانه يبتدىء بشغل (الكشه) المضنك متأبطاً بها على ظهره ومتجولاً في كل ناحية طلباً للرزق فيجمع المال درهماً درهماً بعد بذل العناء واحتمال الشقاء

ان تلك (الكشه) هي عند اللبناني المهاجر تمثل الصبر والثبات اللذين يتصف بهما ابناء الجبال وهي اقدس اثر في اعين المهاجرين رغماً عن كونها اكثر عناءً واشد بلاءً من سائر الاشغال والصناعات لانها كانت ولم تزل حجر الزاوية في تأسيس رؤوس الاموال اللبنانية المعتبرة وفي انشاء البيوتات التجارية المعروفة في المهجر

فليعلم المتخلفون ان الشغل المتواصل المقرون بعرق الجباه ودماء القلوب هو وحده اساس رأسمال المهاجرين وعمدة متاجرهم ومصانعهم وما هم عليه الان من السعة والثروة فلو اشتغلوا في بلادهم كما يشتغل النازحون فهم لا شك يجنون ثمرة اتعابهم ويحرزون من الثروة في عقر دارهم ما لا يقدر على احرازه المهاجر الضارب في مشارق الارض ومغاربها

فمن كان في شك بما اقوله فعليه ان يدرس حياة بعض المتخلفين الاغنياء

الذين اثروا في اوطانهم من جراء جدّهم واجتهادهم وبلغوا شأواً بعيداً في تقدمهم ونجاحهم دون ان يركبوا البحار و يحتملوا مضض الاغتراب فهم عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ

فلينتبه الغافلون وليفقه الخاملون الذين يعتقدون ان لا نجاح في الوطن ولا فلاح لهم فهم في غيهم يمرحون وفي ضلالهم يسرحون

ابناء العشائر

يتألف الشعب اللبناني من طبقات اربع : ابناء العشائر : الاغنياء : الطبقة الوسطى : والطبقة الدنيا

اما ابناء العشائر الذين اكتب عنهم الان فقد تقلص نفوذهم الاقطاعي الذي كان لهم من نصف قرن وقد خسروا تدريجاً تلك المهابة والجلال اللذين كانا لهم ايضاً في اعين الشعب اللبناني حيث لم يعودوا السادات المطلقين الآمرين والناهين لان العصر الحالي هو عصر الاخاء والمساواة بين سائر طبقات البشر لاعصر الامراء والصعاليك والاسياد والموالي والاحرار والعبيد كما كانت الحال في الزمن الغابر

والباعث الاكبر على هذا الانقلاب العظيم الذي كاد يشمل الخليقة جمعاء هو لا شك سنة النشوء والارتقاء التي ظهرت باسمى مظاهرها في هذا العصر الحافل في التجدد سواء كان في البيئات الاجتماعية والافكار ام في العلوم والفنون والاختراعات حتى انقلبت عقليات الامم ونفسياتها بطناً لظهر وحوّرت القوانين وعدلت الشرائع واوجدت الاحزاب السياسية الجديدة

والنظريات الحديثة (كالفتشيست) و (الاشتياع) وما شاكل

ان انهيار ابناء العشائر عن مراكزهم السامية في لبنان كان لسببين : الاول ما ذكرته آنفاً وهو يشمل عموم الامم والشعوب والثاني هو تبذيرهم المفرط وعدم محافظتهم على مادياتهم وادبياتهم حتى اصبح الفقر يهددهم من كل جانب والجهل المقرون بالعجرفة والكبرياء ضارب اطنابه بين ابناء الالقاب والانساب

ولهذا السبب نراهم قد فقدوا الاهلية والجدارة والعبقرية التي كانت سبب ارتقاء ابائهم واجدادهم من قبلهم الى ذروة المجد والسيادة بيد انهم ما زالوا حتى الان يتوارثون تلك الالقاب التي تنم عن فضل الجدود دون ان يرثوا فضائلهم كانهم يجهلون ان الاكتفاء بالالقاب كالاكتفاء بالقشر دون اللباب

واما النزر اليسير منهم الذين يحافظون على مكارم الاصل ونزاهة الآباء وعبقرية الجدود فهم ما برحوا في اعين الشعب اللبناني اصحاب الكلمة النافذة في البلاد والمركز المنيع والمقام السامي الرفيع

في هذا العصر الذي يدعى حقاً عصر الانقلاب والتجدد اصبح الملوك والامراء ورؤساء الجمهوريات والصعاليك والفلاحون والمعدمون كلهم ينظر بعضهم من اصل واحد وطينة واحدة لان الجبلة البشرية هي واحدة ولا تفاوت بين البشر الا في العلم والقوى العقلية والمدارك السامية

فاذا افتخر الامير بنسبه فهو يفتخر طبعاً بفضل الجد الاول الذي اكتسب الامارة من جراء عبقريته وشجاعته وسعة معارفه وسمو مداركه . فاذن هو

يفتخر باطناً بالفضائل الانسانية والكفاءات التي كان يتحلى بها الجد الاول لا بالنسب الدموي الذي لا شأن له

فلنفترض ان احد ابناء الصعاليك حصل على قسط وافر من العلوم والمعارف و برهن عن ذكاء مفرط وعقل راجح وحزم وافر حتى اصبح من الذين يشار اليهم بالبنان في النزاهة والثقافة والحنكة السياسية والادارية فهو لا شك اولى بالافتخار من غيره لانه احرز بفضل الجهود لا بفضل الجدود ما احرزه اجداد الامراء وسائر العشائر اذ لا شرف الا في العلم — ولا نسب الا في الصدق والنزاهة — ولا حسب الا في المبادىء القويمة والمدارك السامية الذين هم وحدهم اساس الشرف والنبل ودعائم الانساب والاحساب

الاغنياء

الاغنياء قليلون في لبنان وثرواتهم لا تذكر بالنسبة الى ثروات اغنياء الاوروبيين والاميركان لان البلاد ليست كثيرة الانتاج لفقدان المعامل والمشاريع العمومية على اختلافها

وفضلاً عن ذلك ان معظم اغنياء الوطن يكتفون بدخلهم وايرادهم واضعين اموالهم في المصارف الاجنبية ولا يبدون ادنى اهتمام في ايجاد المشاريع الائلة لنفعهم ونفع الوطن

فهم لهذا السبب لا يجنون من فائدة اموالهم الطائلة المودعة في المصارف الا نزراً يسيراً وبالوقت ذاته لا ينفعون الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا من

ابناء البلاد لعدم تشغيل رساميلهم في سهول الوطن ونجوده واستثمار خيراته الدفينة

وهذا هو الباعث الاكبر على مهاجرة اللبنانيين ارض ابائهم واجدادهم وتشتتهم عبر المحيط طلباً للرزق وسيخسرهم لبنان على توالي الزمان لان معظمهم لا يعودون الى ربوعهم . والذنب كله عائد على الاغنياء الذين لا ينشئون الصناعات المتعددة اللازمة والشركات المساهمة كي يجمعوا ابناء البلاد ضمن دائرة معاملهم ومشاريعهم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها

فبهذه الصورة يكون اغنياؤنا اعضاء عاملين حقاً لنفع الوطن وابنائه ويتمتع عندئذٍ اللبنانيون بالرخاء والرفاه وتصبح المهاجرة اثراً بعد عين

واما هم فلسوء الحظ غير ما يجب ان يكونوا لاننا نرى معظمهم مولعين في البطالة وصارفين اثمن اوقاتهم في الصيد والقنص والمسارح والملاهي والمقامرة وفي سائر ضروب البذخ والتبذير والتهتك وكل ما يؤول لرخائهم ونعيمهم الجسماني غير ملتفتين الى ما وراءهم ولا مكترثين لا في الصناعة ولا في فتح المدارس والمستشفيات والملاجىء لتحسين حالة التعساء والمعدمين من ابناء الوطن

ان كثرة المال غالباً في ايدي عموم الشرقيين مما يزيدهم انغماساً في الملذات والاباحة لانهم يصبحون على الطريقة الشرقية الواهنة بغنىً عن الشغل . والبطالة هي اساس الرذائل والموبقات ولهذا السبب ان المال الوافر في ايدينا وجد للهدم لا للبناء لانه يهدم الفضيلة ويساعد على قيام الرذيلة

واما ابناء الغرب فبعكس ذلك لان كثرة المال في ايديهم يزيدهم جداً واجتهاداً وعلماً ورقياً وانتاجاً فهم في ثرواتهم خُلقوا ليفيدوا و يستفيدوا مادياً وادبياً لا ليهدموا اسوار الجد والفضائل

اذا تصفحنا تاريخ اغنيائنا الحاليين نرى معظمهم قد ورثوا المال عن آبائهم واجدادهم وعاشوا في محيط النعمة والرفاه دون ان يأتوا عملاً يذكر فيشكر فهم في حصولهم على تلك الثروات الطائلة الموروثة يُشبهون كل الشبه ابناء العشائر الوارثين القاب الاباء واحساب الجدود دون ان يرثوا الاقدام والعبقرية

ان هذا النقص الظاهر تحت سماء الشرق في ابناء الثراء والنعمة متأت لا شك من التربية غير الصالحة لعدم تمرين هؤلاء الابناء من صغرهم على مزاولة الاعمال والاشغال وا كتفائهم باملا كهم فيشبون عَلَى الكسل والخمول وعدم الطموح وراء المكاسب

واما المثري الاوربي او الاميركي فهو بعكس ذلك تراه دائماً يربي اولاده منذ نعومة اظفارهم على محبة الشغل والاتكال على نفوسهم لا على ثروات اباءهم ومتى انهوا دروسهم لا يضعهم حالاً في اشغاله كي لا يفتروا و يتمردوا بل يرسلهم ليستخدموا مدة من الزمان تحت مناظرة من هم دونه ثروة وجاهاً ومالاً فيقتبسون في استخدامهم علم الاقتصاد والخبرة والادارة والانظمة والقوانين وكل ما يؤول لفلاحهم . وفضلاً عن ذلك يكتسبون صقل الطباع ودماثة الاخلاق ولين العريكة . وهي خطة ظهرت فائدتها جلياً في ابناء الغرب فلو اتبعها متمولو اللبنانيين في تنشئة ابنائهم

لكان لهم من البنين الصالحين والطامحين من يشار اليهم بالبنان

ان المرء الذي هو ابن الانسانية وفرد من افرادها ليست عائلته مؤلفة فقط من ابويه واخوته واولاده وانسبائه الادنين بل من العائلة البشرية جمعاء فعلى صاحب المواهب السامية والمقدرة على الانتاج ان يسعى لينفع المجموع في اعماله لا بضعة اشخاص منهم

ولهذا السبب ارى من الحكمة الصائبة ولو أتهمت بالاشتياع الذي اتبرأ منه بشكله الحالي المخيف ان تسن الحكومات المتمدنة نظام الارث الذي يقضي على الآباء الاغنياء ان يقفوا بعد وفاتهم قسماً وافراً من اموالهم واملاكهم للمشاريع الوطنية ولتعليم النشء وان يورثوا الابناء مقداراً من المال والعقار لا يقضي على تثبيط هممهم ونشاطهم وعدم بذل عرق جباههم واشغال سواعدهم وعقولهم لان الكل على السواء يجب ان يشتغلوا في حقل الوطن وان يضمدوا بقدر امكانهم كلوم الانسانية المتألمة من آفات الجهل والفقر ومن نقص القوانين المسنونة بحد السيف وتحت القنابل

الطبقة الوسطى

ان اكثرية الشعب اللبناني من الطبقة الوسطى فالصحافيون والمعلمون ومفكرو الامة والمزارعون والفلاحون واصحاب الحرف والمهن والعمال كلهم ينتمون الى هذه الظبقة

وفضلاً عن ذلك ان الاراضي اللبنانية «لا» يحتكرها الاغنياء وحدهم دون سواهم كما هي الحال في بعض الامم الغربية بل هي منقسمة ومملوكة من

من جميع طبقات الشعب وقلما وجدت عائلة لبنانية لا تملك شيئاً

ورغماً من ذلك لا يغرب من الذهن ان ابناء هذه الطبقة ليسوا في المدن في حالة البحبوحة واليسر لانهم ينفقون غالباً اكثر مما ينتجون لاقتدائهم بالاغنياء في الملابس وفي ضروب البذخ والتبذيز ولا يعرفون معنى للاقتصاد الذي هو من اقوى دعائم الثروة والفلاح مع كونهم بلا مراء قادة الامة في الرأي والثقافة والعلم ونبراس حياتها المادية والادبية لانهم يمثلون الاكثرية الساحقة من ابنائها ، والامة في مجموعها لا في افرادها

واما معيشة ابناء الطبقة الوسطى في القرى اللبنانية فهي متقنة ومرتبة بالنسبة الى المعيشة القروية في سائر امم الارض لان اللبنانيين هم في الغالب نظفاء الابدان محشومو اللباس بيوتهم واسعة وطعامهم مغذٍ ومفيد للصحة رغماً عن كونهم لا يأكلون اللحوم الا مرة في الاسبوع او مرتين في الاكثر

ومن يعيش بين ظهرانيهم يرى بام العين علائم الذكاء بادية على اسارير وجوههم ووجوه ابنائهم وسيماء النباهة مرتسمة في اعينهم البراقة الجميلة ومنظرهم العمومي مما يدل عَلَى الصلابة والقوة والنشاط المتناهي وهم ايضاً يحبون الضيافة ويكرمون الغريب تكريماً فائقاً

واما نساؤهم فهن في الغالب على جانب عظيم من الجمال يمثلن العفة والطاعة لازواجهن ولكنهن مفتقرات الى العلم والى تدبير المنزل وتربية اطفال الامة تربية صحيحة كي يصبح لبنان في مستوى الامم الراقية

ان الآداب العمومية رغماً عن التفرنج لم تزل محفوظة في اكثر انحاء

الجبل وبالاخص في هذه الطبقة لان العائلات اللبنانية حتى الان كلها راسخة على اساس الزواج المكين ولا اثر للابناء الطبيعيين في بلادنا اعني ابناء العشاق والعاشقات كما هي الحال في بعض امم الغرب. وهي بالحقيقة مفخرة عظمى لابناء الشرق ومحمدة من محامدهم الخالدات التي يجب المحافظة عليها ليس كونها فقط من اسمى الفضائل البشرية بل لانها ايضاً من اعظم اسباب تمييز الانسان عن الحيوان

ومما لا مشاحة فيه انه يجب على الحكومات جميعاً ان تبذل جل اهتمامها في تحسين حالة الطبقة الوسطى مادياً وادبياً لانها هي التي تنجب كبار الرجال علماً وخبرة وسياسة وعليها معوّل الشعوب في رقيهم ونجاحهم. لأن من شاء ان يقيس مقدار تقدم الامم وحضارتها فعليه ان يدرس حالة الطبقة الوسطى في كلٍّ منها فاذا كانت جاهلة وغير متنورة فقل ان الامة تخبط خبط عشواء في دياجير الضلال والفاقة وتتسكع في ظلمات الانهيار والدمار واذا كانت بالعكس متشربة روح العلم المقرون بالادارة والخبرة والنشاط ومرتكزة على مبادىء الوطنية الصرفة والقومية الصحيحة فقل ان الامة قد بلغت اوج المجد والعلاء وحصلت على عصرها الذهبي الذي هو عصر الثروة والعلم والقوة

فالطبقة الوسطى اذن هي سياج الوطن وحامية ذماره ورافعة مناره. هي القوة المعنوية التي ترتكز عليها دعائم الامة جمعاء لانها قلب الوطن وحافظة حياته كما تحفظ القلوب السليمة حياة الاجسام وتزيد في نموها ونشاطها

الطبقة الدنيا

هذه الطبقة هي قليلة في لبنان رغماً عن كون الانسان يرى المتسولين بكثرة في شوارع المدن وازقة القرى مع انه كان اولى بالحكومة ان تمنع التسول بتاتاً بعد فتحها الملاجىء الكافية للمعوزين غير القادرين على الشغل فقط

ولكن من تأمل ملياً يرى التسول في لبنان اصبح مهنة رائجة يتعاطاها بعض الاصحاء الكسالى للكسب فهؤلاء يجب عليهم ان يأكلوا خبزهم بعرق الجبين لا ان يستندوا الاكف ويطرقوا ابواب المحسنين

تعيش الطبقة الدنيا في المدن في الاحواش القذرة وفي الغرف الصغيرة المظلمة التي لا يدخلها نور الشمس ولا الهواء الطلق · هناك يرى الانسان عائلات كثيرة تتألف كل منها من خمسة او ستة اشخاص يعيشون في غرفة واحدة لا يبلغ حجمها اربعة امتار عرضاً وطولاً وفضلاً عن ذلك فالغرفة قائمة في الاحواش ازاء الغرفة والعائلة تجاه العائلة

وهذا مما يضر في الصحة ويسبب الاوبئة وانتشار بعض الامراض الفتاكة التي تنقل جراثيم العدوى من الطبقة الدنيا الى سائر الطبقات

فعلى نظارة الصحة ان تهتم بتحسين حالة الفقراء وان تلافي هذا الخطر العظيم بايجاد لجنة طبية فاحصة ترتاد البيوت في كل فرصة لاجل انشائها على الاساليب الصحية وتعميم النظافة في داخلها وخارجها · وهو امر لازم في المدن المكتظة بالخلق صيانة للصحة العمومية

من يدرس تاريخ الاوبئة يراها غالباً تتفشى في قارتي افريقيا واسيا لان مدن الشرق غير منشأة على الاساليب الهندسية الصحية فضلاً عن انها في منتهى القذارة فالحضارة الراهنة الاوربية التي حورت افكارنا وبدلت شكل معيشتنا تتطلب ايضاً تحويل تلك المدن الرثة البالية الى مدن عصرية زاهية زاهرة على غاية من النظافة والاتقان

ان حالة الفقراء في القرى هي من جهة السكنى اصلح حالاً منها في المدن لان البيوت القروية واسعة ونظيفة وهواء الجبال ناشف فهم لهذا السبب في معزل عن الامراض الكثيرة المنتشرة في المدن ولكنهم بعض الاحيان يفتقرون الى ايجاد الشغل الكافي للقيام بقوتهم الضروري وخصوصاً في فصل الشتاء الذي يكثر فيه البرد والزمهرير والعواصف وتقل الاشغال والاعمال فينحدرون من الجبال افواجاً افواجاً ويتألبون في المدن طارقين ابوابها طلباً للرزق اما عن طريق الشغل او عن طريق التسول

لا تخفُّ وطأة الفقر والبلاء الا في تعميم العلم بين سائر طبقات الامة لان الجهل هو مصدر الآفات البشرية وسبب ضيقها وعسرها والعلم هو باني الحضارة والعمران ومنبع الخيرات والبركات فعلى الامة والحالة هذه ليس فقط ايواء الفقراء بالملاجيء وامدادهم بالقوت الضروري فحسبُ بل يجب عليها ان تسعى سعياً حثيثاً لتعليم احداثهم وتنشئتهم كي يصبحوا في المستقبل اعضاء عاملين في حقل الوطن لا عالة عليه

فبهذه الوسيلة تتحسن حالة الفقراء ويقل عددهم رويداً رويداً لان

الامة مهما كانت وافرة العدد والعدد لا تقدر ان تنتصر على جيش الفقر والبلاء الا بقوة العلم وحده

— لان الجهل يهدم والعلم يبني —

القرويون في الشتاء

اخطأ من قال ان فصل الشتاء لا حسن فيه ولا بهاء لان كل شيء في هذا الوجود قد حباه الله جمالاً مختصاً به لا يتعداه فكما ان رداء الصيف الجميل قائم باعتدال الهواء وعذوبة الماء وخضرة الاشجار ونضج الاثمار والازهار وصفاء الاديم ورقة النسيم فرداء الشتاء الجميل هو بعكس ذلك لان معامل الطبيعة المتحركة في هذا الفصل بقوة البرق والرعد والعاصفة قد نسجته من نسيج الغيوم المتلبدة في الافق وحاكته من خيوط الامطار الغزيرة المتساقطة على الارض ومن مياه الجداول والانهار المتحدرة من اعالي الجبال والمنسابة في بطون السهول والاودية واوجدت بياضه الناصع من بياض الثلوج المتراكمة على رؤوس القمم واخذت تلألؤه ولمعانه من انوار الشمس المنعكسة من حين الى حين على تلك القطع الجليدية العائمة في المياه والمبعثرة في كل مكان

لعمري انه لرداء مدهش للغاية رغماً مما يشاهده المرء من عراء الطبيعة وعدم نضارتها وازدهارها لان الجمال لا كيان له بحد ذاته فكل ما يستحسنه المرء ويستأنس به يدعوه جميلاً

يقضي القرويون معظم فصل الشتاء في عقر دارهم بلا شغل ولا عمل فهم في طرق معاشهم يشبهون كل الشبه جحافل النمل التي تملأ البيادر في

ايام الحصاد حاملة الى اوكارها موءونة الشتاء ومتى اقبلت ايام البرد نراها تلجأ الى سراديبها وتعيش هناك جماعات لا افراداً ولا تخرج منها الا بعد انقضاء فصل الامطار والزوابع . وهكذا القرويون فهم يجتمعون في بيوتهم في فصل الشتاء ويضرمون النار في مخادعهم استدفاءً من برودة الطقس ويمكثون امامها سحابة نهارهم وهم يختلفون في اكثر الاحايين الى زيارة بعضهم بعضاً وخصوصاً في اوائل الليل فيقضون السهرة تارة في المباحثات والمجادلات التي ليس من ورائها فائدة تذكر وطوراً في لعب الورق ومبادلة النكت والنوادر وبعض الحكايات المستملحة

نراهم في خلال السهرة يدخنون النارجيلات ويشربون القهوة ويأكلون بعض الحلويات الجبلية كالتين والزبيب والدبس وما شاكل ثم يعودون الى بيوتهم قبل منتصف الليل

ذهبت في الشتاء الى زيارة احد القرويين فدخلت الدار وجلست ازاء العامود الذي يمثل البيوت اللبنانية القديمة

واما اصحاب البيت وسائر الضيوف فكانوا جالسين على بعض جلود الغنم والماعز قرب النار المندلع لهيبها من الموقد في احدى زوايا البيت

هناك نظرت احد الصغار يسحب من جيبه ثمار البلوط ويضعها في النار ثم يلتقطها مشوية ويأكلها هنيئاً . فادّى اليّ واحدة منها والح عليّ بقوله ذقها — هي حلوة ولذيذة كالكستناء — فاخذتها شاكراً ثم اكلتها فرأيت طعمها ليس كالكستناء بل بلوطاً كاصلها

عندئذٍ قلت للصغير : يا بني يستحيل على النار تحويل الثمر من جنس الى

آخر واما الانسان العاقل المدرك فلا يستحيل عليه ان يجعل من احراج السنديان والبطم الموجودة بكثرة في البقاع اللبنانية احراجاً من الكستناء والفستق وسائر الاشجار المنتجة واللذيذة الثمر فلو اهتم اللبنانيون في غرس تلك الاشجار المفيدة لكنت يا بني في المستقبل القريب تملأ جيبك عوضاً عن البلوط ببعض انواع الفستق اللذيذ وتحصل بكثرة على ثمر الكستناء وليس وحدك فقط بل جميع اهلك ومواطنيك ايضاً

يا بني امي :

ان طيور السماء هي وحدها لا تزرع ولا تحصد واما نحن فيجب علينا ان نزرع لنحصد وان نغرس الشجرة الطيبة الاصل لنقطف ثمارها الزكية والفكر الجيد لنجني منه الفضيلة

رأس السنة

لقد اقبل العام الجديد في غرة هذا الشهر ومُسح باسمه منذ ولادته او مذ دعاه المسيحيون في الاقطار الاربعة عام الف وتسعمائة وخمس وعشرين

واما هذه الطبيعة الصامتة المتكونة منذ ملايين السنين فما كان من مبدإها تسمية العام الجديد في هذا الاسم المار ذكره لانه لا ينطبق على بدء نشوئها وتاريخ تكوينها العجيب

ولكن لا بأس فقد دعي العام هكذا تيمناً بولادة عيسى بن مريم مخلص الانام ورسول الرحمة والمحبة والسلام

كنت في ليلة العيد في بلدتي شرتون فدعاني احد الانسباء الى السهرة

في داره وهناك شاهدت بعض شبان القرية وجيوبهم مملوءة جوزاً وهم يتقامرون عليها في لعب الورق · فسألت احد الحضور ما الداعي الى ذلك — فاجابني ان ابناء القرى يتقامرون في مثل هذه الليلة على بعض انواع الفاكهة ليتبين كلٌّ حظه في خلال السنة القادمة

وما دقت الساعة الثانية عشرة حتى هبّ الحاضرون عن مقاعدهم وابتدأوا يتبادلون عبارات التبريك قائلين — كل عام وانتم بخير — ثم اديرت كؤوس الخمر واطباق الحلوى الجبلية فشربنا — واكلنا — وودعنا — وانصرفنا —

طلع الصباح واشرقت شمس العام الجديد ولم ازل سابحاً في بحار الكرى فنهضت فجأة عَلَى صوت احد الصغار الذي سمعته يقول باعلى صوته لرفيقه — لقد القيت عليك الصباح اولاً (فاعطني البسترينة) — فذكرتني هذه العبارة ايام الطفولة وقت كنت اشعر بلذة غريبة في عيد رأس السنة لان الاباء والاقارب الادنين في لبنان يوزعون بعض النقود وقطع الحلوى على اطفالهم في هذا العيد

ليس في جوهر العيد يبتهج الصغار وتتهلل قلوبهم بل في الهدايا التي ينتظرونها من ابائهم وانسبائهم فاذا فاتتهم اطباق الحلوى و بعض اللعب فانهم لا يشعرون بمرور الاعياد ولا يستأنسون بها اذ لا بهجة للعيد اذا لم يكن مرفوقاً بشيء جديد

على قمة الجبل

في ذات يوم من ايام الشتاء نهضت باكراً من فراشي فرأيت السماء صافيةً لامعة والشمس ساطعة في الافق تلقي اشعتها الذهبية عَلَى القمم المعممة بالثلوج وعَلَى الانهر المتدفقة من اعالي الجبال والمنسابة في بطون البطاح والاودية

وكان الجو صافياً لا يشوبه شائبة حر ولا برد فعندئذٍ حدثتني النفس ان اصعد الى قمة الجبل القائم فوق قرية شرتون لاسرح الطرف في المناظر الطبيعية الفتانة واريح النفس من وحشتها وكربها

حملت (البندقية) وابتدأت في الصعود وما هي الا هنيهة يسيرة حتى التقيت باحدى القرويات عائدة من الحرج الى بيتها حاملة على كتفها سلة كبيرة مملوءة عشباً وكلاءً

قلت لها بعد ان القيت عليها السلام : لا شك انك غدوت الى الحرج قبل الغدو وقمت مبكرة قبل قيام الطيور ولولا ذلك لما استطعت في مثل هذه الساعة املاء سلتك عشباً . فاجابت : نعم لان واجباتي البيتية تقضي عليَّ بهذا . انا ام بضعة اطفال فاذا لم اغدُ الى الحقل قبل استيقاظهم فلا تسنح لي الفرصة للذهاب . وماذا اعمل اذاً بالعجلة ? والعلف قليل عندي ! وهي التي تدر عليَّ البانها وتوفر القوت لصغاري ? الا يجب عليَّ الاهتمام بتوفير قوتها ?

لعمري انها لحكمة صائبة التقطتها من شفتي تلك القروية الامية التي

تشعر بوجوب حسن معاملة الحيوان الداجن الذي تستخدمه لاغراضها ومنافعها وتهتم في توفير علفه اكثر من اهتمام بعض المتمولين اصحاب المعامل والمتاجر في توفير الراحة لعمالهم الذين يستخدمونهم في مصالحهم ويثرون من جراء عرق جباههم ودماء قلوبهم

فاذا كان من واجبات المرء ان يرفق بالحيوان فكيف باخيه الانسان ؟

ودّعت القروية ثم واصلت السير صعوداً متسلقاً تلك القمة الوعرة حيث كانت الاشجار المختلفة النابتة من اقدام الجبل الى رأسه تأخذ بيدي لاجتياز تلك الادغال و المفاوز

هناك في قلب الحرج نظرت الافعي ينساب منطلقاً وهو يفح فحيحاً وشاهدت الطير يتنقل من غصن الى غصن وهو يشدو شدواً جميلاً ورأيت بعض الحيوانات المختلفة والحشرات المتنوعة كلها تسير ذهاباً واياباً في بطن الغاب

فقلت في نفسي: ليس الانسان وحده يشعر بجمال الجو ويتلمس النزهة في الايام المعتدلة هواءً والصافية سماءً بل هذه الحيوانات التي اراها تسرح امامي هي ايضاً تحذو حذوي وتشعر شعوري لانها تركت اوجارها واخذت تجري بين صلد الهضاب مستقبلة حرارة الشمس ومتلمسة رزقها بين شقوق الصخور وحنايا الاعشاب والتراب

فوقفت هنيهة معجباً ثم تذكرت المثل السائر «لا راس بلا حكمة» واما انا فاقول لا ذرة حياة بلا حكمة لانها تحافظ على كيانها والمحافظة على الكيان من عوامل الحكمة المستترة في الذرات الحية لا من عوامل العرض

بلغت القمة بعد ان استنفدت الجهود فوضعت البندقية جانباً ثم جلست على صخر ازاء شجرة صغيرة قائمة وحدها على تلك القمة الجميلة المطلة على البحر والمشرفة على الجوانب الاربعة ويدعوها القرويون « باب المدينة »

هناك جلت طرفي في جبال لبنان واوديته وفي صروده ونجوده وشاهدت القرى اللبنانية مبعثرة في كل مكان كصخور لبنان بعضها قائم على رؤوس القمم والبعض الاخر في الوسط وفي الاودية

انه لمشهد جميل للغاية لا يراه المرء بغير لبنان وقد يقصر عن وصفه اللسان

حولت نظري عن مشاهدة الجبال الى مشاهدة البحر الراسي تحت اقدام هذا الجبل فرأيته يتحفز بقوة امواجه للوثوب من مهره الى البر ولكنه يعود على اعقابه خاسراً

فعندئذ ناجيت البحر قائلاً : ايها البحر انا المخلوق الضعيف الواقف امام عظمتك وجبروتك — انا الانسان الصغير الجسم ازاء جسمك الهائل — انا الخائر القوى بالنسبة الى قوتك المتناهية ومع ذلك لقد تسلقت الجبل وبلغت القمة

واما انت ايها الجبار العظيم الكلي القدرة والمكون منذ التكوين فمهما تدفقت امواجك وتغلغلت في لحف الجبل فهي ولا شك ستعود متقهقرة على اعقابها ومهما زمجر تيارك وعصفت عاصفتك الهوجاء فلا شك ان الارض ستبتلعها . ومهما بلغ بك النزق والحدة وتقلبت عليك الاعصار والاحقاب فانك لا تصل ابداً الى مكاني

نعم ان البحر لن يبلغ القمة ولن يصل ابداً الى مكاني . كما انه لا يصل

ايضاً صاحب الحول والطول والملك الواسع بقوة خيله ورجله ووافر ثروته الى قمة المعرفة التي لا يحتاج المرء الصعود اليها الى العدد والعِدد و كثرة المال والاتباع بل الى رأس كبير وعلم وفير ودماغ مفكر وحكمة رائعة

على ضفاف النهر

في ساعة صحو نزلت الى جسر القاضي وبعد ان توغلت في الوادي جلست على صخرة ازاء نهر الصفا

هناك اخذت اتأمل في الامواه الجارية المتدفقة من اعالي الجبال المجدة في سيرها بلا توانٍ ولا ملل الا بعضها الذي كان يتحول عن مجراه ويذهب يمنةً ويسرة ثم يرجع الى مصبه كالمسافر انهكه التعب يأخذ جانباً من الطريق ليستريح هنيهة من وعثاء السفر ثم يعود الى سبيله

فقلت في نفسي : الى اين تسير تلك المياه الغزيرة الجارية في هذا الوادي؟ الى اين تجد في سيرها لاحقاً بعضها بعضاً اليس الى البحر ؟

نعم الى البحر حيث تخسر حلاوتها امام ملوحته وبياضها الناصع ازاء زرقته وعذوبتها بالنسبة الى كدرته هناك تموت لانها تخسر حياتها الاستقلالية وتصبح جزءاً غير منفصل عن البحر

وهكذا الناس فهم يشبهون كل الشبه مياه الانهر يجدون ويكدون ويشيدون ويبنون ويتباهون ويتفاخرون ويتسابقون ويتخاصمون وهم يسيرون بلا ابطاء في طريق الحياة الى اين ؟

اليس الى القبر الذي يغيب اجسامهم ويعبث بها ويجعلها العوبة الفناء فيصبحون جسماً غير منفصل عن هذه الطبيعة الصامتة ؟

ان المياه تسير مسرعة الى البحر وما تدري ما وراء البحر والانسان يجد في طريق الحياة الى ان يصل الى باب القبر ولا يدري ما وراء القبر سوى ما يعلمه الدين وتوحيه الشريعة

وبينما انا سابح في بحار التأمل اخذت اتفرس في هذا السيل المنهمر فوقع بصري على بعض الاسماك الصغيرة فرأيتها سابحةً في الماء سائرةً ذهاباً واياباً بكل هدوء وطمأنينة واذا بسمكة كبيرة كانت متربصة في الماء بين شقوق الصخور انقضت من مكمنها على صغار السمك فالتقطت بعضها في خواشيمها والبعض الاخر تفرق لخوفه شذر مذر

فقلت في نفسي : لسنا نحن البشر رغماً عن رقينا وتمدننا ورجاحة عقولنا وكثرة علومنا افضل من هذه الاسماك التي يأكل بعضها بعضاً

فكم من امة مسالمة تعيش في هذا الكون براحة وسكينة ضمن نطاقها وداخل حدودها فتنقض عليها الامة القوية فتزعزع اركانها وتهد كيانها وتجعلها اثراً بعد عين

فما زالت الشرائع الدولية من مولدات القوة وما زلنا عاجزين عن كبح الاستبداد والاستئثار والجور المستحكم في ادمغتنا وغير قادرين علَى رد غارات الغريزة الحيوانية المتأصلة في عروقنا فلن نكون ابداً مهما بلغنا من الرقي والعلم افضل من تلك الاسماك

حولت نظري عن مشاهدة الماء الى التأمل في الحصيِ التي يغمرها السيل

فالتقطت بعضها في يدي فرأيتها حلساء ملساء. فراجعت نفسي قائلاً: اذا كان هذا هو فعل الماء في الحصى يجعلها على تكرار جريها ناعمةً كل النعومة وبغاية اللدونة والمرونة فكيف اذن يفعل في المستقبل سيل المدنية والرقي المتدفق من الغرب الى صميم الشرق

الا يلين في تكرار جريه اخلاق الشرقيين ويهذب طباعهم ويثقف عقولهم ويجعلهم امماً راقية خليقة بان تضاهي امم الغرب في التمدن والعلم والصناعة

نعم انا من المتفائلين في الغد ولست من المتشائمين.

انا ايضاً لست من الذين يعتقدون في نهضة الامم الشرقية فحسب. لا بل اني ارى العصور المقبلة تبسم للانسانية جمعاء وتحمل بين طياتها سلاماً وتعاوناً لا حرباً وكفاحاً لانها ستأتي بعلوم تغير اخلاق الناس وتعدل افكارهم وتبدل شرائعهم وطرق معاشهم

فما زال الانسان في جهاده المستمر وسيره وراء التمحيص والتنقيب سيكون دائماً مع توالي العصور عرضة للتحويل والتبديل من الرديء الى الجيد ومن الحسن الى الاحسن الى ان يبلغ الكمال الادبي والمادي

هذه هي سنّة النشوء والارتقاء التي سار عليها الانسان منذ العصر الحجري الى الان وسيسير عليها مع توالي الزمان ولا شك انها سنة الله في عباده

بين ظل الصخور والمغاور

في ذات يوم من ايام الربيع ذهبت الى «حرش المحمي» الواقع فوق

قرية شرتون . وبعد ان توغلت في الغاب صعوداً وصلت الى المغارة المدعوة مغارة ابو عيسى

فدخلتها طلباً للراحة ثم ابتدأت اتأمل في شكلها العجيب فرأيت عناصر الطبيعة هي وحدها مع توالي الزمان ثقبت تلك الصخور العظيمة و كونت تلك المغارة القديمة

فقلت في نفسي كما تعتني الامّ في ايجاد اسرة صغارها القاصرين هكذا امنا الطبيعة قد اخذت على عاتقها الاعتناء بالحيوانات العاجزة عن البناء فاوجدت لهم المغاور والمفاوز يلجأون اليها في ساعات الحر والمطر

تفرست في ارض المغارة فرأيتها ايضاً من صنع الطبيعة ولم اجد اثراً من اثار الانس سوى بعض الاقدام البشرية وحجرين موضوعين ازاء بعضهما في قلب المغارة ولا شك ان الانسان قد جلبهما الى هذا المكان

جلست على حجر منهما واخذت اناجي نفسي قائلاً : من هذا الانسان الذي دخل هذا المكان وانتهك حرمة الحيوان ووضع هذين الحجرين دليل الفتح والاستيلاء كما يفعل القائد العظيم الذي يقتحم الحصون المنيعة فيدخلها عنوة ثم يترك بها اثراً من اثاره كي تقول الاجيال المقبلة الى هنا وصل هذا الفاتح

والان من هو فاتح حصن الحيوان الحصين ؟ أَهو احد الفلاحين ؟ ام القناصة ؟ ام احد متعشقي الطبيعة المفتونين بجمالها ؟ ام هو من العاشقين الذين يتلمسون العزلة والانفراد ؟

وبينما انا في هذه التأملات واذا بخيال انس مزدوج تراءى لي بين الاشجار الغضة النابتة حول باب المغارة

فخرجت حالاً منها والتفت يمنة ويسرة فلم اجد احداً ثم صعدت على سطحها فوقع نظري علَى قروي وقروية كلاهما غض الاهاب جميل الطلعة يرتديان لباساً بسيطاً وهما في العقد الثاني من عمرهما

رأيتهما يتمشيان في سكون الحرج في معزل عن الرقباء آخذين طريق المغارة ثم دخلا اليها وشاهدتهما من شقوق الصخور على الحجرين المذكورين ولكنهما لم يشاهداني

فعرفت عندئذ انهما فاتحا هذه المغارة وان تلك الا ثار البشرية هي بقايا حب وغرام لا حرب وخصام

حبيبان لا بل متيمان جلسا وحدهما في هذا المكان المقفر ولم يتعانقا ولم يتلامسا

لفظت عيونهما الدموع قبل ان يتكلما ، رأيتهما مثال الحشمة والادب والحب الطاهر فتمثلت الهوى العذري الذي كان يمثل عشاق العرب في ايام البداوة . وتراءى امامي جوهر الحب الخالص المكنون في النفس البشرية لا في الشهوة الطبيعية

لعمري انه الحب الحقيقي الذي لا يفارق الحبيبين اذا فارقتهما الفتوة ولا يتقلص عن قلبيهما ولو تقلص عنهما الشباب والكهولة معاً

سمعت القروي يمزج كلامه بدموعه وهو يناجي حبيبته قائلاً : يا سلمى

يعز عليّ وداعك ويرتجف جسمي عند ذكر النوى ويخفق قلبي خفقاناً هائلاً حتى كأنني تمتلكني قشعريرة الموت

ولكن ما العمل والفقر لا يطاق وتحصيل المال غير مستطاع تحت سماء هذا الوطن لمن هو مثلي يأكل خبزه بعرق جبينه وليس له حرفة يحترفها غير معوله وفأسه

فاذا وطئت العالم الجديد اشتغل بثبات ونشاط كمواطني المهاجرين ثم اعود كاسباً غانماً فاطلبك من ابيك واعيش واياك برغد وهناء

ان نفسي يا سلمى تأبى ان تراك تاعسة بجانبي لقد سئمت هذا الثوب البالي الذي يرافق جسدي منذ صباي لانه ينم عن خمول وذل وانا لست من الخاملين وقد مللت معولي وفأسي لانهما لا يعبران عن طموحي ونشاطي وعما يكنه فؤادي الخافق ودماغي المفكر

استميحك عذراً واودعك على امل اللقاء ان شاء الله

فاجابته بصوت خافت ولهجة مؤثرة : لا تتحمل يا عزيزي مضض الغربة لاجلي فانا اطوع لك من بنانك اقاسمك سرّاءك وضرّاءك واعيش بظلك سعيدة كل السعادة لا ينغص حياتي فقرك ولا يكدرني عسرك فانت بعيني تفضل عما في الكون باسره من مال وجاه وشرف

قد يكفيني من الزينة ان اكون دائماً متزينة بحبك الطاهر ومن البهرجة والتجمل ان ابقى متجملة كل حياتي بلطف حديثك وكرم اخلاقك ونبالة مبادئك فكن على ثقة تامة اننا ولو كنا فقيرين سنكون ملاكين لان السعادة الزوجية لا تشرى بمال وعقار بل بالحب المتبادل المقرون بالاخلاص والوفاء

اين هذا القروي الفطري من ذاك الفتى المتمدن الذي يعتقد ان الحب في المعانقة والهوى في الخلاعة · اين هذا القروي المفكر في تحسين اشغاله من ذلك المتمدن الراقي الجالس الى الطاولة الخضراء والمتكىء على سرير التهتك

واين هذه القروية البسيطة اللباس والقلب والعواطف من تلك الراقية التي تعبد المرآة وتعشق الطيوب والمساحيق والاثواب الحريرية المزركشة

اين هذه القروية التي يزينها الحب الخالص لزوجها من تلك المتمدنة التي تحمل بعلها احمالاً ثقيلة لاجل التمتع في ضروب الملاهي والملابس والمراقص

اذا كان التمدن الحديث يقضي على المرأة ان تكون عالة على بعلها فحريٌّ بنا ان نترك الحضارة جانباً وان نرجع الى المعيشة القروية البسيطة واذا كانت الخلاعة في الحب من مقتضيات الحضارة ايضاً فلنرجع الى البداوة في اظهار عاطفة الحب والغرام · ولندع باب التمدن موصداً ولا نطرقه الا لاكتساب العلم والصناعة وكفى

بين دوالي العنب واغصان التين

في اواخر شهر آب من السنة المنصرمة صعدت الى رويسة النعمان واخذت اتمشى بين كروم العنب والتين الكثيرة هناك فقطفت من تلك الاثمار الزكية واكلتها فشعرت بلذتين في وقت واحد ولو كنت من غارسي الكرمة لشعرت باللذات الثلاث اعني لذة غرسها ولذة قطف ثمرها ولذة اكلها

جلست هنيهة استظل الدوالي واغصان التين فارسلت نظري اولاً في التينة التي اتفيأها فرأيت بعض ثمرها قد نقدته العصافير وجعلته طعاماً لها ·

فقلت في نفسي : ان العصفور يتلذذ في اكل هذا الثمر الذي غرسه الانسان ودجنه واعتنى به كل الاعتناء حتى صار شهياً لذيذاً . وله ملء الحق ان يشارك الانسان في استغلال كرومه لانه يساعده على صيانة الاشجار والاثمار بقتله الديدان الضارة وبأكله بعض الحشرات التي تؤذي المزروعات على اختلافها

ان العصفور بعمله يشبه الصديق الوفي الذي يبادل النعمة بالنعمة والوفاء بالوفاء والمعروف بالمعروف

ثم حولت نظري عن التينة الى الجفنة النابتة امامي فرأيت بعض عناقيدها قد التهمتها الثعالب واكلت معظمها

فعندئذٍ اخذت اتأمل في هذا النوع من الحيوانات الضارة التي تأكل من جفنة الانسان ومن سائر مزروعاته ولا تفيده شيئاً وهي لا تكتفي بذلك بل تؤم بيته احياناً وتجعل دجاجه طعاماً لها

انها لعمري تشبه الرجل اللئيم المراوغ الذي يستفيد ولا يفيد ويأخذ ولا يرد و يستدين ولا يدين و ينتحل الصداقة لاملاء جوفه واشباع اهوائه وهو لا يكتفي بالحاق الاذى المادي باصدقائه ومعارفه بل اذا امكنه ان يدخل دارهم و يثلم عرضهم لما تمنع عن ذلك

فكم من الناس يبادلون الخير بالخير كالعصافير وكم منهم يبادلون النعمة بالنقمة والجميل بالاساءة كالثعالب

وبينما انا في هذه التأملات واذا بشيخ جليل وصل الى الكرمة حاملاً على ظهره سلة كبيرة لاجل املائها تيناً وعنباً . فبعد ان حياني دعاني الى ثمره

فاجبته قد دخلت كرمتك بدون استئذان واكلت من جناها ما لذ لي وطاب ولكن كما تأكل العصافير لا كما تأكل الثعالب

ثم سألته هل ابتدأت معاصر العنب؟ فاجاب نعم وسأبتدىء غداً بقطف كرمتي · فقلت له ماذا تعمل بها؟ فاجاب : انني اقسم العنب الى ثلاثة اقسام ما اراه يناسب العرق اصنعه عرقاً وما يوافق النبيذ اعمله نبيذاً وما يقابل الخل اجعله خلاً فبهذه الصورة احصل على العرق الممتاز والنبيذ الطيب والخل الجيد

فقلت في نفسي : اذا كان هكذا يصنع في العنب لاجل الحصول على النتيجة المطلوبة فكم هو حريٌّ بالامة الناهضة ان تهتم في نشئها وان تدرس ميولهم الفطرية وكفايتهم العقلية ونزوعهم الغريزي · فمن كان منهم مائلاً الى الطبابة فليكن طبيباً ومن كان نزوعاً الى التجارة فليكن تاجراً والى الزراعة فليكن زراعاً

فبهذه الصورة يفلح كلٌّ في مهنته التي خلق لها ويفيد نفسه والانسانية جمعاء وتحصل الامة عَلَى الطبيب الماهر والتاجر الحاذق والفلاح الخبير

فعلى الآباء والحالة هذه ان يدرسوا ميول ابنائهم درساً مدققاً قبل ان يعلموهم العلوم والمهن كما يدرس صاحب الكرمة عنبه قبل ان يعمله عرقاً ام نبيذاً ام خلاً

احداث القرية

نهضت البارحة باكراً من فراشي واخذت اتمشى في ازقة القرية فسمعت

بعض الاطفال يهزجون باعلى اصواتهم قائلين :

يا ربنا يا ربنا نحن الصغار شو ذنبنا

فاثرت فيَّ هذه الاهازيج البسيطة تأثيراً مبرحاً وجعلتني اتأمل في حياة الانسان الاجتماعية وما يتخللها من ضروب العقبات والكوارث الى ان وصلت الى هذه النتيجة

ما هو ذنب الاحداث الذين اتى بهم الى هذا الوجود لص اثيم يرتكب المنكر ويساب الناس مالهم ويخطف ارواحهم ليطعم صغاره من ريع تلك الاموال المسلوبة ومن ثمرة لصوصيته المصبوغة بالدم البشري ؟

ثم لا يمضي ردح حتى يقع هذا اللص في ايدي العدالة فتعدمه لكثرة جرائمه وفظائعه وتصبح صغاره في حالة الفقر المدقع وليس عندهم في الحياة الدنيا ما يسد رمقهم ولا لهم ملجأ يلجأون اليه ولا ذنب عليهم ولا جناح سوى انهم ولدوا من اب قد انتحل اللصوصية وسفك الدماء مهنة له. فهو في اقترافه الجرائم المتعددة لاجل المكاسب كان كمن يبحث عن حتفه وحتف اولاده بظلفه وهو لا يدري بذلك ولا يشعر ايضاً ان تربية البنين قائمة بعرق الجبين لا بابتزاز مال الاخرين

فمن يطمع بمال غيره اذا لم تقتص منه العدالة قد يكفيه عقاباً فقدان ثقة الناس به فيكون قد خسر ما لا يقاس بثمن تعويضاً عن النزر اليسير المجموع نفاقاً واختلاساً

ما هو ذنب هؤلاء الاحداث الذين ولدوا على الحضيض في اكواخ

الفاقة والخصاصة ؟ بيد ان غيرهم قد ولدوا في القصور الشاهقة على امرة الديباج واللآلىء

ما هو ذنب هؤلاء الاحداث الذين يشبون عديمي العلم والمعرفة لفقر آبائهم وعدم مقدرتهم على الاهتمام في امر تثقيفهم وتهذيبهم بيد ان غيرهم يؤمون صروح العلم ويختلفون الى الكليات الكبرى وسائر الجامعات العلمية فيتخصص كلٌ منهم في فن من الفنون او علم من العلوم ؟

من الذي يتحمل العهدة تجاه هؤلاء الاحداث المساكين ؟

أهو الله؟ ام اباؤهم ؟ ام الحكومة ؟

ان الله جل جلاله منح عباده ملء الحرية فكراً وقولاً وعملاً فاذن والحالة هذه هم مخيرون لا مسيرون ولا دخل للعزة الالهية في شؤونهم

واما الآباء المفتقرون الى المال والعلم فهم ايضاً غير مسؤولين تجاه ضميرهم وغير مخطئين بعرف الانسانية لعدم مقدرتهم المادية والادبية على تنشئة ابنائهم . وهل تحمل نفسٌ اكثر من وسعها ؟

واما الحكومة التي تمثل الشعب باسره فهي وحدها المتعهدة في تنشئة اطفال الامة دون التفات ما الى طبقاتهم ومراتبهم

ولهذا السبب اذا لم تتعدل الان القوانين الدولية الحاضرة والانظم الاجتماعية الملتوية لا شك ستحورها الاجيال المقبلة حيث تصبح احداث الامة في نظر الحكومة كلهم بالسواء دون استثناء فيتعلمون ويتهذبون و يجلس ابن الامير ازاء ابن الحقير وابن الغني بجانب ابن الفقير

فعندئذٍ تظهر الكفاية العقلية في اسمى مظاهرها وتمسي وحدها لما

الرجحان في حلبة التقدم والرقي لا الحسب والنسب والتقادير والظروف ٠

فمتى زالت هذه العوائق يجني الجنس البشري مجموع ثمار ابنائه ونتاج ادمغتهم لا ثمار فئة يسيرة منهم كما هي الحال في الزمن الحاضر وكما كانت في الازمان الغابرة

فكم من الناس الذين لو اتاح لهم الحظ ان يتثقفوا ويتعلموا لكانوا من العالمين العاملين على ترقية الجنس البشري امثال كبار الفلاسفة والمشترعين والمخترعين ولكنهم لسوء الحظ عاشوا كانهم لم يوجدوا على سطح الغبراء من جراء عدم تثقيفهم وتهذيبهم ٠ فهم كالجواهر الثمينة التي لا ينتفع بها الجنس البشري ما زالت مطمورة في قلب الارض

يعتبر المرء جزءًا من ابويه الى ان يبلغ اشده فعندئذٍ يبتدىء ببناء حياته الاستقلالية حيث يظهر للملأ ما يكنه من ميول شخصية ونزعات فطرية وكفاءة عقلية ثم يثور على البيئة الابوية التي قيدته طيلة ايام الحداثة بسلاسل نواميسها ويصنع لنفسه بيئة تلائم وجدانه وغرائزه ومحيطاً يناسب آراءه وافكاره

فاذا كانت البيئة يتحور شكلها بين ابن وابيه لما يحدث بينهما من تضارب النزعات والمشارب فكيف تكون البيئات الاجتماعية في الاعصر المقبلة لا شك انها ستتطور تطوراً كلياً عن حالتها الحاضرة كما تحور محيطنا الاجتماعي عن محيط آبائنا واجدادنا

وما البيئة والحق يقال في الحياة الانسانية سوى الخادمة الامينة للفكر البشري ومرآته الساطعة

انا التاعسة

في الصيف الماضي تعرفت في احدى قرى لبنان الشمالي الى آنسة مصرية كاملة الخلق والاخلاق كانت نازلة في الفندق مع عائلتها في غرفة محاذية لغرفتي

فبعد ان تعارفنا قليلاً كلمتها بشعر امرىء القيس القائل :

اجارتنا انا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فمن ذلك الحين انقلب التعارف البسيط الذي بيننا الى صداقة وثيقة العرى حتى اصبحت موضع ثقتها الى ان صارت تستشيرني في بعض خصوصياتها

ففي ذات يوم نهضت باكراً من فراشي و بيدي بعض جرائد بيروت واممت بهو الفندق فرأيتها جالسة هناك وحدها وعلائم الالم النفساني بادية على وجهها الجميل ومرتسمة على مقلتيها البراقتين اللامعتين الملتهبتين حدة وذكاءً

فابتدأنا نتجاذب اطراف الاحاديث و بينما انا اتلو على مسامعها اعجابي المفرط في شدة ذكائها ورقة عواطفها وشعورها اخذت تجيبني وصوتها منخفض ينم عن اكتئاب لا عن اضطراب بهذه الفقرات

انا التاعسة وذكائي المفرط هو سبب بؤسي وتعاستي

انا التاعسة لشعوري باني غريبة عن هذا العالم الذي لا يفهمني

انا التاعسة لاني اعاشر رفيقاتي الكثيرات الراقيات فادخل الى اعماق قلوبهنَّ وافهم ما تكنهُ ارواحهنَّ المستترة وادمغتهن المفكرة فاذا وجدت أَلمًا

نفسانياً في احداهن ابادر الى مداواته بنصائحي الصائبة التي استمدها من قواي العقلية وضميري الحي . واما هن فلسوء الحظ فلا يفهمنني لاجد بهن" لنفسي عزاءً ولا يعرفنني الا بواسطة هذا الجسم الهيولي الماثل امامك

انا التاعسة لان العيلة التي انتمي اليها لا تفهمني حتى الام التي حملتني تسعة اشهر في احشائها وارضعتني ثدييها وبذلت كل ما عز وهان في سبيل تثقيفي لا تفهمني ايضاً

انا التاعسة لاني ادركت بقوة عقلي اسرار الحياة الانسانية فوجدتها تنم عن حقد واساءة وألم وشقاء وخبث ورياء وجشع وطمع وحسد وانانية . وقد امتحنت بنفسي اناساً عديدين متفاوتي الطبقات والمراتب ودخلت بقوة ذكائي الى اعماق قلوبهم وتلافيف ادمغتهم وخفايا ضمائرهم فوجدت مساوئهم تربي اضعاف الاضعاف على حسناتهم . فعرفت عندئذٍ ان شجرتي الاخلاق والتضحية اللتين غرسهما المسيح منذ الفي سنة لم تنبت جذوعهما حتى الان في حقل المجتمع الانساني

انا التاعسة لاني اعاشر الشبان النابهين الاذكياء فاجدهم يؤثرون في الفتاة الثروة على الفضيلة والجمال المادي على الجمال الادبي والمكانة العائلية علَى المكانة الشخصية

انا التاعسة لاني اشعر وحدي ان الحب على نوعين الحب الخالد والحب الفاني واما ابناء امي فلا يشعرون الا في الحب الفاني المتأصل في اجسامنا الحيوانية والمولود من الشهوة الطبيعية . فكما ان الزهرة تتكوّن في قلب الغصن ثم تبرز اكمامها فتتفتح اوراقها ثم تذبل فتتلاشى هكذا الحب الشهواني

يتكون في قلب الحدث وتظهر اكمامه في اليافع وتتفتح اوراقه في الشباب وتذبل في الكهل وتتلاشى في الشيخوخة . واما الحب الخالد الذي اشعر به وحدي فمنشأه النفس الدائمة الشباب ولهذا السبب فهو لا يذبل ولا يتلاشى

انا التاعسة لانه اذا كان من حظي الاقتران فقد يصعب عليَّ ايجاد رجل يفهمني وخليق ان يكون قريني في الحياة الدنيا واذا آثرت احدهم فربما لا يؤثرني على غيري من بنات جنسي لان النابهين من الشبان قلما يكترثون للنابهات من الجنس اللطيف ومن يتصفح التاريخ يرى في الغالب ان عظماء الرجال كانت نساؤهم غير عظيمات وخالدات النساء كان رجالهم غير خالدين هذا هو مصدر بؤسي وشقائي لاني اريد ان اكون خالدةً ويكون شريكي في الحياة خالداً ايضاً

انا التاعسة اذا بقيت عانساً لاني اصبح كالشجرة التي لا تعطي ثمراً او كالزهرة التي ليس لها رائحة فكما يدعوني الابوان يا ابنتي اتمنى في الغد ان ادعو يا بني . وكما ادعوهما يا ابويَّ اود ان أُدعى في المستقبل يا امي لكي اتم الرسالة التي خلقت لاجلها

هنا دخل احد الناس القاعة فوقفت هنيهةً عن الكلام ثم التفتت اليَّ وقالت:

الى الغد ايها الصديق وانصرفت

انا الثائر

اخذت البارحة بندقيتي وتوغلت في احدى الغابات اللبنانية طلباً لقنص الطيور فالتقيت هناك برجل بين الكهولة والشباب شاحب اللون مقطب

الوجه يتمشى ذهاباً واياباً تحت ظل الاشجار . نظرته كالشاعر الذي يشحذ قريحته و يستوحي قريضه من جمال الطبيعة وسكونها او كالفيلسوف الذي يتفقد اسرار الكون ليحيط علماً في عجائبه وغرائبه

فسألته بعد ان القيت عليه السلام من انت ؟ وما هي مهنتك ؟

فاجابني بصوت هائج انا الثائر ومهنتي هي اضرام نار الثورة على الانظمة الاجتماعية الحاضرة وعلى القوانين الدولية الجائرة

انا الثائر بلا اسلحة ولا ذخائر بلا غواصات ولا طيارات بلا مدرعات ولا غازات سامة

انا الثائر علَى بقاء القديم على قدمه على القيود التي تقيد الافكار والالسنة وعلى التقاليد البالية لاني انزع الى التجدد لا الى التقلد

انا الثائر على الاستبداد بدماغي وقلبي ولساني وقلمي لان فكرة الثورة تتمخض اولاً في الدماغ ثم تظهر في خلايا القلب ثم يخطها القلم ثم ينطق بها اللسان فعندئذٍ تصبح نظرية راهنة في عقول الناس وافكارهم ثم ينفذونها في تسيير احكامهم وتعديل شرائعهم

انا الثائر والبحر يعلمني الثورة في تحفز امواجه واشتداد انوائه وهيجان تياره

انا الثائر والطبيعة التي جُبلت من ترابها هي ثائرة ايضاً لانها تثور في براكينها النارية — تثور في زلازلها الارضية — تثور في عواصفها الهوجاء — تثور في اعاصيرها وطوفانها

انا الثائر لان كل شيء في هذا الوجود يمثل امامي الثورة فالربيع يثور

على الشتاء العاري ليكسو الارض خضرة والاشجار اوراقاً وازهاراً ثم يثور الصيف على الربيع فيحول الازهار الى اثمار ناضجة وفاكهة لذيذة واما الخريف بدوره فيذبل اوراق الاشجار ويبعثرها عَلَى الحضيض ثم يأتي الشتاء فيثور ببرقه ورعده وامطاره الغزيرة وثلوجه المتراكمة وبرده القارس . وهكذا الناس فلهم في كل عصر من عصورهم نزعات اصلاحية وثورات ادبية وبواعث روحية ومناهج اجتماعية . فهم كامهم الطبيعة في ثوراتها وتقلباتها

انا الثائر على نظام الملكية المطلقة لانها نزعة استبدادية لا على الملوك فكم اناسٍ من العامة تدرجوا في المناصب العالية الى ان اصبحوا رؤساء وزارات او رؤساء جمهوريات فاستأثروا بالحكومة واستبدوا بالضعيف . وكم من الملوك والنبلاء الذين حكموا الناس بالعدل والمساواة وعاملوا رعاياهم بالرفق والمحاسنة . ولهذا السبب انا الثائر فقط على المستبدين من الحكام مهما كان اصلهم وفصلهم

انا الثائر على الارستقراطي العائث فساداً لا عَلَى الارستقراطي المنزه عن الفساد وعلى الديمقراطي السيء المبادي لا على الديمقراطي الصحيح المبدأ وعلى الاشتراكي المخاتل لا على الاشتراكي الصادق الذي يدين بدين الاخاء والعدالة والمساواة

انا الثائر على الثورة المادية الملطخة بالدماء لا على الثورة الروحية الناضجة بالآراء الحديثة الصائبة والافكار الجديدة الراهنة

انا الثائر على سنة الاشتياع المتطرفة لانها بدعة خيالية ونظريات وهمية لا يمكن تطبيقها على المجتمع الانساني في ظروفه الحاضرة . فكما ان الانسان يخلق طفلاً ثم يبتدىء في النمو تدريجاً الى ان يصل الى الرجولة هكذا هو في

ثوراته الادبية لا يقفز قفزاً بل يتكيف ببطء في اطواره وافكاره الى ان يثور على شرائعه وتقاليده مقتنعاً لا مرغماً

انا الثائر على الحكومة التي لا تهتم لتوطيد الامن وتعميم العلم وايجاد المشاريع العمرانية وقيام الصناعة الوطنية

انا الثائر على الرجل الذي لا يحسن تربية بنيه وعلى المرأة التي تجهل واجباتها الزوجية

انا الثائر على الآباء الكسالى الذين يعاقرون الخمرة ويختلسون او يقامرون امام ابنائهم ولا يهتمون لامر تنشئتهم وتهذيبهم

انا الثائر على الامهات اللواتي يلقن" بناتهن" امثولة العجرفة والكبرياء والبذخ والتبذير والتبرج والاباحة ولا يعلمنهن" الحشمة والتواضع والاقتصاد والتدبير المنزلي والفضيلة

انا الثائر على الفقير المتكبر والغني المنافق والبتول الزاني والصديق المراوغ الذي يلبس لكل حالة لبوسها

انا الثائر على العيلات المتوسطة التي تبذل فوق وسعها لتقليد العائلات المثرية باللباس والاثاث والتبرج . كانهن" يجهلن ان العظمة الحقيقية ليست في سكنى القصور واقتناء الجواهر الثمينة وارتداء الملابس الفاخرة بل في النفوس الكبيرة والعقول الراجحة والاخلاق النبيلة

انا الثائر على الشاعر اذا كان شعره تقليدياً مبتذلاً او مجونياً خلاعياً وعَلَى الكاتب المهتم في رصف العبارات وتمميق الاستعارات لا في ابتكار المعاني الرائعة واختلاق الافكار اللامعة

انا الثائر على الصحافي الذي يتكيف بتكيف الظروف طبقاً لاهوائه واميالهوعلى الصحافي الجبان الذي تنقصه الجرأة الادبية لاظهار ارائهوافكاره. وعَلَى الصحافي البارع في اصول اللغة ولكنه ليس على شيء من معرفة التاريخ والجغرافيا وسائر العلوم . لان الصحافة ليست معجماً لغوياً بل مهنة ادبية عمومية تجمع بين صفحاتها شتات العلوم والمعارف فمن مقتضياتها اللازمة ان يكون منشئها عالماً ليكون صحافياً بارعاً

انا الثائر على بعض ذوي المقامات اصحاب النفوس الصغيرة الذين تكرمهم فيقللون من كرامتك وتجلهم وتحترمهم فلا يقابلونك بالمثل لاغترارهم بنفوسهم من جرّاء تكريمك اياهم وهذا كله ناشىء من التربية الناقصة التي غرست في هؤلاء الحمقى من الرجال المتمسكين في الاباطيل الفارغة والمتنفخين عجرفة وخيلاء

انا الثائر على المتنعم بمال ابيه لا على العصامي المتنعم بماله الخاص

انا الثائر على ذاك المتباهي بمكانته العائلية لا على العصامي الواجد مكانته الاجتماعية

انا الثائر على المتمسك بشرف اصله ونبالة اجداده لا على العصامي المالك ناصية الشرف بحسن تدبيره ورجاحة عقله

هنا وقف الثائر برهة عن الكلام ثم اردف هذه العبارة : انا الثائر على الحياة لانها هائجة وعلى الموت لانه ساكن

نعم انا الثائر ولا شك قد ازعجتك في ثورتي وهياجي فدعني وشأني ومضى في سبيله

الربيع

لقد اقبل فصل الربيع فتفتحت الازهار والرياحين ولبست الطبيعة حلتها المتلألئة الزاهية الالوان والاشكال

فعندئذٍ حدثتني النفس بان اذهب الى البرية للتمتع بمشاهدة الحقول الخضراء والرياض الغناء

هناك اخذت اتمشى بين الازهار النابتة في هذا الفصل ثم وقفت هنيهة اتأمل في الاقاحي فرأيتها حاملة على اوراقها الصغيرة قطرات الندى كما تحمل الام طفلها او كما تحمل اليافعة حمرة الحياء عَلَى خديها

هناك وقفت اسائل نفسي : ماذا كان يوحي اليّ الربيع وانا في طور الحداثة ؟ وماذا يوحي اليّ الان وانا في ريعان الشباب ؟ وماذا يوحي اليّ في الكهولة ؟

ان الربيع في نظري حينما كنت حدثاً كان يوحي اليّ جمالاً ملائكياً كجمال الاطفال الملائكي ومنظراً بسيطاً كبساطة قلوبهم · لان الاحداث لا ينظرون الاشياء الا باعينهم المادية لا بأعين العقل والبصيرة · وكم من الناس الذين يشبون ويكتهلون ويشيخون ولا يزالون في معارفهم اطفالاً وفي مداركهم احداثاً

في هذا الفصل كنت اذهب مع اترابي الصغار الى الحقل وهناك كنت اقطف زهرة الاقحوان الجميلة سائلاً احد الرفقاء (انتزوج ام تترهب) ثم

ابتدىء في سلخ اوراقها ورقة ورقة الى النهاية وكان الفائز في عرف الاحداث من بات راهباً

ثم اعود الى شقائق النعمان فاجمع بعضها واصبغ يديّ بلونها الارجواني الجميل . واما بعض الازهار التي تؤكل كالزهيرة وخلافها فكنت استعذبها كثيراً مع كونها ليست على شيء من العذوبة ولكن هي الحداثة تستعذب ما لا يستعذبه الشباب وتستملح ما لا تستملحه الكهولة

أتأمل الان في حداثتي فاراها قد ولت مسرعة كالغمام ومر ربيعها مرور النسيم لان الانسان ينظر دائماً الى ماضيه مهما بعد عنه كأنه البارحة

هذا الربيع المتجسم امامي في حقوله الخضراء ورياضه الغناء هو في نظري الان ربيع الشباب لا ربيع الحداثة

هذه الزهرة الجميلة التي تفتحت اكمامها لاستقبال ندى الليل ونسيم السحر وشمس النهار تذكرني في زهرة شبابي التي تفتحت لاستقبال نفسي الشاعرة وقلبي الخافق ودماغي المفكر

هذه البنفسجة الصغيرة النابتة وحدها بين الاقاحي في هذا الحقل الواسع تعلمني بان الانسان ليس وحده في هذا الكون يتحمل مضض الغربة وينزح عن عائلته وارضه بل هي ايضاً تعيش وحدها بين تلك الازهار الغريبة بعيدة عن عائلتها وارضها

هذه الزنبقة الضعيفة الناشئة ازاء اشجار البلوط الهائلة تلقي امامي امثولتين:

الامثولة الاولى : وجودها عائشة بالقرب من تلك الاشجار العظيمة كوجود الفقير العائش في كوخه ازاء الغني في قصره

والامثولة الثانية تلقيها عليّ بعد تفتيح اكمامها وانطلاق شذاها وعبيرها بيد ان تلك الاشجار الباسقة التي تحيط بها من كل جانب لا تضاهيها زهواً ولا عبيراً

فهي تمثل امامي ابن الكوخ المجاهد بعد ان يشب ويمتلىء عزماً ونشاطاً واقداماً فيفوح عبير علمه وشذا اعماله في كل حدب وصوب رغماً عن فقره . بيد ان ابن القصر الخامل منذ ولادته مهما شرف اصله و كثرت امواله لايقدر ان يضاهيه عقلاً وذكاءً ولا ان يماثله علماً واختباراً

ان الماس العائب من اصله مهما صُقل و بولغ في الاعتناء به يبقى عائباً . وهكذا الانسان القليل الادراك لا يمكن ان يصبح عاقلاً مدركاً من جراء كثرة امواله وعقاره لان جوهره عائب والجوهر يصقل ولا يتغير

هذه شجرة المشمش المتفتحة اكمامها قد وافتها اسراب النحل من كل جانب لامتصاص ازهارها . فقلت في نفسي كما ان النحلة تفتش عن شجرة اينعت ازهارها لتعلقها هكذا الشاب فهو يفتش عن يافعة برز ثدياها للنهود ليهيم بها و يعلقها لان من ثغر الربيع تجني النحلة شهدها ومن ثغر الشباب يجني المرء شهد حبه

هذا هو ربيع الشباب وهذه هي بعض صوره المختلفة

اما ربيع الكهولة فهو يوحي للمرء الرصانة والتعقل واوقعه في النفس واكمله ما بات يجمع في خلايا حقوله ربيعي الحداثة والشباب

ان الكهل الذي يذهب الى الحقل و يقف متأملاً في ازهار الربيع فهو

لا يراها كلها بالسواء بل منها صغيرة ومنها كبيرة — منها نامية ومنها ضعيفة — منها مائتة في حينها ومنها ذابلة قبل اوانها

فيعود الى نفسه والى السلالة الانسانية التي ينتمي اليها فيرى بام العين حياته كحياة الازهار

فالوردة الصغيرة تمثله في صغره — والكبيرة تمثلهُ في شبابه و كهولته — والنامية تشابهه وهو في حالته الصحية — والضعيفة وهو في سقمه وهزاله. واما تلك الوردة المتلاشية في حينها فهي تمثل امامه بعض اهله ومعارفه الذين شبعوا حياةً وماتوا فوق الثمانين من عمرهم واما تلك الاقمار الذابلة قبل اوانها فهي تخيل اليه صديقه الاول المائت في حداثته وذاك الذي وافاه الاجل في ريعان شبابه وهذا الاخير الذي اخترمته المنون في اوائل كهولته

ان هذه الطبيعة الصامتة هي في نظري سلسلة كثيرة الحلقات يتصل بعضها ببعض . ولهذا السبب كل ما فيها يتشابه في اطوار حياته كل التشابه من ادنى الطبقات الحية الى اسماها

ان الحشرة تولد وتولد وتنمو و تهزل ثم تموت وهكذا النبات وذوات الثدي من الحيوان والانسان

الحصاد

في شهر تموز من السنة المنصرمة ذهبت الى البرية لاتمتع بنسيم الحقل البليل فمررت بالقرب من البيادر حيث وقع نظري على ركام القمح المكدسة في كل جانب

وقفت برهة عَلَى حافة البيدر المملوء من سنابل الحنطة وشاهدت كهلاً جالساً على مورج يجره ثور للدراسة

فقلت في نفسي: حتى الان لم يزل القروي اللبناني يحرث ارضه بواسطة سكته التي تجرها ابقاره ويحصد سنابله بمنجله ويتأبطها الى بيدره ويدرسها على مورجه

تلك هي عادة الآباء والاجداد لا بل هكذا كان الفينيقيون والكنعانيون والاشوريون يزرعون غلالهم ويحصدونها وما زال الشرقيون حتى الان يخطون خطواتهم

فمتى يبتدىء الشرقي ان يغرس ارضه على الطرق الزراعية الحديثة . ومتى يبتدىء ان يحصد غلاله ويدرسها ايضاً بواسطة الآلات الميكانيكية فيوفر عنه الايدي العاملة والعناء الجزيل

وبينما انا جالس عَلَى حافة البيدر وعيناي تحدقان بدراسة القمح واذا بدماغي المفكر اخذ يرسم في مخيلتي صوراً مختلفة عن الحصاد منها لذيذة منعشة ومنها موحشة مزعجة وهاك بعضها

الصورة الاولى : كل شيءٍ في هذا الوجود سواء كان انساناً او حيواناً او نباتاً يتبع في حياته نظاماً واحداً لا يتعداه . فالقمحة تُزرع في احشاء الارض كما يُزرع الجنين في رحم امه ثم تنمو رويداً رويداً الى ان تبلغ كمالها ثم تنحني الى الذبول ثم الى اليبس . فعندئذٍ تلعب بها ايدي الحصاد فتقتلعها عن بكرة ابيها

وهكذا هو الانسان مهما طال امده لا بد ان ينحني عاجزاً امام الشيخوخة

ويثقل كاهله الهرم ثم يأتي الموت فيحصده كما هو الان يحصد قمحه

الصورة الثانية : خيل اليّ وانا بين سنابل القمح المكردسة على البيادر كأني في ساحة الوغى

تمثلت امامي اشلاء القتلى مبعثرة في كل جانب كما تتبعثر تلك السنابل تحت مورج الدراسة · وشاهدت عشرات القرويين بعضهم آتياً من الحقل وعلى ظهورهم غلالهم يطلبون دراستها وبعضهم عائداً من هناك قد وضعوا احمالهم وليس على اكتافهم سوى الحبال كي يعيدوا الكرة ثانية في نقل ماتبقى لهم · وقد تدوم الحال هكذا الى انتهاء موسم الدراسة حيث يوضع الحب في اكياسه والتبن في اكداسه

كذا هي ساحة الحرب جندٌ يدخلونها وهم يحملون قذائفهم الحربية وآلاتهم الجهنمية وجند يخرجون منها بعد ان انهكهم التعب واستنزفوا ذخائرهم ومعداتهم فيستريحون فترة من الزمن ثم يعودون الى ساحة الوغى كاملي الاهبة والعدة وهم هكذا يظلون الى انتهاء المعركة فعندئذٍ يجمعون الجرحى في مستشفيات المعسكر ويكردسون القتلى في حفرةٍ او يجعلونهم طعاماً للنار

الصورة الثالثة : هذا القروي الذي يحصد قمحه الان يعلم تمام العلم بان الغلة لا تكون موفورة لديه الا اذا كانت التربة التي يزرعها صالحةً للزرع وهكذا الفتى الذي يخرج من المدرسة بعد انتهائه من علومه فهو في ابتدائه بالاشغال لا يقدر ان يستغل سوى ما يزرعه في حقل دماغه من انواع العلوم في ايام دراسته

فاذا كانت تربة عقله جيدةً فهو الناجح لا محالة في عمله واعماله

فكما تكون التربة تكون النتيجة

الصورة الرابعة : من يزرع قمحاً لا يستغل شوكاً فهؤلاء القرويون يستغلون الان قمحهم لانهم بذروا الحب في حينه · وهكذا الانسان الذي يتزوج في ريعان الفتوة فهو يستغل اولاده في الكهولة

فمن يغرس في حقل دماغه بذور العلم والمعارف لا بد ان يجني ثمرة علومه ومعارفه ومن يدأب جاداً وراء تحصيل المال لاشك انه سينال ما يتمناه جزاء اتعابه و يذخره الى شيخوخته وهرمه كما يذخر الحصّاد الحنطة في اهرائه الى شتائه

الصورة الخامسة : هذه الكتب الفلسفية والعلمية والاجتماعية ما هي الا نتيجة الحصاد لانها لم توجد دفعةً واحدة بل هي تشبه الحنطة في زرعها ونموها وحصادها · لانها زُرعت افكاراً غير متناسقة في عقول منشئيها ثم ابتدأت تلك الافكار تنمو وتنضج الى ان حان وقت حصادها فعندئذٍ جمعت من حقول تلك الادمغة الوقادة الى صفحات الكتب والمجلات كما تجمع الغلال في الاهراء عن البيادر الى حين الحاجة اليها

وهكذا هي نتيجة الاختراعات والاكتشافات وسائر الاعمال الخطيرة لان كل شيء في هذا الكون ادبياً كان ام مادياً لا تأتي نتيجته الا بعد ان يتمخض و يولد ثم ينمو وينضج الى ان يبلغ بلوغاً تاماً فعندئذٍ تدنو ساعة الحصاد اعني ساعة النتيجة فمن يزرع القمح يستغل قمحاً ومن يغرس العوسج يجني عوسجاً

القيل والقال

من يدرس الحياة في القرى اللبنانية درساً مدققاً يرى الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم يتاجرون بالكلام ويسترسلون بالقيل والقال في منتدياتهم واحاديثهم

فقد ضمني مجلس حافل بكبار القوم ودار الحديث بينهم طبعاً على السياسة والوظائف اذ لا حديث في لبنان غير حديث السياسة الباطلة ولا مصلحة غير الوظيفة

قال احدهم اما سمعتم بان فلاناً (وهو من الكتلة المعارضة للمجتمعين) زار المفوضية البارحة لاجل النزول عند رضى ارباب الحل والعقد هناك لانه راغب في ترشيح نفسه للنيابة فاجابه بعض الحضور نعم ولكنه غير مرغوب فيه لانه من اعداء الانتداب قلباً وقالباً

ثم تلاه اخر وقال للمتكلم : انا انزل عند رايك في هذه المسألة وفضلاً عن ذلك هو لا ينجح في انتخابه ولو بذلت له الحكومة كل المساعدة لانه من الافاكين الثرثارين ومن كبار المنافقين

ثم قام غيره على الاثر وقال : ليس فقط هو هكذا بل حياته الشخصية هي ايضاً ملطخة بالاثم والعار لانه يرى دائماً في بيوت الفحشاء واندية المقامرة ولم يكتف بذلك بل يقال عنه انه خان احد خلص اصدقائه بماله وبعرضه ايضاً

فاجابه على الفور احدهم (مثلما يطبل للناس فهم يزمرون له) الا تعلمون

ايها الذوات بان (مدامته) الفاضلة عالقة في شرك (البك) الفلاني واحدى شقيقاته ايضاً كانت هائمة في ابان الحرب العالمية باحد مأموري الاتراك المعروفين ؟ فاجابوا كلهم بدون استثناء نعم نعم

وبقيت وحدي في تلك الكتلة الديَّانة صامتاً

ثم دار الحديث عن غير ذلك وكانت النتيجة قيلاً وقالاً كالمباحثة الاولى

فقلت عندئذ في نفسي : اذا كانت هذه عقلية الطبقة المتنورة صاحبة الامر والنهي والادب الجم في البلاد فكيف تكون عقليات سائر طبقات الامة ونفسياتها لا شك انها على اسوأ حال كيف لا والناس على دين ملوكهم وزعمائهم . وقد صدق القائل :

فاذا رأيت الرأس وهو مهشمٌ ايقنت منه تهشم الاعضاء

يسمع المرء القيل والقال تحت سماء هذا الشرق التاعس من افواه الاحداث والفتيان والفتيات والعجائز في المدن والقرى والمزارع في الاندية العمومية في البيوت في المحلات التجارية في المدارس والكنائس في الجوامع في الصوامع والاديرة في الجادات في الحقل في كل مكان لا بل في كل ساعة يتلاقى بها اثنان يتكلمان عن شخص غائب

تلك هي آفة من آفات الشرق الجسيمة التي تأصلت منذ اجيال في اخلاق الشرقيين وطُبعت في تلافيف ادمغتهم وصفحات قلوبهم حتى اصبحت كانها عرق غير منفصل عن عروق اجسامهم الرئيسية واداة لا يستغنى عنها في حياتهم الاجتماعية

انه لعمري داء مزمن اورثه الاجداد للآباء والبنين والاحفاد واما

الاسباب المهمة التي ادت الى شيوعه فهي اولاً نقصان التربية — ثانياً البطالة — ثالثاً الزيارات المتواصلة

واما نقصان التربية فاساسه البيت ثم المدرسة ثم محيطنا الاجتماعي

ينشأ الاطفال في البيت الابوي فيسمعون اباءهم يتاجرون بالكلام الفارغ و يتناقلون الاحاديث الباطلة و يتدخلون بما لا يعنيهم في حياة غيرهم الشخصية . فيتخلق ابناؤهم بخلقهم . ثم يدخلون المدرسة فيسمعون من نظارهم واساتذتهم ما كانوا يسمعونه في البيت فتعلق في اذهانهم تلك العلة الخبيثة ثم يخرجون الى العالم الى محيط الشرق الحافل في الترهات والثرثرة فتوطد في عروقهم وافكارهم تلك الآفة الهائلة التي تبتدىء نواجذها في المهد وتنتهي في اللحد

ومن شبَّ عَلَى عادة شاب عليها

واما البطالة فهي ايضاً من الاسباب المهمة في تكوين جراثيم تلك العلة القتالة . لان الانسان اذا لم يشتغل في المفيد النافع فهو يشتغل بالضار المؤذي

فمن لا يحترف حرفة او يشتغل في الحقل او يتعاطى التجارة او الصناعة او الاستخدام فهو لا شك يشتغل بلسانه و يتاجر بالترهات ونقل الكلام

بقي لي امرٌ من امور الحياة الاجتماعية في الشرق الا وهي الزيارات البيتية المتواصلة التي لا يعبأ بها كثيراً ابناء الغرب بيد ان الشرقيين يكثرون منها مع كونها من اكبر دواعي القيل والقال ..

قلما نجد في مدينة بيروت المدعوة لؤلؤة الشرق سيدة لا تخرج من بيتها يومياً الى السوق او الى زيارة ما

ومتى اجتمع لفيف السيدات واجتماعهن ليس بالنادر بل في كل شروق وغروب يتحدثن فيما بينهن عن هذا وعن ذاك وتلك كما يتحدث رجالهم ويزدنهم في احاديث المودة والمجوهرات والتبرج والخطبة والزيجة وو

تصرف السيدات معظم اوقاتهن زائرات ومستقبلات وهن يرددن غالباً ذات الحديث كما يردد المصلون صلاتهم في كل صباح ومساء

فحبذا لو اقلعن عن الاكثار من تلك العيادات البيتية وبذلن جل اهتمامهن في تدبير المنزل والطبخ والخياطة والتخريم وسائر الاعمال النافعة فبهذه الصورة يصرفن اوقاتهن فيما يفيد لا فيما ينتج من ورائه القيل والقال والمهاترة والماحكة وهلم جراً

يا بني امي ان ابناء الغرب يسبقوننا في طول الاناة والصبر في سيرهم وراء الاكتشافات والاختراعات وكل ما يؤول لنفعهم ونفع الانسانية واما نحن فنسبقهم شوطاً بعيداً في التعرض للشخصيات في استطالة ألسنتنا

فلننبذ التربية الناقصة ولنقلع عن البطالة وعن الاكثار من الزيارات غير اللازمة فعندئذ نقطع راس الافعى اعني افعى القيل والقال

قبر امي

هناك جلست البارحة واخذت اتأمل في تلك التي كانت سبب وجودي .

هناك بكيت بكاءً مراً على تلك الام التي قضت نحبها ولم تفز برؤية ولديها البعيدين عنها

هناك تذكرت ايام سقمها وكيف كانت تعاني الامرين لوعة الداء وحرقة الفراق .

هناك تذكرت قولها وهي في اشد حالات المرض بلغوا ولدي توفيق حين عوده الى الوطن ان يزور قبري و يكلمني ثلاثاً فتنتعش عظامي البالية وترجع روحي الى جثماني ثم انشر كما نُشر اليعازر من قبره

هناك قمت بوصيتها فناديتها ثلاثاً لا بل مئة مرة ثلاثاً قائلاً لها : هائنذا يا امي ! هائنذا يا امي ؟ فلم تحر جواباً لان الموت سلطان السكوت اعياها عن الكلام حيث اصبحت من سنتين و يزيد من عداد اتباعه

جثوت امام القبر خاشعاً واخذت اصلي لا كالمصلين بالسنتهم وشفاههم لاني لم انطق ببنت شفة بل صليت في دموعي الهاطلة وقلبي الخافق وعواطفي الحارة ونفسي المرتفعة الى خالقها وفكري الجائل في ذكريات تلك الام التي حملتني تسعة اشهر في احشائها

انها لعمري الصلاة الحقيقية لانها صادرة عن عقلي لا عن لساني ومن باطني لا من ظاهري

انها وحدها الصلاة التي يقبلها الخالق ويسبغ وابل رحمته ونعمه على تلك الراقدة بسلام في احشاء الارض

وقفت حيال القبر وناجيت رب الموت قائلاً : اين امي ؟ هل هي هنا في هذا اللحد المظلم ؟ هل لعبت بها ايدي الفناء واعادتها المنون الى التراب الذي جُبلت منه؟ اين صوتها الحنون ؟ اين عقلها الثاقب ؟ اين قلبها الطاهر ؟ اين عواطفها الخالصة؟ اين اين ؟ هل غيب اللحد قواها العقلية واخلاقها الرضية كما غيب جثمانها ؟ هل الادبيات تدفن مع الماديات ؟

لا لعمري هنا في هذا اللحد دُفن جثمانها واما فضائلها الجمة فمدفونة في قلوب اهلها وعارفيها

ثم عدت الى نفسي اسائلها وانا متكىء عَلَى حائط القبر وعيناي محدقتان في بابه الحديدي الصغير المقفل اقفالاً محكماً اين انا الان ؟ ألست ازاء ضريح الام ؟ نعم انا قريب منها ولكنني بعيد عنها لاني ادعوها فلا تجيب واقرع بابها فلا تفتح

فقلت في نفسي : لقد اصابني ما اصاب احدهم حين اتى لعيادة صديقه فرأى باب البيت مقفلاً كباب القبر فقرعه مراراً ولكن على غير جدوى لان صاحبه لم يكن هناك فقد ذهب لزيارة ابيه

وهكذا امي ليست في قبرها لانها ذهبت الى ابيها وخالقها الكلي القدرة

جثوت منحنياً امام ضريحها كما كانت تنحني ازاء سريري وقبلت ثرى لحدها كما كانت تقبلني بوجد وشوق

ان انحنائي ازاء ضريحها الان ولثمي ثرى قبرها لا يجديها نفعاً بيد ان انحنائها عَلَى مهدي كان سبب حياتي لارضاعها اياي حليب الامومة وقبلاتها الحارة التي كانت تزودني اياها في صغري هي ذاتها غرست في قلبي رقة الشعور وعاطفة الحنان والرحمة والوفاء

اذن ماذا اعمل لأفيها حقها ؟ الا يفي المدين دائنه اذا كان من الاوفياء ما الحيلة ما العمل لايصال الحق الى صاحبة الحق ؟

وبينما انا في هذا التأمل خيل اليَّ كأن صوتاً من داخل القبر يشبه

صوت امي يناديني : يا بني قم بواجبك نحو الاحياء وافهم قسطي و كن مثالا صالحاً في اقوالك واعمالك

ودعني وشأني فالموتى لا يحنون الا الى رحمته تعالى

الليالي المقمرة

خرجت اليوم من مسكني في شرتون متمشياً في سكون الليل و كان القمر بدراً والنجوم ساطعة في القبة الزرقاء كما يسطع الماس على صدر الحسناء والافق صافياً لا تعكره غيمة والنسيم بليلاً والطبيعة زاهية زاهرة بعض اشجارها ناضج الاثمار والبعض الاخر زاهي الازهار · فاستوقفني بعض الصغار الذين كانوا يلعبون على الجادة العمومية وأخذت اتأمل العابهم واتذكر ايام الحداثة وقت كنت مثلهم العب مع اترابي في مثل هذه الساعة

ثم واصلت السير على تلك الجادة المؤدية الى عين تراز الى ان بلغت شجرة زيتون نابتةً على جانب الطريق بين القريتين وعلى جذعها مقعد من الحجارة فجلست للاستراحة واخذت اجيل طرفي في هذا البساط الازرق القائم في الملأ الاعلى الذي لا بداية له ولا نهاية ولا عداد لدراريه اللامعة

هناك اخذت اسائل نفسي : ما هي هذه الافلاك العظيمة السابحة في الفضاء ؟ وكم هي عظيمة تلك القبة الزرقاء التي تحوي نجوماً لا يصل نورها الى كرتنا الارضية باقل من مليون سنة وربما كان غيرها يلزمها ملايين الاعوام لايصال شعاعها الى ارضنا الصغيرة ؟

الى اين وصل العلم ؟ الى اين يخترق العقل البشري في فسيح هذه

اللانهاية ؟ الى اين تنتهي مخيلة الانسان ؟

اذا كان هذا الكوكب الصغير الذي يدعى الارض خلق لاجل الانسان او بالاحرى لاجل الذرات الحية المنتشرة في ارجائه فلأجل من وجدت تلك السيارات العديدة ؟ ولاي سبب كونها المبدع ؟ فكما انه لا وجود بلا موجد هكذا لا عمل بلا غاية واما نحن البشر فلم نزل نجهل الغاية الرئيسية من خلق تلك الاجرام السماوية

وبينما انا احدق في الملأ الاعلى غائصاً بالتأمل جال في خاطري ما كتبه احد الفلكيين منذ اعوام اذ قال : انه اكتشف شمسين توأمين تكبر كل منهما شمسنا مراراً عديدة تدوران على بعضهما وتشعان شعاعاً عجيباً ويومهما باربعة ايام من يومنا وتنبعث منهما الانوار المختلفة الالوان على الكواكب المحيطة بهما

فما اجمل تلك الكواكب التي تستقبل تلك الانوار المختلفة الالوان في آن واحد

انها وايم الحق لتخيلات مبهمة وقد تكون من الحقائق الراهنة لان الملأ الاعلى الذي ندعوه نحن البشر اللانهاية يحوي الوفاً لا بل ملايين من الشموس والكواكب المرتبطة بعضها ببعض بقوة نظامها العجيب الذي اوجده الخالق منذ اوجدها

كنت في طور الحداثة عند ما اذهب وحدي للتنزه في الليل ارفع نظري الى السماء والهو في تعداد النجوم وبالطبع لم اكن اصل الى نتيجة لانها لا تحصى

اما اليوم وانا في العقد الثالث من العمر فقد اصبحت ارفع بصري الى العلاء للتأمل في اسرار تلك الكواكب اللامعة

لم اطمع بتعدادها لاني افهم الان انها لا تعد ولكني اشغلت دماغي لأكشف النقاب عن مصدرها واحيط علماً بهذه اللانهاية الغامضة التي ندعوها بحق نحن البشر (العالم المجهول) لجهلنا كيفية وجودها وموجوداتها

وبعد ان استغرقت في التأمل اخذت اسائل نفسي قائلاً : هل فهمت اسرار تلك الكائنات ؟ هل حللت رموزها ؟ هل سبرت غور هذا الملأ الاعلى ؟ الى اين انتهيت في تأملي ؟ والى اين وصلت في معارفي ؟ ام الى اين حلقت في مداركي ؟

اني وايم الحق لم اعلم من اسرار هذه اللانهاية سوى ما تعلمه النملة من القطار الحديدي والسمكة من الالة البخارية والنسر من الطيارة السابحة في الفضاء

لقد اشغلت عقلي مدة طويلة في الملأ الاعلى لاحلّ رموز الكائنات وانا لم ازل اجهل نفسي واطوارها لا اعلم من اين اتيت ولا الى اين اذهب

قد عشت تسعة اشهر في احشاء امي فهل اشعر في تلك الايام ؟ ام بالاحرى هل اذكر كيف كنت انمو واتغذى ؟ كلا . فاذا كنت اجهل ما مرّ عليّ تمام الجهل فكيف اعلم الى اين اذهب

ان احشاء الامهات هي العالم الاول للانسان لانها تمثله جنيناً ثم ينتقل الى العالم الثاني اعني الى هذه الارض

فنحن اذن في العالم الثاني بالنسبة الى الذين ما برحوا في بطون امهاتهم

واما بالنسبة الى الذين انتقلوا الى الدار الاخرى فنحن لم نزل نمثل في هذا الكون دور الاجنة

ان الانسان يمثل ثلاثة ادوار مختلفة على مرسح اللانهاية دور الجنين ودور الحياة الدنيا ودور الآخرة وربما كان عليه ان يمثل غير ادوار نجهلها. وهكذا امنا الطبيعة وسائر الشموس والكواكب . لان الوجود هو المرسح الدائم والارض والاجرام السماوية وكل ذي حياة هم الممثلون

طلوع الشمس وغروبها

نهضت البارحة باكراً قاصداً دير سير الواقع فوق قرية رشميا

فصعدت رويسة شرتون قبل شروق الغزالة وهناك اخذت ارقبها وما هي الا هنيهة حتى ظهرت من وراء الافق تزهو بحلتها اللامعة ثم اخذت ترمي اشعتها الذهبية على رؤوس الجبال والسهول والاودية

فقلت في نفسي : هذا مجال للتفرس في عروس الكواكب قبل ان تمتلكها الحرارة . فرفعت بصري الضعيف الى العلاء وابتدأت اتأمل في ملكة السماء والارض في الشمس التى برزت من افقها العجيب كما تبرز العروس من خدرها

ماذا رأيت في احداقي ؟ وماذا شعرت في حواسي ؟ ثم ماذا تخيلت في افكاري ؟ وماذا علمت في درسي وتأملي ؟

رأيت شمساً تسطع في الملأ الاعلى كأنها فوهة بركان

وشعرت ان هذه الارض التي انا احد ابنائها تلتهم تلك الانوار المنبعثة

من هذا الكوكب الناري لتحفظ كيانها وكيان انسانها وحيوانها ونباتها

وتخيلت الشمس جنيناً دنت ساعته نخرج من احشاء اللانهاية كما يخرج ابن الانسان من بطن امه

وقد علمت تمام العلم ان هذه الشمس الساطعة هي كوكب ناري لاني نظرتها ولمست انوارها وشعرت بحرارتها . رأيتها تنتقل في القبة الزرقاء من الشرق الى الغرب مع كونها بالحقيقة ثابتة لان الارض التي نحن عليها هي الدائرة حولها

بقيت متأملاً في الشمس الى ان اشتدت حرارتها ولم يعد لي طاقة على التحديق بها فاخذت طريقي وسرت ميمماً دير سير القائم على الرابية القبلية المحاذية رويسة شرتون

واذا بعين سير امامي تنبع بين اشجار الجوز القديمة العهد ثم تأخذ مجراها بين اشجار التوت واخاديد الخضر

جلست هناك للاستراحة وشربت من مائها العذب ثم تذكرت الامير الشهابي الكبير الذي كان يؤم هذا المكان طلباً للقنص وهو الذي غرس اشجار الجوز التي اتفيأ ظلها الان فقد طواه الزمان ولكنه لم يطو اثاره واعماله الجليلة لان الانسان العظيم له عمران عمر مادي وعمر ادبي . فالعمر المادي ينتهي بانتهاء حياته واما العمر الادبي فلا ينتهي الا بانتهاء الخليقة

واصلت السير صعوداً الى ان بلغت الرابية واذا انا في باب الدير فطرقته مستأذناً الدخول — فأذن لي — فدخلت — واستقبلني الرهبان بكل ترحاب فرأيت بعضهم في طور الشباب والبعض الآخر في الكهولة والشيخوخة

هناك اخذنا نتجاذب اطراف الحديث عن الاديرة والصوامع وعن الحياة النسكية . فشعرت كأني احد هؤلاء الرهبان الشيوخ نفساً وضميراً لاني في تلك الساعة نسيت الدنيا وزخرفها واباطيلها واحتقرت الجاه والمال والعظمة العالمية وسئمت الملاهي وسائر الملذات الدنيوية

هناك سألت نفسي قائلاً : لماذا اجدّ واكدّ وراء المجد الباطل ! ولماذا اواصل الليل والنهار منغمساً في جمع المال الذي اتركه غداً لان في الغد الموت

وكأني بدماغي المفكر اخذ يجيبني : نعم ان غداً الموت ولكن الحياة جهاد ومن جاهد في حياته واكتسب جاهاً وادباً وخلف ولداً ومالاً وعمل الصالحات ربح الدنيا والاخرة لاتمام الرسالتين رسالته المادية ورسالته الادبية

تناولت طعام الغذاء على مائدة الدير والرهبان حولي يمنة ويسرة وشربت قليلاً من نبيذهم المعتق لان القليل من الخمر يفرّح قلب الانسان والكثير منه يؤذي الجسم ويفقد اللب والبصيرة

ثم دخلت غرفة راهب طاعن في السن لاخذ الراحة فنمت هنيئاً في صومعة الشيخ الناسك وشعرت بلذة غريبة وانا مستلقٍ على فراشه الخشن لم اشعر بمثلها في الغرف الحافلة بالوسائد الناعمة والرياش الفاخرة

نعم نمت مستريحا على فراشه وشربت هنيئاً من ابريقه واكلت مريئاً من طعامه وحسوت فرحاً من خمرته وتنعمت في حديثه الدال على سلامة قلبه وصفاء ضميره وسذاجة اخلاقه لان الراحة الحقيقية ربيبة الحياة الساذجة الخالية من التوعر والتعقد

تركت الدير عند الاصيل وقفلت راجعاً من حيث اتيت ولم اكد اصل الى المكان الذي وقفت به صباحاً ارقب طلوع الغزالة الا وهي قد قاربت الغروب فحدقت بها متأملاً ثم ناجيتها قائلاً

يا ملكة السماء والارض يا ربة النور والضياء لقد استقبلتك صباحاً عند شروقك وها انا الان اودعك عند غروبك

مالي اراك قد اصبحت صفراء ضعيفة الحرارة خائرة القوى كانك تمثلين ساعة غروبك ساعة نزاعي

مالي اراك في كل مساء تتوارين في بحر الروم وتتغلغلين بين امواجه فهل انت تهبطين الى قعره وترقدين في لجاته ؟ فاذا كان الامر هكذا فكيف تطلعين في كل صباح من الشرق وانت راقدة في الغرب ؟

انك وأيم الحق لا تستريحين ولا ترقدين بل ان الدورة الارضية تجعل جانباً من الكرة بمعزل عنك واما انت فما زلت منذ التكوين ترسلين اشعتك الدائمة على هذا الكون وعلى غيره من الكائنات

كلما برزت من خلف الجبال اتذكر بروزي من احشاء امي

وكلما بلغت منتهى حرارتك وميعان ضيائك اتذكر ميعة شبابي ومنتهى قوتي ونشاطي

وكلما دنت ساعة غروبك اتذكر ساعتي الاخيرة

فاذن انا وانت ايتها الشمس من عنصر واحد لان الذي اوجد الوجود هو واحد .

وهكذا نظام الحياة هو واحد ايضاً يسري على الشموس والكواكب والانسان والحيوان والنبات وعلى احقر الحشرات · وخلاصته وجود فطفولة فشباب فكهولة فشيخوخة فموت فمعاد

البيت الابوي

لا يشعر الانسان بمقدار حنينه الى البيت الابوي الا اذا تغيب عنه ردحاً ثم عاد اليه · فيخال نفسه كانه لم يزل في احضان ابويه ولو كان قد بلغ طور الشباب او الكهولة ثم تجول في خاطره ذكريات صغره منذ كان طفلاً فحدثاً فيافعاً بكل دقة وانعام فينظر الى نفسه كمن يقرأ كتاباً جميلاً ويتصفحه صفحة صفحة الى ان يبلغ النهاية

لا يوجد حي في البسيطة ليس له بقعة ابصر بها النور فكما ان الانسان له بيته الابوي هكذا الطيور لها اعشاشها والحيوانات لها اوجارها والهوام والحشرات لها خلاياها ولكن الانسان الناطق يختلف عن الحيوانات غير الناطقة في عقليته وشواعره · فهو ولو ترك بيته الابوي لا يزال يحن اليه حنيناً مبرحاً ويرتاح الى ذكره وذكرى اهله واخوانه

واما العصفور فاذا بلغ اشده يهجر عشه الى الابد وينسى ابويه وانسبائه لعدم حنينه الى مهده وقلة شعوره في صلة الارحام التي تجمع العائلة البشرية بعضها الى بعض

فكم من الناس الذين نزحوا عن ديارهم واصبحوا في شعورهم كالعصافير التي تركت اعشاشها اذ لا حنين عندهم الى مسقط روؤسهم ولا لهفة في

قلوبهم لآبائهم واخوانهم ولمن يمتون اليهم بصلة القرابة

كلما دخلت البيت الابوي اتأمل طفولتي التي فقدتها فاخالها تارة مختبئةً في خزانة غرفتي التي كنت انام بها وطوراً في طيات الماضي البعيد الغور الذي يأخذ دائماً ولا يرد ابداً. نظرت تختي الصغير وشاهدت الوسادة الصغيرة التي كنت اضجع عليها ورأيت من نافذة الغرفة شجرة البلوط التي كانت تظللني من حر الشمس حين كنت امرح في دار البيت ونظرت ثمرها الذي كنت املأ منه جيبي منشوراً على الارض كما كان ينثر قديماً ولكنني لم انظر لعبة واحدة من اللعب الكثيرة التي كنت الهو بها في صغري فقد زالت كلها من الوجود كما زالت طفولتي

ان تلك اللعب والحق يقال كانت الرفيقة الامينة لحداثتي فقد اقبلت باقبالها وادبرت بادبارها

اخال اركان البيت يرجع اليّ صدى صوت الوالد حين كان في ميعان شبابه ونشاط كهولته واما اليوم فقد اهرمته السنون وصار شيخاً كبيراً. واتأمل الغرفة التي كانت تسكنها امي فاخال جدرانها تسمعني نبرات صوت الوالدة ومرآتها المعلقة في الحائط تعيد الى ذهني صورتها الجميلة وتلهفها وحنانها فاراها تجاورني مع كونها بالحقيقة قد اصبحت بجوار ربها منذ امد بعيد

جلست الى المائدة الابوية التي كنت اجلس عليها في صغري لمناولة الطعام وحولي تلك العائلة المحبوبة التي انتمي اليها. ولكنها لم تكن كاملة في افرادها كما كانت في حداثتي

فالوالدة لم تجلس الى المائدة لانها جالسة في ضريحها الى الابد

والشقيقة لم تجلس لانها تزوجت واوجدت بيتاً تأوي اليه مع عائلةٍ تأنس بها

والشقيق لم يجلس لنزوحه الى الاقطار الاميركية شأن معظم مواطنيه

واما نحن الباقون فقد جلسنا وسيأتي يوم لا نجلس الى تلك المائدة الابوية التي ستتلاشى في الغد بملاشاة العائلة وتصبح اثراً بعد عين

ان عقد اللؤلؤ المرسل على صدر الحسناء والمحبوك حبكاً متقناً في قلائده وحباته يشبه البيت الابوي حين تكون العائلة في طور الحداثة. واما العقد المفكوك العرى الذي انتثرت حباته وتقطعت قلائده فهو يشبه البيت الابوي حين تصبح العيلة في طور الشباب والكهولة فينفرط عقدها في تشتيت افرادها

ان بيتنا الابوي كان في حداثة العائلة يشبه الربيع بازهاره واما اليوم فقد اصبح كالخريف في تناثر اوراقهِ

شرتون

في الجرد الجنوبي من جبل لبنان تقوم شرتون البلدة الصغيرة التي انتمي اليها وهي تعلو عن سطح البحر سبعمائة وخمسين متراً وتبعد عن بيروت ساعة في السيارة عن طريق عاليه . ماؤها عذب ونسيمها بليل منعش ومروجها خضراء مما يشرح القلب والعقل معاً ولا شك انها ستكون في المستقبل القريب قبلة المصطافين وطالبي النزهة لجمال مناظرها الطبيعية وكثرة اشجارها وطيب مناخها وعذوبة ينابيعها وفوق ذلك لما فطر عليه ابناؤها من حبهم للغريب وتفانيهم في سبيل مرضاته

مكثت شهراً كاملاً في شرتون بين الاهل والانسباء وانا في اهنأ عيش وانعم بال وقد كنت وانا في ديار الغربة اتذكر بكل وجد وشوق تلك البلدة المحبوبة واحنُّ اليها حنين الطير الى عشه ٠ واما الان فقد منَّ الله عليَّ بالعود الى الوطن العزيز وها انا اتمتع بمرأى الاهل ضمن جدران هذه القرية حيث اتأمل ايام الطفولة وما احلى التأمل تحت سماء هذه البلدة الهادئة البعيدة عن الضوضاء والجلبة

من ايام قليلة زرت مدرسة القرية التي اخذت عنها اصول الهجاء فدخلتها وانا استرسل النظر تارة في التلاميذ وطوراً في المكان الذي كنت جالساً به اتلقن الالف باء والطوبى

في ذلك العهد عهد الصغر كنت ادخل المدرسة خائفاً من قصاص المعلم وتهديداته واما الان فحين دخولي شعرت بحزن عميق وانقباض شديد حينما نظرت الطلبة لا يربون عن الاربعين بعد ان كان عددهم في الماضي ما يزيد عن المائة وخمسين ٠ فاخذتني الحيرة وسألت نفسي قائلاً : اين صغار البلدة واين كبارها ؟ كيف تلاشت تلك القرية الزاهرة بالامس ؟ وما حلَّ بها ؟ وهي التي انجبت رجالاً من كبار حملة الاقلام يقرُّ بفضلهم ابناء الضاد في كل صقع وناد ٠ وكأني بنفسي الحزينة تناجيني من داخل الدماغ وحنايا الاضلع : هذه هي نتيجة المهاجرة والمجاعة وهما السببان الرئيسيان لقلة السكان وتقهقر معظم القرى اللبنانية التي اصبحت قاعاً صفصفاً بعد ان كانت زاهية زاهرة بالعمران

من يزور بلدة شرتون اليوم يرى هناك البيوت المتداعية والاراضي الكثيرة غير المغروسة والحقول المهملة · كل ذلك اثرٌ باق من آثار المجاعة الهائلة التي حصدت الالوف من ابناء لبنان

وفي مدة اقامتي في البلدة زرت قبور شهداء المجاعة الذين يزيد عددهم عن الثلاثمائة وخمسين نفساً · هناك بين سكون الموتى وتحت ظلال قبورهم الصامتة بكيت بكاءً مراً على ما حلّ في سنيّ الحرب من البلايا والمحن على لبنان واهله · هناك تذكرت قصيدة نظمتها على اثر المجاعة منددا في شركة القمح الاحتكارية التي كانت الضربة القاضية على اللبنانيين لمتاجرتها بارواحهم الغالية ومنها الابيات التالية :

يا تاجراً بدقيقٍ جعلت قمحك تبرا

ابدلته بنفوسٍ حملتها الضيم قسرا

لقد قتلت الوفاً جوعاً وعريا وقهرا

النفس ملك الهٍ فلا تباع وتشرى

اما المهاجرة فهي من اهم اسباب انحطاط لبنان وانقطاع اليد العاملة من حقوله فقد عرفت من بعض شيوخ القرية ان موسم الحرير في شرتون كان يزيد عن الاثني عشر الف اقة في الماضي واما اليوم فلا يتجاوز الثلاثة الاف اقة وهكذا نقص الانتاج في باقي المواسم كالزيتون والعنب وخلافهما واما عدد سكان البلدة فقد كان فيما مضى يقرب من الالفي نفس واما اليوم فهم دون الاربعماية ساكن بيد انه يوجد في الاقطار الاميركية من ابناء شرتون ما يزيد عن الالف مهاجر وعلى هذا النمط تقريباً تقاس اكثرية

القرى اللبنانية الآيلة بحكم الطبع اذا بقي الحال على هذا المنوال الى الانهيار والدمار

اني احب وطني محبة تقرب من العبادة ولهذا السبب فاني اشعر بحزن عميق حينما المس بقلبي وعقلي حالة لبنان الحاضرة وارى بام عيني يد الخراب تتسرب في بطون اوديته وعلى هضاب قممه . كيف لا ومن يتفقد الان هذا الوطن التاعس لا يرى سوى النزر القليل الباقي من اغراس التوت ومن الكروم والاحراج الذين عليهم مدار الحياة وسعادة الاهلين

فالواجب الوطني يقضي عَلَى كل لبناني صميم ان يسعى في تشجير لبنان وان يزرع بيده شجراً في دياره دليل محبته لاوطانه لان الوطن الذي لا شجر فيه هو كالصحارى المرملة التي لا حياة فيها

الحور والصفصاف

مررت بالقرب من نبع يجري بين اشجار الحور والصفصاف فجلست اسرّح طرفي في تلك المشاهد الجميلة ثم رفعت بصري الى شجرة حور قائمة على ضفاف الماء وهي تناطح السحاب باغصانها

ونظرت على الضفة الثانية صفصافة قديمة العهد كاملة النمو منحنية على امها الارض بقببها العديدة واغصانها المترامية الاطراف

فقلت في نفسي : ان اشجار الحور تمثل زعماء الشرق وحكامه الشامخين علاءً والمسترسلين عجرفة وكبرياء فضلاً عن كونهم ليسوا على جانب عظيم من المعارف والانظمة والخبرة الادارية

واما الصفصافة المنحنية اغصانها الى الارض فهي تمثل عظماء الغربيين

وحكامهم ومفكريهم فهؤلاء مهما ارتفعوا اتضعوا لانهم يعلمون حق العلم ان العظمة الحقيقية قائمة بالرقي والنزاهة والمعرفة لا بالصلف والكبرياء والتشامخ

ان شجرة الحور قد تركت اصلها لتلتحق بالفضاء وتبلغ عنان السماء ولكنها مهما اشتدت عتواً وزادت علواً فلن تصل الى غايتها بل تعود متقهقرة الى الارض التي اوجدتها

وهكذا هم الرجال الذين يتطلبون المجد والعلاء عن طريق الغرور لا عن طريق الكفاية . فيشترون بالمال مراتبهم كما يشترون كلمات الثناء والاطراء في الصحف والمجلات

فلو تسنى لهم بواسطة هذه الشعوذات ان ينالوا مبتغاهم ويموهوا على عقول العامة والسذج فهل اصبحوا في الحقيقة عظماء ؟ ام بالاحرى هل قدروا ان يخدعوا ذواتهم ويموهوا على عقولهم ؟ كلا . فهم والحالة هذه سيعودون الى اصلهم مهما بلغوا من الرتب والمناصب كما تعود الحورة الى امها الطبيعة

اذا امتلأت السنابل قمحاً انحنت رؤوسها الى الارض واذا اكتظت الاشجار بالثمر انحنت اغصانها ايضاً ولا تأخذ بالعلاء سوى السنابل الفارغة والاغصان العارية

وهكذا الناس لا يشمخ منهم بانوفهم الا الفارغون ولا ينحني ويتواضع الا الممتلئون علماً والمكتملون عقلاً ومدارك

ان الحورة الشامخة تمثل الجبار العاتي والفقير المتكبر والجاهل المستبد والرجل القاسي القلب الذي لا يهمه من امر الدنيا سوى امر نفسه

واما الصفصافة المنحنية فهي تمثل العالم العامل والحكيم الكامل والرجل

النشيط العاقل الذي يعمل لسعادة الانسانية و يشتغل في حقل هذا الكون لازدهاره وزيادة انتاجه

ان الصفصافة بنظري تمثل الولد الابر الذي ينظر الى ابيه و يحنو على امه كما كانا يعطفان عليه في صغره · واما الحورة الناطحة السحاب فهي تمثل امامي الولد العقوق الذي اشتد ساعده فنسي اصله ولم يعد يفكر بوالديه واهله

فيجب علينا اذن ان نعطف على امنا الانسانية المتألمة والتائقة الى البر والرحمة والعدالة كما تعطف الصفصافة بانحناء اغصانها عَلَى امها الطبيعة

الثأر

يُعزى الى عرب البادية من الغرائز الطبيعية المتأصلة في عروقهم حب الاخذ بالثأر ولهذا السبب نراهم في نزاع دائم · لا تخمد الفتنة بين قبائلهم وافخاذهم و بطونهم لانهم لا يفقهون معنى الحياة القومية والوحدة الوطنية

وقد تخلق اللبنانيون سابقاً باخلاق البدو وحذوا حذوهم في نزوعهم للفتن والضغائن واندفاعهم للاخذ بالثأر بكلما اوتوه من القوة والعزم ومن لا يأخذ بثأره عُدَّ جباناً

و كانت الطريقة التي يستعملها اللبناني ليثأر من خصمه في الغالب شائنة يمجها العقل وتستقبحها الضمائر الحية و يستنكرها التمدن لانها ليست على شيء من العدالة والانصاف

اذا قتل اللبناني احد مواطنيه عمداً او عرضاً و كانا ينتسبان الى عائلة واحدة تُشطر تلك العائلة الى شطرين اقرباء القاتل واقرباء المقتول و يصبح

كل فرد من افراد الفريق الاول خصماً لدوداً للفريق الثاني واذا كانا من عائلتين مختلفتين يصبح كل فرد من افراد عائلة القاتل مسؤولاً بدم القتيل بنظر العائلة الثانية · فاذا لم يتوفق اولياء الدم للاجهاز على الجاني يفتكون باحد انسبائه الابرياء دون ان يرتكب اثماً ويستحلون قتله لانه يمتُّ الى القاتل بصلة الارحام

واذا كان القاتل من طائفة والمقتول من غيرها « وهناك الطامة الكبرى » تصبح الطائفة باسرها مسؤولة امام الطائفة الثانية التي تسوغ لنفسها ان تفتك بمن تشاء من ابناء تلك الطائفة فيذهب البريء بجريرة المجرم ويُهدر دم الرجل العاقل باثم الوغد القاتل

هذه كانت سنّة اللبنانيين في الثأر لا بل كانت سنة الشرقيين على اختلاف اقوامهم وطبقاتهم ومذاهبهم

انها لعمري سنّة شائنة لا ينتج من ورائها سوى التفريق والتعصب الذميم والقضاء المبرم على الوحدة القومية والمحبة الوطنية

واما ابناء الغرب فالثأر عندهم على نوعين ثأر الافراد وثأر الامة · فاذا قتل احدهم شخصاً من مواطنيه تثأر منه حالاً الحكومة المحلية وتعاقبه على جريمته واذا عجزت العدالة عن امساكه فعندئذٍ يهتم اولياء الدم ان يتعقبوا غريمهم ليصرعوه او يسلموه للمحاكمة فهو بعرفهم خصمهم الاوحد ولا حق لهم على اهله وسائر انسبائه · فهم والحالة هذه لا يفتكون الا بالمجرمين وهكذا يجب عَلَى الشرقيين ان يفهموا معنى الثأر الشريف العادل لا كما يفهمونه الان

واما ثأر الامة فهو الذي يشغل افكار الغربيين واذهانهم وهو وحده

موضوع فخرهم وعنوان مجدهم وبطولتهم لكي يحافظوا على كيانهم كامة مستقلة محترمة الجانب شديدة البأس تهابها الشعوب الدانية والممالك القاصية

من يدرس تاريخ الامتين الافرنسية والالمانية يبدو له باجلى بيان كيف تثأر الدول الاوربية محافظة على شرفها ومجدها العسكري

في اوائل الجيل الثامن عشر اكتسح الجيش الافرنسي بقيادة نابوليون الاملاك البروسية الالمانية وانزل بها الخسائر الفادحة بالمال والرجال ولم يمض نصف قرن حتى اجتاح الجيش الالماني البلاد الافرنسية ودخل باريس ظافراً وهكذا كان في الحرب العظمى فقد ثأرت فرنسا لنفسها من عدوتها القديمة

واما في لبنان وسائر البلاد العربية فليس لثأر الامة معنى مفهوم لدى الناطقين بالضاد . بل بالعكس لم تزل للفتن آثارها بين عيالهم وطوائفهم كما كانت في سالف الزمن بين بكر وتغلب وقيس ويمن . اذ لا وحدة قومية نذب عن حياضها ولا رابطة وطنية ندافع عنها ونثأر لها

مسألة الوحدة السورية

وكيف تتحقق

لا حديث في سوريا ولبنان هذه الايام الا حديث الاتصال والانفصال. فريق يرمي الى الغاء لبنان الكبير والانضمام الى الوحدة السورية عن طريق اللامركزية وفريق يناهض هذه الفكرة ويحبذ استقلال لبنان الكبير بحدوده الحاضرة

وقد اخذت المسألة دوراً مهماً في الاندية السياسية والمحافل العمومية وهي الان من احرج المسائل التي يصعب حلها لتعدد المطالب والمشارب والنزعات المختلفة بين ابناء الوطن الواحد

يدعي طلاب الوحدة ان سوريا بطبيعتها الجغرافية غير متجزئة ولبنان ليس الا بقعة من بقاعها فهو بالطبع تابع لها كما ان القلب هو عضو من اعضاء الجسم البشري لا يستغنى عنه

ويدعون ايضاً ان السبب الرئيسي لانفصال لبنان عن سوريا هو ايجاد وطن قومي للمسيحيين وهذه هي الفكرة الاساسية التي جاهروا بها على رؤوس الاشهاد

واما طلاب لبنان الكبير فيدعون ان لبنان كان منذ القدم مستقلاً عن سوريا يحكمه امراؤه من تنوخيين ومعنيين وشهابيين وخلافهم ثم حدثت

حوادث (الستين) فسلخت ملحقاته عنه ثم اعيدت اليه تلك الملحقات ونودي باستقلاله منذ سنوات

ويعترفون ايضاً ان جبلهم ليس وطناً قومياً للمسيحيين كما يزعم طلاب الوحدة بل هو للبنانيين اجمع على اختلاف اديانهم ومذاهبهم وطوائفهم ويصرحون في جرائدهم ومجلاتهم ان فلسطين سلخت عن سوريا فلماذا لم تقم قيامة طلاب الوحدة لارجاعها وهي بقعة لم تنفصل عن سوريا في خلال الحكم العثماني مع ان لبنان كان منفصلاً في ادارته قبل (الستين) و بعدها

ويعتقدون ايضاً تمام الاعتقاد ان الوحدة في الانتداب واللغة والنقد والاقتصاد والجمارك وما شاكل موجودة في البلدين فاللامركزية موجودة ضمناً كما ينشدها طلابها المعتدلون لا طلابها الغلاة

واما الشعب فهو الان بين هذين الفريقين طلاب لبنان وطلاب الوحدة كلٌ يغني على ليلاه في هذه الايام الحرجة . كلٌ يزرع التفريق القتال كلٌ يثير الاحقاد والضغائن كلٌ يرمي هذا الشعب المسكين في براثن النزعات الطائفية التي كانت ولم تزل سبب عثرته وامتهانه

يا مفكري الامة ويا حاملي لوائها اناشدكم بالله وبالوطنية الصحيحة ان تضعوا نصب اعينكم مبدأ الاعتدال في القول والعمل . لان الاعتدال يوجد التفاهم والتفاهم يولد الالفة وهذه توجد المحبة والمحبة وحدها اساس الاتحاد المقدس الذي ننشده ونتمناه جميعنا لسوريا ولبنان في المستقبل القريب

يا طلاب الوحدة انتم الاكثرية السورية الساحقة فعليكم ان تبدأوا في تمهيد العقبات لايجاد التفاهم القريب وان تظهروا في مظهر التساهل قولاً

وعملاً لان الاكثرية المتساهلة تضم الاقلية كما تضم الدجاجة فراخها تحت جناحيها

ان تلك الاكثرية الساحقة لا تأخذ الان بمبدأ التساهل واما الاقلية فهي في كل مكان وزمان تمشي على خطوات الاكثرية · فهو اذن داء التفريق الذميم يسري في عروق المجموع بالسواء · ودواؤه الوحيد الشافي هو ما ذكرته اي ان تبتدىء الاكثرية في زرع بذور التساهل فتحذو الاقلية حذوها لانها تعتبره تساهلاً واما تساهل الاقلية فلا يأتي بالنتيجة المطلوبة لان الاكثرية لا تشعر به ولا تعتقده تساهلاً بل تسليماً

والتسليم هو عنوان العجز والقصور واما التساهل فهو مصدر العدل والقوة

فعلى السوريين في الاونة الحاضرة ان يسعوا جهدهم في استتباب الامن وانهاض الصناعة والزراعة وتعميم التعليم الاجباري لمحاربة الامية في المدن والقرى والمزارع وتربية الناشئة الجديدة على حب الوطن والعمل لانهما وحدهما يقتلان جرثومة الفساد والتعصبات الدينية الذميمة وليتركوا اللبنانيين وشأنهم الآن فهم متى رأوا بام اعينهم هذا التقدم الراهن المقرون بالمساواة والاخاء يسرعون من تلقاء نفوسهم للاتحاد قلباً وقالباً مخيرين لا مسيرين · وما افضل الوحدة القومية المرتكزة على دعائم التشويق والرغبة والمحاسنة لا على دعائم المنازعات والمشاكسات المختلفة

في سبيل الحياة القومية

اجمع ذوو الرأي الحصيف والصدق في القول على ان الطائفية هي الحائل الوحيد دون رخاء هذه الديار فان في لبنان طوائف يكاد يكون كل منها أمةً مستقلةً عن الاخرى

وقد قام كثيرون من مفكري الامة ينادون بالوحدة القومية واخذوا يحاربون التعصب الذميم ويدعون الناس على اختلاف طوائفهم الى الوئام والتساهل ولم يفلحوا

وعظ الكاهن وخطب الشيخ وانشد الشاعر واظهر الكاتب والمحامي والطبيب والسياسي والتاجر والعامل وجوب استئصال شأفة النعرات المذهبية وتكوين الرابطة القومية ولم يفلحوا . حتى اصبح مفكرو الشرق يعتقدون ان لا دواء لهذا الداء المزمن المجسم

ورب سائل سأل لماذا لم يفلحوا ! فاجيب : لانهم لم يقدموا على محاربة التعصب عن اخلاص مجرد واعتقاد راسخ بل يلقون مواعظهم وينشئون مقالاتهم وقصائدهم من باب المجاملات لا عن عقيدة نفسية تدفعهم الى ذلك

قد يجتمع ابناء الطوائف المختلفة في بعض الاندية فيتظاهرون في مظهر الاتحاد والالفة ولكنهم في بواطنهم يحملون الاحقاد والضغائن . فهم يتبادلون عبارات اللطف والتجمل وفي طيات صدورهم حزازات وعنعنات . ولهذا السبب نراهم متى انتثر عقدهم يعودون الى سالف عهدهم وكل طائفة تعتبر

نفسها انموذجاً للتساهل وتعزو التعصب الذميم الى سائر الطوائف

والحقيقة الراهنة ان ابناء الشرق جميعهم متعصبون تعصباً طائفياً عظيماً فلو قدّر لنا ان نحوّل هذا التعصب الطائفي الى تعصب وطني لأصبحت بلادنا في بضعة اعوام في طليعة البلدان رقياً وعلماً وانتاجاً

يا ابناء الطوائف السورية اذا احببتم ان تكوّنوا القومية الصحيحة فاسعوا اولاً في تطهير قلوبكم وتنظيف بواطنكم من الحزازات المتأصلة في عروقكم ثم اجتمعوا وتباحثوا واخطبوا واكتبوا ما تكنه افئدتكم وما تمليه عليكم ضمائركم لانهاض هذا الوطن واتحاد بنيه ولا شك انكم ستنجحون اذا اندفعتم الى العمل عن عقيدة نفسية ومحبة وطنية لا عن مجاملات وقتية

منذ ايام ضمني مجلس حافل ببعض ادباء لبنان المختلفي الطوائف فسمعت احدهم يهمس في اذني صديق له وهو من غير طائفته هذه العبارة : قد قتل من طائفتكم خمسة قتلى ومن طائفتنا اربعة ولم يزل الفرق واحد لا غير

فتصديت للجواب قائلاً : يا هذا أليس هؤلاء التسعة ابناء وطن واحد؟ ألم يقتلوا على قارعة الطرق دون ذنب ولا اثم سوى انتمائهم الطائفي ؟

فمن يأخذ بثأرهم من مسبب قتلهم ؟ ومن هو يا ترى مسبب حوادث الشغب والقتل بين ابناء الوطن الواحد ؟ أليس هو التعصب الذميم هو العدو الحقيقي فلنثأر منه جميعنا لانه متى زال المسبب يزول السبب ٠ وكأني بدماء ضحايانا التي لا تعد تدعوكم لاستئصال شأفته من قلوبكم وضمائركم فعندئذٍ تكونون ثأرتم بحق وعدل من مسبب ضحاياكم اما الان فانتم على ضلال حين تقتلون وتثأرون

ان اوربا كانت لعصور خات رازحة تحت نير التعصب الذميم ولم يحل وثاقها سوى اقلام الكتاب والفلاسفة والمصلحين فاصبح الاوربيون من جراء تعاليمهم يدينون بدين الوطنية الصحيحة ويتفانون في سبيلها ولا عصبة قبلهم سواها

فالوطن الافرنسي يجمع الافرنسيين على اختلاف طبقاتهم واديانهم ومذاهبهم وهكذا الوطن الانكليزى والوطن الالماني والاميركي وخلافهما وليس ثمة تعصب مذهبي في العالم المتمدن . فنرى رئيس الجمهورية الافرنسية بروتستنتياً بيد ان معظم الشعب يدين بالكثلكة

وقد كانت عقلية امم الغرب في القرون الوسطى كعقليتنا الان ومذبحة (برتلمه) شاهدة على ذلك فمن يرقب بعين البصيرة كيف تعدلت نظريات الغربيين وتطوّرت عقلياتهم لا يشك ابداً اننا في المستقبل القريب سندخل باب التطور في النظريات والعمليات لاحتكاكنا المتواصل بالحضارة الغربية

فعلى كتابنا وفلاسفتنا ومفكرينا ان يضعوا حداً لهذه المنازعات في آرائهم الرصينة وافكارهم الرزينة

الاخلاق

في الافراد والجماعات

اخلاق الفرد

عاش الانسان قروناً طويلة زمن العصر الحجري في الكهوف والمغاور وكانت اخلاقه اشبه باخلاق الحيوان منها باخلاق الانسان الحالي واما بعد عصر التمدن فتقسم اخلاق الانسان الى قسمين : غريزية واكتسابية فالاخلاق الغريزية لم تزل مشتركة بين الانسان والحيوان واما الاخلاق الاكتسابية وعليها مدار البحث فهي تتناول الانسان وحده دون سواه من سائر المخلوقات الحية الموجودة في هذه الطبيعة. ولهذا السبب نرى بقوة العلم والمعرفة ان التطبع في الانسان يغلب الطبع لانه قابل للرقي والتقدم واما في الحيوان فبعكس ذلك لانه لم يزل في هذا العصر علَى فطرته الطبيعية كما كان في العصر الصواني

رب سائل قال : ما هي الاخلاق الحسنة في الرجل وكيف نعللها ؟ فالاخلاق الحسنة بزعمي ليست قائمة فقط برقة الجانب ولين العريكة وجمال الظواهر لا بل يجب ان تكون مقرونة بالصفات الطيبة والخلال الحميدة والاداب الصحيحة . واني افضل صاحب الاخلاق الحسنة والمزايا الكريمة على صاحب العقل والعلم اذا كان غير منطوٍ على نبلٍ ونزاهة وصدق وشرف ماذا ينفع العقل الراجح اذا استعمله المرء للغش والمخاتلة ؟ فهو سم ناقع

يضر بالانسانية ضرراً عظيماً · وماذا يفيد العلم اذا استعمله المرء لزيادة الشرور وكثرة المآثم

ان الجنس البشري ارتقى بعقله وعلومه ارتقاء مذكوراً واما باخلاقه فكان ارتقاؤه بطيئاً للغاية لان ارتقاء الاخلاق لايقوم الا بالتضحية والانسان محب لذاته يريد كل شيء لنفسه ·ومحبة الذات كانت ولا تزال العقبة الكؤود دون تقدمه باخلاقه

جاء المسيح الى الارض منذ الف وتسعمائة وخمس وعشرين سنة وقد الف في علم الاخلاق ما لم يؤلفه غيره لان الانجيل هو اعظم كتاب اخلاقي يتضمن الدروس الاخلاقية السامية

ومن يتصفح آياته وينعم النظر فيها يراها كلها تعاليم اخلاقية صرفة تحمل الانسان عَلَى المحبة والتواضع والعفو والتساهل وفوق ذلك على التضحية الذاتية التي هي اساس الاخلاق البشرية وليس لنا من واسطة فعالة لمحاربة الاميال الغريزية والمطامع الانسانية الا بها

وعَلَى سبيل المثال أُورد لكم نبذة وجيزة بين بوذا (مسيح الهند) وتلميذه بورنا حين امره ان يذهب لبلاد البرابرة كي يبث تعاليمه الروحية · فسترون بام العين تلك الاخلاق الراقية المجسمة في هذا الرجل العظيم

قال بوذا مخاطباً تلميذه : يا بورنا غداً ستذهب الى بلاد البرابرة لاجل تثقيفهم وتعليمهم وسترى من اولئك القوم قلوباً قاسية وطباعاً وحشية وسيرشقونك بألسنة حادة وكلام بذيء ماذا تعتقد بهم ! فاجابه بورنا : اعتقد بانهم انقياء القلوب لانهم يشتمونني بالكلام ولا يضربونني باليد ولا بالحجارة

فقال بوذا : واذا ضربوك باليد ورموك بالحجارة ماذا تفتكر بهم ؟ فاجابه : افتكر بانهم انقياء القلوب ايضاً لانهم يضربونني تارة باليد وطوراً بالحجارة ولكن لا يضربونني بالسوط والسيف فقال بوذا : واذا اجهزوا عليك بالسوط والسيف ماذا تقول عنهم ؟ فاجاب : اقول انهم من اهل الصلاح كونهم لا يعدمونني الحياة رغماً عن طعنهم اياي بالحراب . فقال عندئذٍ : واذا اعدموك الحياة ماذا تعتقد بهم ؟ فاجاب بورنا : اعتقد بانهم من ابناء الصلاح ايضاً لانهم بقليل من العذاب يعتقونني من نير هذا الجسد المائل الى الشر والمملوء من اباطيل هذا العالم . فقال بوذا : اذهب يا بورنا الى بلاد البرابرة فانت تقدر ان تسكن بينهم اذهب وعزِّ هذا الشعب البائس فتتغزّى وخلص تلك الانفس التاعسة فتخلص اذهب اليهم وعش بين ظهرانيهم فان لهم من كرم اخلاقك ديناً يدينون به ومن جميل صفاتك مشعالاً يهتدون بضيائه

أليست هذه التعاليم كلها قائمة على التضحية الذاتية للحصول على كمال الاخلاق ورقة الشعور ؟ أليس العفو والحلم هما حجر الزاوية في بناء الاخلاق الحميدة ؟ اليست المحبة هي الاساس المكين لبناء الخلق الانساني ؟ وقد قال الكتاب حبوا اعداءكم كانفسكم

اخلاق الجماعات

منذ زمن طويل تبحث الدول عن وسيلة فعالة لاجل انهاء الحروب لتستريح البشرية من اعباء التسليح والتجنيد والضحايا العظيمة وقد اجتمع ممثلو الدول مراراً في لاهاي وابتنوا قصراً فخماً دعوه قصر السلام وقد

اطنبت الجرائد من ذلك الحين في تحبيذ هذه الفكرة وابرازها للوجود وخصوصاً الاشتراكية منها . وسنت في باحات هذا القصر القوانين العمومية لكي ترجع الشعوب اليها بفض مشاكلهم وخلافاتهم ولكن لم يمضِ ردح حتى رأينا الحروب زادت وطأتها ولم تكن قوانين لاهاي الاحبراً على ورق

وبعد انتهاء الحرب العالمية الكبري رجعت الدول لفكرة انهاء الحروب فألفت جمعية الامم في جنيف واظن انها ستفشل كما فشلت سابقاً في لاهاي لان ايجاد السلام الدائم والاخاء الحقيقي لا تحصل عليهما الانسانية الا عن طريق ترقية الاخلاق والتضحية وحتى الان لم يصل الجنس البشري لهذا الحد من كمال الخلق والنزاهة . وما الحرب الا نتيجة تنافس الدول ومنشأ التنافس ناتج من الطمع والاستبداد والاستئثار بالسلطة والفتك بالضعيف . فمتى زالت الاسباب زالت الحروب وحصل العالم على سلام دائم

اني اعتقد بزوال الاسباب الانفة عن طريق علم الاخلاق وتربية الناشئة الجديدة في جميع العالم على الكمال الطبيعي والكمال الادبي

فالكمال الطبيعي متوقف على علم الرياضة البدنية لنمو الجسد وهو امر لازم لبقاء الجنس البشري سالماً من الشوائب . واما الكمال الادبي الذي نحن بصدده فهو قائم في توحيد طريقة التعليم بين الشعوب لتتهيأ الافكار على الاتحاد العمومي الذي يجعل البشر كعيلة واحدة . واكبر مساعد لذلك هو تعليم الناشئة البشرية المبادىء الاخلاقية الصرفة المقرونة في التضحية والصفات النبيلة

لست اعني بقولي هذا ان لا يقدم الانسان على عظائم الامور او ان

لا يكون الزحام العلمي او الصناعي والتجاري موجوداً بين طبقات البشر فالمزاحمة على الحياة او على الشهرة تولد في الانسان حب الرغبة للتقدم وهي من محاسن الاخلاق . واما ما اعني فهو ان لا تصل بنا المزاحمة على الحياة لحد الطمع والاستبداد والحسد والاستئثار وما شاكل فهذه هي امراضنا الادبية التي لا دواء لها سوى ترقية اخلاقنا للحصول على الكمال الادبي والسلام الدائم

وقد اجمع العلماء على ان اخلاق الفرد هي ارقى من اخلاق الجماعة وهذه هي حقيقة لا غبار عليها . فالانسان بحد ذاته اقرب الى الكمال الادبي من الجماعات لانه مهما كان محباً لسفك الدماء وسلب الاموال يعترف لا بل يشعر بنفسه انه اقترف جريمة القتل اذا كان قاتلاً والسلب اذا كان سالباً . واما الجماعات فهي بعكس ذلك . فاذا كانت في حالة حرب مع جماعات اخرى يصبح سفك الدماء مباحاً وسلب الاموال حلالاً وتفقد الشفقة والرحمة من القلوب فتقترف الجماعات الجرائم ولا تشعر باقترافها وهذا اكبر دليل على انحطاط اخلاق الجماعات امام اخلاق الفرد

اذاً والحالة هذه ونحن نرى بام العين انه يجب على الانسان الفرد مئات من السنين لترقية اخلاقه فكم يلزم من العصور لترقية اخلاق الجماعات فهذا بحث مهم اتركه لعلماء الاخلاق الباحثين والمدققين في نفسية الجنس البشري ومقدار رقيه

افعى

ترك انطون وطنه وهو في العقد الثاني من عمره ويمم الاقطار الاميركية فاشتغل في عاصمة البرازيل زهاء عشرين سنة جمع في خلالها ثروة وافرة

وحدثته النفس ان يرجع الى مسقط رأسه لتقر عينه بمشاهدة اهله ووطنه وينتخب زوجة من بنات جنسه تشاطره سراءه وضراءه وترافقه في عسره ويسره

ركب البحر بعد الحرب وقفل راجعاً الى لبنان فدخل قريته وبقي مدة يستقبل وفود المهنئين وهم يتزلفون اليه ويسمعونه من ايات الثناء والاطراء ما لا يقال الا لعظماء الرجال . فلم يدرِ انها من باب التجمل اذ لا تجملات في ديار المهجر . واما في الشرق فيتلقنها الطالب من صغره ويتفنن بها تفنناً عجيباً

اقام بضعة اشهر في قريته بين اهله واصحابه ثم هبط بيروت وتعرف هناك الى رجل يدعى سعيد يتعاطى (السمسرة) من كل الاشكال والانواع واهم فروعها سمسرة العرائس

فاصطفى انطون سعيداً ولازمه لما رأى فيه من زلاقة اللسان وخفة الروح ، وهكذا تكون عادةً اخلاق السماسرة . فاخذ سعيد يفاتشه بامر زواجه حتى اقنعه ان يذهب برفقته لزيارة بيت الآنسة ايفون الصبية الجميلة

التي تنتمي الى عائلة متوسطة قد عضها الجوع بنابه في ابان الحرب العالمية فاباحت تلك العائلة لنفسها ماباحته كثيرات في تلك الاعوام المظلمة

دخل انطون المهاجر الغني بيت ايفون فوقعت من نفسه موقع الاستحسان ليس فقط لفرط جمالها بل لما كانت تبديه من محاسن الاخلاق والحشمة ومن مظاهر الفضيلة والادب الجم · وكان سعيد من آونة الى اخرى يفضي الى انطون بشدة اعجابه من حسن صفاتها وكمالها كي يوقعه في شركها ليربح بعض الدريهمات جزاء سمسرته · فنجح في مسعاه اذ علقها انطون وهام بها هياماً شديداً

وكان لايفون خليل يتردّد عليها سرًّا عرفته في ايام الحرب وكان من ابناء الثراء فاصبح من فرط تهتكه معدماً لا يملك شروى نقير · فاسرت اليه انها مزمعة ان تتزوج من انطون الغني لكي تتنعم واياه بماله

خطبها انطون من ابويها بعد ان زينها باقراط الماس واللؤلوء واغدق عَلَى اهلها الهدايا الثمينة اكراماً لها وقد استخص سعيداً السمسار بالعطاء ايضاً لانه كان سبب معرفته بها

....

في اليوم السابق للاكليل دعت امها احد الاطباء واخبرته قصة فتاتها مع ذلك الخليل وانها اليوم مزمعة ان تزوجها من احد العائدين من اميركا وهو يعتقدها نقية عذراء · وساومته ان تدفع له مبلغاً وافراً من المال اذا انطلت الحيلة على (العريس) انطون · فلبىّ الطبيب طلبها وكثيرون هم الاطباء الذين يلبون امثال هذه الدعوة

تزوج انطون من (ايفون) بعد ان صرف مالاً وافراً ولم يعلم شيئاً من امرها السابق

وبدلاً من ان يطلب مهراً حسب العادة المألوفة فانها اوعزت اليه ان لا ينسى اهلها فوهبهم اكراماً لها مبلغاً من المال لا يستهان به دُفعت من اصله اجرة الطبيب فصح به المثل القائل (من كيسه على ضرسه)

...

قضيا شهر العسل متنقلين في ربوع سوريا ولبنان ثم هبطا بيروت ومكثا فيها عاماً كاملاً وكان انطون يبذل المال جزافاً عليها وعلى اهلها . وكانت ايفون في خلال هذه المدة تستترها امها حين كانت تلتقي بخليلها في بيت ابويها وقد وهبته المال الجزيل من تعب زوجها المسكين

فلما شعر انطون انه سائر الى الخراب لا محالة وطد النية ان يعود الى اميركا فكاشفها الامر فرفضت ولم تقبل ان ترافقه الا بعد ان سلمها معظم ماله ولم يبق معه الا القليل

ركبا البحر قاصدين البرازيل وركب خليلها السفينة ذاتها واما انطون فلم يعلم ان الباخرة التي نقله تحمل ايضاً من كان سبب محنته وشقائه ، فتعرّف اليه ، كما تعرّف الى غيره من المهاجرين ثم قدمه الى زوجته كأنهما لا يعرفان بعضهما من قبل . ثم اخذ الخليل يصادق انطون مظهراً له كل محبة واخلاص

ولما رست السفينة في ثغر (الريودي جانيرو) اخذت الزوجة ترتب حوائجها ثم نزلت الى الجمرك برفقة خليلها فانتهرها بعلها فاجابته — لا صلة بيني وبينك

ولا علاقة ؟ فقال لها — كيف ؟ ألست زوجتي ؟ فاجابت — ابداً ! انا لا اعرف زوجاً لي الآ هذا الرجل) ووضعت يدها على خليلها فطالبها الزوج المنكود بماله فانكرت تمام النكران فشكا امره الى الحكومة المحلية فلم يحصل على نتيجة لعدم وجود شهود يفضون الى العدالة حقيقة الامر فدخل العاصمة يتعثر باذيال الخيبة اذ خسر زوجته وفقد ماله وبلغ اليأس منه مبلغاً عظيماً الى ان حاول الانتحار كي يتخلص من براثن القنوط والتعاسة

...

وبينما هو علَى تلك الحال جال في خاطره ذكرى الفتاة التي احبها في اوائل شبابه تحت سماء البرازيل ولم يشأ ان يتزوجها رغبةً في الاقتران باحدى بنات جنسه

فذهب اليها متردداً و كشف امامها حقيقة حاله وما عاناه من ضروب الشقاء والمحن فتأثرت لتأثره و بكت لبكائه ثم قال لها: انه لا يستحق ان يطلب يدها بعد ان تركها واصبح فقيراً معدماً من جراء زواجه من غيرها . فاجابته — انا ما احببتك لفرط مالك ولا لجاهك وجمالك بل احببت فيك روحك وصدق لهجتك و كرم خلقك فانت بعيني لم تزل كما كنت فانس الماضي تمام النسيان واتكل على الله فانا لك كما تشاء

و بعد ايام تزوجا زواجاً مدنياً اذ لا قبل لهما ان يعقدا اكليلهما في المراجع الدينية وعاشا بالرغد والهناء . لان السعادة الزوجية لا تشرى بمال وعقار بل بالحب المتبادل المقرون بالاخلاص والوفاء

واما ايفون فبعد ان تركت زوجها عاشت مع خليلها في داخلية البرازيل

وفتحا محلاً هناك ولم يمض عليهما بضعة اشهر حتى بدّد مالها ثم علق غيرها وتركها بحالة يرثى لها. فندمت ولاتَ ساعة مندم واشتد عليها اليأس وترآت لها اشباح خيانتها فاكبرت خطبها واستنكرت افعالها الشائنة واعتقدت انها لا تمحو اثمها وعارها الا بالانتحار فاطلقت على نفسها عياراً ناريًا كان القاضي عليها

وقد تركت هذه الكلمات الوجيزة مكتوبة بدمها :

(هذه نهاية كل امرأة خائنة مختلسة متهتكة)

اجتماعيات

الرجل والبغل

كنت ماراً في شارع (اللنبي) فوقع نظري على رجل يسوق طنبراً وقد حرن بغله فاخذ يضرب به ضرباً مبرّحاً دون شفقة ولا رحمة . والبغل يزيد حراناً . وبقي الرجل كذلك برهة حتى كلَّ من الضرب ولم يحصل على نتيجة فعندئذٍ انتهره احد المكارين الحكماء قائلاً : انا اجعل بغلك يمشي بلا حنق ولا ضرب ثم تقدم وقطر بغله على الطنبر امام البغل الحارن ومشى به بضع خطوات فتبعه البغل الحارن فعندئذٍ انتزع بغله وبقي البغل الحارن ماشياً في سبيله

فكم من الناس يعاملون اولادهم بالقسوة والخشونة كما عامل الرجل بغله فيشبون عَلَى الغلظة والفجور . فاذا كان يجب علينا ان نستعمل الحكمة في معاملة الحيوان فكيف بنا في معاملة الانسان

المرأة الجاهلة

حدثني احدهم قال : لي صديق مسكين تزوّج بامرأة جاهلة تكلفه اكثر من وسعه لحبها التفيش والظهور فهو يشتغل ليل نهار لاجل القيام بنفقاتها الباهظة ومع ذلك لا يسمع منها سوى الشتيمة والسباب . فاجبته ان الزيجة الهنيئة لا ترتكز دعائمها عَلَى الجاه والغنى ولا على الفقر والضعة ولا على الجمال المادي ايضاً بل على التناسب العائلي بين الزوجين والتكافوء في الاخلاق

والاميال والمعارف . ومن درس العالم درساً مدققاً يرى كثيرين من العقلاء الذين تزوّجوا بالجاهلات وكثيرات من الحكيمات اللواتي وقعن في حبائل الجهلة والحمقى . لان الناس يعقدون زواجهم غالباً طبقاً لاهوائهم واميالهم الفطرية لا كما توحيه اليهم اذهانهم وعقولهم

الحضارة

يوجد في الحضارة حسنات جمة ومساوىء جمة فالامة التي تقدر ان تستفيد من حسنات الحضارة وتبتعد عن مساوئها هي الامة الحكيمة التي لا يعتورها الاضمحلال ولا الخمول

من حسنات الحضارة اتقان العلوم الطبيعية والصناعات المختلفة والاكتشافات والاختراعات ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات ومن مساوىء تلك الحضارة عدم الاهتمام للعلوم الاخلاقية وترجل المرأة واستئثارها وتخنث الرجل وانفاقه فوق وسعه . ومما لا ريب فيه ان المبادىء الصحيحة والاخلاق السامية لا تأتيان عن طريق الحضارة المادية بل عن طريق الحضارة الروحية . فيجمل اذن بالامة الرشيدة ان تقتبس حضارة الروح دون ان تتخلى عن حضارة المادة فعندئذٍ يصح بها قول الشاعر

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

ما هو المال

ان المال هو لا شيء بحد ذاته وهو كل شيء بعرف العالم . هو لا شيء

لان الرجل لو جاع ولا طعام لديه لا يسد المال جوعه واذا ظمئ لا يروي ظمأه واذا اعتراه البرد لا يقوم المال في تدفئته مقام النار او الرداء واذا احب الدرس والمطالعة لا يغنيه عن الكتاب . ومع ذلك هو كل شيء بعرف العالم لانه يجلب الاكل للجائع والماء للظمآن والرداء للبردان والكتاب للانسان

فقد كانت الحاجات في الازمان الغابرة تقوم بالمقايضة اما اليوم فبالمال ولهذا السبب يكون المال كل شيء بعرف العالم

فهل يبقى المال سائداً على عقول الناس الى الابد ام يتلاشى كما تلاشت المقايضة ؟ انه لا شك سيبقى في مكانته هذه الى ان ينفرج للناس ما هو انسب منه فعندئذٍ يقضون عليه و يبقى الانسب

اين هي السعادة

قال لي احدهم — قد فتشت على السعادة في ردهات القصور وبين نواعم الخدور فلم اجدها و بحثت عنها في محافل الملوك والرؤساء وفي مكاتب العلماء وارباب الثراء فلم اعثر عليها ايضاً وسألت عنها في اندية العمال وارباب المهن وفي نقابات الاطباء والمحامين والصحافيين وفي مزارع الفلاحين واكواخ البائسين فلم اجد لها اثراً فاين هي السعادة اذن ؟

هي في الدماغ الذي له صحة التفكير وحسن التدبير وفي القلب الذي يحب ولا يبغض وفي الضمير الحي الذي يلهج بالحق ولا يفعل الا الحق . هؤلاء الثلاثة هم بمثابة ثالوث السعادة . فليمتحن كلٌّ نفسه فمن حصل على هذا الثالوث فقد حصل على السعادة

من هو العظيم

هو الرجل الذي يقرأ تراجم العظماء الفائزين في معترك الحياة فتتولد في قلبه الغيرة للاقتداء بهم ويتحمس تحمساً كلياً لاقتفاء آثارهم لان الغيرة تولد الحماسة والحماسة توطد العزم والعزم يوجد الارادة · ومن ملك ارادته ليس فقط يكون عظيماً بل يحصل ايضاً على ما يريد

المرأة الحكيمة

سألني احدهم ما هي المرأة الحكيمة ؟ فاجبته : هي التي تحافظ كل المحافظة على البنود الآتية :

اولاً — حبها الخالص لبعلها

ثانياً — احترامها اياه واكرامها لابويه وسائر اهله

ثالثاً — محافظتها على كرامته وشرفه

رابعاً — ان لا تكلفه فوق وسعه

خامساً — ان تهتم لتربية ابنائها وتعتني كل الاعتناء في نظافة ابدانهم وتهذيب اخلاقهم وتثقيف اذهانهم

سادساً — ان تعتقد تمام الاعتقاد بان لا سعادة لها خارج عتبة بيتها

سابعاً — اذا اخطأ زوجها ان تحاول ردعه عن خطائه بالحكمة والتروي لا بالعنف والتعنت

ثامناً — ان لا تكون سريعة الغضب ولا كثيرة الكلام لان الغضب والثرثرة هما آفتان من افظع الآفات التي تنغص الحياة العائلية وتكدر المعيشة

تاسعاً — ان تتولى تدبير منزلها بنفسها دون ان تضع كل اتكالها على خدامها

عاشراً — ان تقرن لطفها في مقابلة الزائرين بالرزانة وحديثها بالحكمة

حادي عشر — ان تجعل بيتها نعيماً مستمراً في نظر بعلها لان الرجل مهما كان مثقلاً بالهموم والمتاعب ودخل بيته الهادئ وقابل امرأته العاقلة الحكيمة تتبدد هواجسه ومشاغله لان نعيم البيت هو الدواء الوحيد الذي يشفي الرجل من متاعب الاشغال ومرارة الاعمال

ماهي الغاية من اقامة التماثيل

يوجد في عواصم العالم المتمدن وفي سائر مدنه تماثيل عديدة نصبت تخليداً لذكر عظماء الانسانية من ملوك وقادة وفلاسفة وعلماء ومكتشفين ومخترعين وقد وضع موءخراً تمثال الجندي المجهول الذي يمثل الوطنية المتطرفة والحرب والدمار . فكان اولى بالعالم المتمدن ان يقيم عوضاً عنه في باحات عواصمه تمثالاً للرجلين المجهولين مكتشف النار ومكتشف الحديد فهما اعظم رجال العالم لانهما حفظا كيان الجنس البشري من الفناء في ابان العصر الحجري . فقد كانت النار وحدها في ذلك العصر المظلم تقي الناس من الموت دنقاً وكان الحديد سلاحهم الوحيد الذي جعلهم ينتصرون على الحيوانات المفترسة فيصطادونها ويقتاتون من لحومها ويكتسون جلودها

وفضلاً عن ذلك ان النار والحديد جعلا الانسان يترك الحياة الوحشية ويألف الحياة العائلية . فهما لا شك اساس مدنيتنا الرائعة وحضارتنا الراهنة

فاذا كانت اقامة التماثيل معناها الاقرار بفضل الذين خدموا الانسانية

فمكتشفا النار والحديد هما اولى الناس بالفضل لان الامة الانسانية جمعاء مدينة بحفظ كيانها وتمدنها الى هذين الاكتشافين كما ذكرت آنفاً . ولكن على ما يظهر ان الناس يقيمون التماثيل ارضاءً لعواطفهم وشعورهم . لان الاستسلام للشعور لم يزل مستحكماً فيهم اكثر من الاستسلام للعقل

المنشئ المفيد والمنشئ الضار

ان المنشئ المفيد يشبه اطباء الابدان الذين لا يصفون الدواء قبل ان يعرفوا اسباب الداء وهو هكذا لا يشحذ يراعاً دون ان يدرس محيطه درساً وافياً ويستوعب اخلاق الناس ونزعاتهم ويدرك اسباب عللهم النفسية ومساوئهم الادبية . فعندئذٍ يسرع لمداواة تلك النقائص في كتاباته الصائبة بما لديه من الخبرة الواسعة وبما في دماغه من الحكمة الرائعة وفي فؤاده وضميره من صدق اللهجة ورقة الشعور . هكذا لعمري هو الكاتب المفيد الذي يجب ان يدعى بحق استاذ العالم واما اولئك الكتبة الذين فسدت اخلاقهم وساءت نواياهم فهم يفسدون الانسانية باقلامهم بدلاً من ان يفيدوها لانهم يشحذون قرائحهم لايقاظ الرذائل لا الفضائل ولهذا السبب يقودون قراءهم الى طريق الاثم والضلال لا الى طريق العدالة والكمال

ان الحروب والاوبئة والزلازل ليست كلها اشد خطراً على الناس من اولئك الكتبة الذين هم وحدهم ابالسة العالم

عصر العجائب وعصر الاختراع

ان عصر الانبياء والرسل يدعى في التاريخ عصر العجائب واما نحن فندعو

عصرنا الحالي عصر الاختراع مع كونه ابرز للوجود من غرائب الاكتشافات وعجائب الاختراعات ما لم يحلم به بنو البشر . فقد تغيرت عقليات الناس وتطورت نظرياتهم فما كان يدعوه الاقدمون عجائب ندعوه اليوم اختراعاً وما كانوا يعتقدونه سحراً نعتقده اليوم علماً وبياناً

ان حظنا في الوجود على سطح هذه الكرة يفضل كثيراً حظ ابائنا واجدادنا لاننا نعيش في عصر العلم والحضارة والاختراع فقد تمتعنا بمرأى الكهرباء والراديوم والصور المشبحة وعرفنا السيارات والدراجات والقطار الحديدي والطيارات وجميع الاختراعات الحديثة المهمة التي تؤول لراحة الانسان وهنائه . واما الآباء والاجداد فلم يروا شيئاً من هذا . وفي الغد لا شك تصبح نسبتنا الى احفادنا كنسبة اجدادنا الينا

كيف ننتصر على الهموم

ليس الانتصار على الهموم بالامر الهين فكم من الناس الذين انتحروا من جراء يأسهم وهمومهم وكم من البشر الذين اقعدهم الهم واماتت نشاطهم وجعلهم غير اكفاء للقيام باعمالهم !

فمن رام ان يعيش بهناء منتصراً على همومه يجب عليه ان يكون ذا عقل ثاقب وضمير حي وارادة كاملة لان العقل الثاقب ينهي صاحبه عن الاستسلام للهم والضمير الحي يجلب له السعادة الداخلية . والارادة الكاملة تقضي على مشاكل الحياة مهما كانت خطيرة لانها تولد في الناس قوة الاقدام ومضاء العزيمة

ان الانتصار لا يجب ان يقصر على الهموم والمتاعب فحسب بل على كافة الاعمال ايضاً

حب الشهرة

لا يوجد احد في هذا الكون لا يحب الشهرة فكل امرئ يريد ان يشار اليه بالبنان وان يكون موضوع اعجاب الناس وثنائهم ٠

واما الشهرة فهي على نوعين : الشهرة الكاذبة والشهرة الصادقة ٠ ومن تأمل ملياً يرى معظم الناس ينشدون الشهرة الكاذبة فكم منهم من يتطلب الشهرة في عالم السياسة ولم يخلق لها وكم منهم من يبتغيها في صناعة القلم من جراء معرفته اصول اللغة مع كونه يعجز ان يبتكر معنى او مبنى ٠ وكم وكم من الصيارفة والتجار الذين ينشدون الشهرة المادية بالمظاهرات العقيمة والتفشيش فيبرزون امام الناس اضعاف ما هم بالواقع

ان طلاّب الشهرة الكاذبة ينتهون غالباً بالفشل في جميع اعمالهم لان شهرتهم لا تمثل نبوغهم ٠ واما الشهرة الصادقة المؤسسة على المعرفة والنبوغ والصدق والنزاهة والنشاط والاقدام وحسن الادارة والتدبير فلا تقدر الاعوام ان تمحوها ولا الاجيال ان تلاشيها

فاذا كان الرجل الذي يأكل فوق طاقته يدعى جشعاً هكذا يدعى ايضاً من يتطلب الشهرة اكثر مما يستحق ٠ فعاقبة الجشع وخيمة في كلا الحالين

خدام الامة

ان الرؤساء الروحيين والموظفين في دوائر الحكومة سواءً كانت وظائفهم مدنية او عسكرية والموظفين في شركات الماء والسكك الحديدية والترامواي والتنوير الكهربائي . والمستخدمين في المصارف والكليات والمستشفيات والملاجئ هم جميعهم خدام الامة لان الناس يهرعون من كل حدب وصوب الى مكاتبهم لقضاء حاجاتهم . فكم وكم من الرؤساء والموظفين الذين يقتلون اوقاتهم في محادثة الاصحاب ومسامرة الاحباب و يتركون الناس مزدحمين على ابوابهم ينتظرون بفروغ صبر قضاء حاجاتهم ولا يعيرونهم التفاتاً . حتى انهم لا يصغون الى توسلاتهم الا من باب الاشمئزاز والتكلف

فمن رام ان يكون خادماً اميناً لامته ساهراً على مصالحها بكل قواه يجب عليه ان يتبع الشروط الاتية :

اولاً : ان لا يتخلف عن مكتبه في ساعات العمل الا عند الضرورة القاهرة لان وقته لم يعد له منذ اصبح موظفاً عمومياً بل للامة

ثانياً : ان يجعل مكتبه مجلساً للقضاء والعمل لا للانس والمسامرة

ثالثاً : ان يكون خبيراً في الوظيفة التي تلقى على عاتقه ليقوم بمهامها حق القيام بكل نزاهة واخلاص

رابعاً : ان يبتعد عن المماطلة والتسويف محافظةً على اوقات الناس وصيانةً لاموالهم

خامساً : ان يتجنب الاثرة والتفضيل في معاملة الخلق لانهم جميعاً متساوون امام الحق والعدالة

سادساً : ان لا يحتقر الناس ولا يزدري بهم مهما كانوا جهلة او اغبياء لان الذنب في جهلهم ليس ذنبهم بل ذنب الحكومة التي هي ولية امرهم. فعليه ان يخدمهم بامانة و ينورهم بارشاداته بدلاً من ان يهزأ بهم

سابعاً : ان يستعمل وظيفته لاحقاق الحق وازهاق البطل وان يكون شعاره دائماً (الحق يعلو ولا يعلى عليه)

المناقشة

ان المناقشة في الاندية العمومية مفيدة وضارة . اما المفيدة فهي التي تدور على المواضيع الادبية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والاخلاقية على شرط ان يتناقش الادباء الذين يترفعون عن المجادلات العقيمة والمخاصمة ولا ينشدون سوى فائدة المجتمع الانساني

واما المناقشات الضارة التي تجلب غالباً سوء التفاهم والبغض فهي المناقشات المرتكزة على المواضيع الخيالية والمواضيع الدينية . فلكلٍ دينه وخياله . فلا يجب علينا ان نجادل بما نعتقده وحياً ولا نقدر على اثباته بالبراهين المحسوسة

ومما لا ريب فيه ان الادباء المفيدين في مناقشاتهم هم الذين تتوفر فيهم البنود الآتية :

اولاً : ان لا يناقشوا من هم دونهم علماً وادباً واخلاقاً

ثانياً : ان يكونوا في مناقشاتهم مثال الحشمة والادب والظرف

ثالثاً : ان يتجنبوا التعقيد واطالة الشرح لان التعبير الموجز الكثير الوضوح اوقع في النفس واقرب للحقيقة

رابعاً : ان لا يكونوا متشبثين بافكارهم و ينزلوا عند رأي خصمهم متى كان صائباً

خامساً : ان يتجنبوا السقوط في حمأة الغضب لانها تعمي الالباب والبصائر وتقطع حلقة الاتصال بين العقول والالسنة فتأتي الالفاظ غير معبرة عن الاذهان. لان الغضب يقوّض سلطة الذهن فيصبح الرجل عاجزاً عن تحكيم العقل والمنطق مهما كان مقدار علمه ونبوغه

نهار امس

مضى نهار امس ولم اكتب شيئاً وسُجل في سجل الابدية دون ان اسجل في طياته فكراً من افكاري او عملاً من اعمالي فكأن شمسه لم تشرق عليَّ ولم تغرب

وغداً عندما تُنشر تلك الايام الغابرة في صفحات التواريخ لا يرى ابناء الغد شيئاً يذكرهم بي و يعرفني اليهم لاني لم اترك اثراً جليلاً لينشره المؤرخون في كتبهم حينما ينشرون صفحة امس

ان سني حياتي الماضية قد مرّت كلها بلا جدوى كما مر امس

فكم يعزّ عليَّ ان اقطع جسر الحياة دون ان احفر اسمي على صخرة من صخوره

وكم يؤلمني ان امرّ الى العالم المجهول عن طريق هذا الكون ولا اخلف عملاً مفيداً ينبئ ابناء الغد بروري

ان الرجل العاقل هو الذي لا يترك يومه يمر بلا عمل ولا يخسر في مستقبله الامل

الانتصار على الذات

انتصر على ذاتك اذا شئت ان تنتصر عَلَى متاعب الحياة

مهما كنت قائداً محنكاً ومهما خفقت اعلام النصر فوق لوائك وكنت خليعاً متمادياً في الغواية عاجزاً عن اصلاح نفسك فانت مقهورٌ امام معائبك مهما كنت قاهراً للجيوش والممالك . ومغلوبٌ عَلَى امرك تجاه ضميرك مهما كنت غالباً للاعداء

مهما كنت ملكاً عظيماً وعالماً خطيراً وسياسياً قديراً ومخترعا كبيراً وكنت مقامراً او سكيراً او مختلسا او بخيلا او بك خلةٌ ذميمة وعجزت ان تستأصلها منك فانت بحكم الحقيقة مكسور امام نفسك مهما كان انتصارك عظيما في عالم العلم والسياسة

انتصر على ذاتك قبل ان تنتصر على خصمك اكبح من نفسك جماحها الى الطمع والحسد والتواكل قبل ان تكبح جماح الاعداء

انزع من قلبك النقائص قبل ان تنزعها من قلوب الآخرين

تعلم الصدق قبل العلم والنزاهة قبل السياسة

اكتسب الفضيلة قبل الثروة والعدل قبل الملك

نزه نفسك عن كل ما يشينها فعندئذٍ يحق لك ان تحمل اكليل الغار وتفتخر بانتصارك على ذاتك وعلى العالم

الانتصار على الخوف

ان الخوف غريزة من الغرائز الطبيعية تتكوّن في النطفة البشرية وترافق الانسان في جميع ادوار حياته · ولهذا السبب نحن نرث الخوف عن آبائنا واجدادنا كما نرث المال والعقار فقد كان الاجداد قبلنا يخافون من الاوبئة والامراض المعدية · يخافون من الخسائر المادية · ويخافون من زلازل الطبيعة وعواصفها الهوجاء · يخافون من اللصوص والسفاكين والاباحيين والمختلسين · يخافون من كل شيء حتى من تخيلاتهم واوهامهم ونحن مثلهم نعيش في خوفٍ دائم · واني اعتقد تمام الاعتقاد بان قصر اعمارنا ناتج عن خوفنا ولولا ذلك لكان معدل عمر الانسان مضاعف ما هو عليه الآن

اذا شئت ان تنتصر على الخوف يجب عليك ان تعلم ان الحياة حلوة ومرة فاذا شعرت بحلاوتها اليوم ستشعر غداً بمرارتها · واذا كنت صحيح الجسم نشيطاً ستكون غداً ضعيفا هزيلا لان العلل والمصائب والآلام واقعة عليك ولا محالة فلا تجبن امامها لان الجبن لا يجديك نفعا بل يزيدك ألماً وشقاءً

كن شجاعاً صبوراً مهما اشتدّت عليك النوائب و كثرت المصاعب ولا يغرب عن بالك ان الموت غاية كل حي فلا تخف اذا دنت ساعتك

الاخيرة فكما تنزع عنك ثوباً قديماً وتبدله بغيره هكذا تتجدد حياتك بعد مماتك

فلا تخف من الموت — ولا تقنط من الحياة — ولا تجبن من النوائب

الحظ

كان احد التجار يشكو دائماً من سوء حظه ويمدح حظ جاره الذي يتاجر نظيره في البضائع القطنية . وفي ذات يوم قال لي : ان جاري فلان يربح في كل سنة ربحاً وافراً مع كوني اشتغل مثله ولا اربح شيئاً . أليس ذلك من قبيل حسن حظه وقلة حظي ؟ فاجبته : انا لا اؤمن بشيء يدعى الحظ ولا اعتقد ايضاً بمساعدة الظروف فاذا كان زميلك يفوقك ربحاً ونجاحاً فلا تعزو ذلك لحسن حظه وقلة حظك بل عد الى ذاتك وانزع من نفسك الغرور ثم قابل معارفك بمعارف زميلك وادارتك بادارته ونشاطك بنشاطه واقتصادك باقتصاده فعندئذٍ تتجلى لك الحقيقة . فترى فشلك مسبباً عن عجزك كما ان نجاح زميلك متأتٍ عن مقدرته

كثيرون هم الذين ينسبون فشلهم في اعمالهم الى سوء حظهم فليعلم هؤلاء انهم على ضلالٍ مبين لان الفشل يتأتى من سوء الادارة لا من سوء الحظ

صلاتي

ليست صلاتي تلك الصلاة التي تصدر عن اللسان ولا يشعر بها الجنان ولا صلاتي تقوم بالتمتمة ولدم الصدر والسجود في الهياكل ولا بتكرار آيات المدح والثناء على العزة الالهية . لان الله جل جلاله لا يغتبط بالثناء

كما نغتبط نحن البشر ولا تهزه النعوت والالقاب كما تهزنا . لانه ليس فقط فوق كل نعتٍ ومديح بل فوق الكائنات باسرها

ان صلاتي تقوم في الاعمال لا في الاقوال . ولهذا السبب لا اتوسل ولا اتضرع في صلاتي . ولا اطلب شيئاً من لدنه تعالى فوق ما يستحقه عملي لاني اتبع الآية القائلة : (كل خبزك بعرق جبينك)

لا ادخل الهيكل كالمرائين . ولا اصلي من قبيل العادة كما يصلي معظم البشر لاني حرَّرت نفسي من قيود العادات واعلنت استقلالي التام عن سائر ملكات محيطي في الفكر والقول والعمل

ان صلاتي تنحصر في عمل الخير وفي محاربة الكسل والشرور والمآثم في كل صباح اخلو برهةً بنفسي واحاسبها عن امسها فاذا رأيت خللاً اسعى بكل قواي لاصلاحه . هذه هي صلاتي اليومية

ان صلاتي وجيزة وصريحة وكثيرة السهولة لمن يريد ان يتبعها لانها تنحصر في هذه العبارة

افتكر دائماً بالحق — وانطقُ بالحق — ولا اعمل الا بالحق

اهواك يا جميل [1]

خلقت يا جميل فتاقت اليك القلوب ورشقتك الاعين بسهامها وترنحت بك الالباب وخشعت لك البواصر وذبحت امامك النفوس وناجتك المهجات من اعماق الصدور حياك الله يا جميل

تنسر" بمرآك العين وينشرح للقائك الصدر و ينفتح لك القلب وتسكر من خمر لطفك الالباب وتترنم برقة الفاظك الاذان فسبحان من سواك يا جميل

تغزل بجمالك الشعراء ونظم في مديحك ما راق وطاب فلطفك يوحي الشعر وجمالك يهيج القريحة ورقتك تسير العواطف فسبحان من ابدعك يا جميل

ته عجباً ودلالاً واحكم على المهجات فحكمك مقبول وامرك مطاع وتباهى اختيالاً فالله اعطاك الجمال والجمال خير المواهب وولاك على القلوب فانت الوليّ وانت الآمر

(ولك الحكم فاقضِ ما انت قاض انا راضٍ بما به انت راضِ)

احبك يا جميل وفؤادي رهين لطفك واسير هواك وحياتي تبذل في سبيل رضاك ودمي مهدور امامك ان شئت والى آخر رمق من حياتي اظلّ اميناً على ولائك ومنشغفاً بهواك يا جميل

---

(١) كتبها المؤلف في السادسة عشرة من عمره وهو تلميذ في مدرسة الحكمة واثبتها في كتابهِ تذكاراً للايام المدرسية

اهواك يا جميلة ولست اخاف في هواك العواذل فالله جميل ويحب الجمال وسبحان من تشبه بالباري .... فرسمك يطبع طي الصدر وذكرك يظل في الفكر واسمك على مدار الالسنة وخيالك امام العين فلا غرو ان ناجاك القلب صباحاً ومساء اهواك يا جميلة

تتحرك جميع حاساتي وعواطفي في مرآك ويسترسل اليك نظري بكل مجالي البهجة ويتهلل فؤادي في لقياك لانك جميلة والجميل بالطبع محبوب

تتسلطين على القلوب القاسية فتلينينها بغنجك ودلالاك وتخضع امامك الابطال التي لا تؤخذ في معامع القتال من مزيد لطفك وجمالك . فتلك سطوة الجمال على القلوب فلا يماثلها سطوة وتلك سلطة ربات الخدور على الانفس فلا يضاهيها سلطة

اهوى ايام الشباب لانها ابهج اويقات الحياة واصفاها رونقاً وجمالاً . بها يتمتع الشاب بتمام ابهته واحلامه والصبية الحسناء بكمال رونقها وجمالها . فهو طور الامال والاماني واويقات الزهو والغزل . وعصر الجمال والقوة معاً اهواك يا ايام الشبيبة يا زهرة الحياة

انشرح في مرأى البدر مستوياً في القبة الزرقاء كملك بين حاشيته راسلاً اشعته المضيئة الى تلك الطبيعة الصامتة فيزيدها رونقاً وجمالاً . هو انيس الشاعر ورفيق الحزين واليف العاشق الولهان الذي يراه شبيهاً لحبيبه فيهفو اليه ويناجيه كل مساء اهواك يا جميل

التذ بمرأى الاطيار تغرد على افنان الاشجار بترانيمها الشجية ونغماتها الموسيقية ويرنحني صوت البلبل الشجي فيهتز فؤادي طرباً وتسكرني نغمات

العود الرقيقة فانخطف بالروح من شدّة الذكرى فيهتف قلبي ولساني معاً اهواك يا بلبل اهواك يا جميل

يمتد طرفي الى ما في هذا الكون الواسع من الجمال الطبيعي الذي يفوق كل وصف ويحير كل لسان فابتهج من جمال الطبيعة وامجد الخالق على نعمه ثم ارفع ابصاري نحو العلاء واسبح في عالم التأملات فيناجيني الضمير ويحدثني القلب اذا كان هكذا جمال الطبيعة يحير الالباب ويبهج البصائر فكيف يكون جمال السماء اهواك يا سماء

اتأمل في مخلوقاتك يا الله وتسرح افكاري في ربات الخدور الناعمة التي يجرح خدودها النسيم البليل ويدمي اناملها لمس الحرير من مزيد اللطف والنعومة فيسلبن اللب ويمتلكن القلب ويجذبن العواطف وما هذا الجمال الا جمالٌ فانٍ وما ربات الخدور الا من بديع صنعك يا الله . فكيف يكون جمالك يا باري . اهواك ايها الجمال الازلي القديم والحديث معاً اهواك يا الله

. . . .

رحلةٌ خيالية اودت بي الى عالم الجمال فرأيت على طريقي كل شيء جميل فتحركت عواطفي وانبهرت ابصاري وهتف القلب بالطبع عند كل مشهدٍ جميل « اهواك يا جميل »

في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٧

سوانح

تفهم الاطفال لغة القلوب والعواطف الصحيحة اكثر مما يفهمه الراشدون فقد لاحظت مراراً انني اذا ناغيت طفلاً بلساني دون قلبي لا يشعر بمناغاتي ولا يكترث بكلامي مهما كان مزخرفاً طلياً واذا ناغيته بروحي الخالصة يهرول اليّ مبتسماً ابتسامته الملائكية وانا لم انبس ببنت شفة و ينام بين ذراعيّ مطمئناً. هو يقرأ لغة البواطن والضمائر لا لغة المجاملات والظواهر

ينام العقل المولد كما تنام الاجسام الحية فعندئذٍ يشعر العبقري في فترة من الزمن بشيء من البلادة فاذا كان شاعراً او كاتباً او مخترعاً او فناناً او مشترعاً فلا يقدر ان يبتكر معنى او يجيد عملاً الى ان تستفيق قواه العقلية من سباتها فيأتي عندئذٍ بالمعجزات. فاذا كبا العبقري في عمل من اعماله تكون كبوته ناشئة عن انجازه العمل في ساعات سبات عقلية لا في ساعات يقظة

ان الشعوب التي تتطاحن في الحروب وغايتها القصوى حب الفتح والسيطرة على الاملاك والارواح ليست بالشعوب التي شعارها الحرية والاخاء والمساواة ولا هي بالشعوب المتمدنة ايضاً بل هي تدعى بحق الشعوب المادية.

وما اكثر تلك الشعوب في هذا العصر عصر المادة واما عصر التمدن الحقيقي فلم يبزغ نوره بعد على العالم

ليس للفلسفة النظرية فائدة تذكر اذا لم تطبق عملياً على الحياة الاجتماعية فاذا تصور مرؤ انه سيبني قصراً من الفسيفساء والمرمر ولم يبنه قط فهل يكون استغل شيئاً من تصوراته الجميلة وحلمه العذب؟ كلا . فابن بيتاً من خشب خير لك من ان تبني في مخيلتك قصراً من ذهب . وازرع قليلاً واحصد افضل من زرع كثير بلا حصاد

يرث المرء اخلاق الاسلاف وعواطفهم وعلومهم كما يرث المال والعقار عن ابيه وجده وهو بدوره يترك للاخلاف كل ما يرث ويجني . ولهذا السبب لم تزل تنمو في عروقنا جرثومة الشراسة التي هي من خلق اجدادنا الاولين الذين كانوا ببيئتهم اقرب الى الحيوان منهم الى الانسان الحالي

ليس الرجل الذي يستندي اكف المحسنين الرجل التاعس بل ذاك الذي يعضه الجوع بنابه ولا تمتد يده للاستجداء شأن كثير من العائلات المستورة التي تقاسي الامرّين من عوزها وبؤسها — فلمثل تلك العائلات يجب ان يلتفت المحسنون وينتبه عمال البر

ليس الرجل الذي يخسر ماله هو الرجل البائس . فالبائس الحقيقي هو

الذي يجمع المال الجزيل نفاقاً واختلاساً فيكون قد باع ضميره وشرفه وهما اغلى من حطام الدنيا ومالها

ليس الفقير المسكين هو الرجل المنكود الحظ بل ذاك الذي خسر عقله لان الانسان يؤثر خسران حياته على خسران عقله فالعقل اذاً اثمن من الحياة

ليس عظماء الاجيال السالفة من نقرأ سيرهم في تواريخ الامم فقط فان هناك عظماء كثيرين عاشوا من اقدم ازمنة التاريخ حتى الان ولم يسعدهم الحظ ان يظهروا مظهرهم الحقيقي فبقيت عظمتهم كامنة في صدورهم مدة حياتهم وفي لحودهم بعد مماتهم

يستغني المرء عن المعايدة شفاهاً في ارسال بطاقات التعييد في البريد كما هي الحال في اوربا واميركا لان ايام الاعياد الكبيرة وجدت لراحة الانسان وهنائه لا لقضائها في الزيارات الرسمية والعيادات المنزلية

وقفت البارحة هنيهةً في ساحة الشهداء اتأمل المارة فرأيتهم يسيرون ذهاباً واياباً على اختلاف طبقاتهم كلٌّ يسعى وراء حاجته فهم والحالة هذه يمثلون عَلَى مسرح الوجود رواية الحياة البشرية بجميع اطوارها

نظرت رجالاً ذوي عمائم منها خضراء ومنها سوداء ومنها بيضاء ورأيت

غيرهم بالكوفية والعقال وغيرهم بطرابيش وقلانس وبرانيط وغيرهم بالبسة افرنجية وعربية وبدوية وشاهدت نساءً سافرات ونساءً محجبات وشاهدت اشكالاً والواناً من الازياء المختلفة نخلت نفسي انني في مسرح (السينما) وشوارع بيروت هي بالحقيقة (سينماء) دائم . ثم تأملت في اخلاق الشرقيين وعاداتهم فرأيتهم يختلفون في بيئاتهم وعقلياتهم كاختلافهم في ازيائهم

الحب على انواع متعددة فمحبة الام غير محبة الزوجة ومحبة الوالد هي غير محبة الولد والشعور بمحبة الانسباء والاصدقاء هو غير الشعور بمحبة الانسانية وهكذا البغض فهو عَلَى انواع متعددة ايضاً فلا يشعر المرء في جميع انواعه كما انه لا يشعر في جميع انواع الحب

ليست القصور الشاهقة والرتب العالية والاموال الجزيلة تقدر ان تغير ذرة واحدة من جوهر عقلية الانسان واخلاقه فمن كان كريم الخلق يحيا كريماً ومن كان لئيم الطبع يحيا لئيماً . وهكذا الاكواخ الصغيرة والمهن الحقيرة فانها لا تؤثر على جوهر النفس فالكبير العقل والخلق كبير بحالتي الغنى والفقر والصغير صغير في كلا الحالتين

ليس كل المفهوم بالاستعمار ان تتولى امة قوية شؤون امة ضعيفة

لامتصاص مواردها واستنزاف خيراتها بل يوجد اساليب عديدة من الاستعمار فالاغنياء وارباب الصناعات والشركات الكبرى يستعمرون الحكومة الان كما كانت طبقة الاشراف تستعمرها من قبل والحكومة بدورها تستعمر الشعب الذي هو ايضاً يستعمر بعضه بعضاً فصاحب المعمل يستثمر العامل والقوي يستغل انتاج الضعيف والانسان يستعبد الحيوان فالحياة الدنيا كلها استعمار واستعباد واستثمار فالويل للضعيف

ان الاختراعات المهمة بقيت مدة طويلة تحت سلطة التعديل والتبديل الى ان بلغت كمالها وهكذا دساتير الامم الراقية فهي حتى الان لم تزل في حالة التجربة قابلة التعديل والتكييف الى ان تبلغ الغاية المطلوبة الا وهي ايصال الانسانية الى مستوى الكمال فعندئذ تزول الحروب وتنتهي المنازعات بين الامم والافراد

كما يزرع المرء في حقله انواع النبات والحبوب والاشجار يجب عليه ايضاً ان يزرع في حقل دماغه بزور الحكمة والاخلاق الطيبة وفي حنايا صدره اغراس الفضيلة والخير فمتى جاء الحصاد يقدر ان يستغل الماديات من ارضه والادبيات من حقل دماغه

متى علم المرء ان الارض التي تنبت البنفسج والرياحين هي نفسها

تنبت الشوك والقتاد يعلم ايضاً انها تأتي بالضدين الهدم والبناء فكما انها هي سبب الحياة فهي ايضاً سبب الموت وكما انها تولد اللذة هي ايضاً تولد الالم

فلا تعجب اذاً من ذاك الذي يهدي اليك شوكاً بعد ان اهداك بنفسجاً ويضنيك حرقة وألماً بعد ان افعمك لذة وحباً فهو كامه الارض يجمع النقيضين

لا رقي راهن ولا تمدن حقيقي في هذا الكون ما زالت الامة الغنية بمعداتها ومالها هي الامة السائدة لا الامة الغنية بخلقها وآدابها

كان الدين هو الحاكم المطلق في العصور الوسطى وكان الرؤساء الروحيون والنبلاء هم الآمرون الناهون

واما اليوم فالحاكم المطلق الذي تدين له جميع الامم والشعوب بلا استثناء ولا تمييز هو الذهب والاغنياء هم الآمرون الناهون

ليس للعقل البشري جسم محسوس بحد ذاته ولكن بوادر اعماله ترى في كل مكان في الكتب — في المناقشات الاجتماعية — في الطيارة السابحة في الفضاء — في الآلات الكهربائية واللاسلكية والصناعية والبخارية — في تدجين الحيوان والنبات — لان كل ما في الطبيعة من علوم وفنون وصناعة هو مظهر من مظاهر العقل البشري

التقيت البارحة باحد المغلوبين على امرهم في ميدان الحياة فابدى لي رأيه في الدنيا قال : انها وادي الدموع ودار الاكدار ومنبع الالام والاسقام ومنبت الشرور والخصام ثم التقيت بعد هنيهة باحد الفائزين في معترك الحياة البشرية فقال: ان الدنيا هي ميدان العمل ومسرح الامل ومهد السرور ومنبت الخير والحبور . فقلت في نفسي : ان الدنيا ليست كما يمدحها الغالب ولا كما يذلها المغلوب لانها لا باسمة ولا دامعة لا شريرة ولا صالحة ولكن الانسان حين يصفها يصف حالته المعنوية لا حالة الدنيا الحقيقية

اخبرني احد المثرين البيروتيين انه كان في بدء شبابه فقيراً فاستطاع بواسطة جده واجتهاده وحسن تدبيره ان يجمع ثروة طائلة وهو يخاف الان ان يبددها اولاده بعد موته فسرد لي هذه العبارة الا تعلم (ان ابن الفقير غني وابن الغني فقير) فاجبته ان السبب في ذلك يتأتى من التربية القائمة على الرخاء والحضارة والانغماس في الملذات والاتكال على الغير في تدبير الاعمال وادارة الاشغال فيصبح ابناء الاغنياء بعد موت الآباء كالنعاج التي فقدت راعيها فاصبحت تحت رحمة الذئاب

فمن رام ان يرى ابناءه اعضاء عاملين في حقل الحياة المفيدة عليه ان يبث فيهم روح التربية الصحيحة الا وهي التربية الخشنة المؤسسة عَلَى العلم والعمل والانتاج لا روح التربية الناعمة القائمة عَلَى الرخاء والدلال والتأنق

ان المرأة التي تعتقد انها تزداد جمالاً في تحمير الشفاه وتخطيط الجفون

وتدهين الخدود في انواع الطيوب والمساحيق لهي المرأة الخاسرة جمالها لان الجمال الحقيقي لا يقوم بالتطرية والتصنع بل بنظافة الابدان وطلاوة اللسان وسلامة الاخلاق والاذهان

ان الكتابة التي تدخل مجامع العقول وتحرك الشعور هي تلك التي تمثل كاتبها تمثيلا صحيحاً وتعبر عن حقيقة وجدانه وشدة عواطفه . واما تلك الكتابات المدبجة عن تجمل وتصنع فلا يشعر بها القراء مهما كانت بليغة لانها لا تعبر عن نفسيات كتابها

مهما كانت المشاكل خطيرة تحل حلاً مرضياً في المباحثات السلمية اذا كان المتخاصمان على شيء من الروية وحسن النية . فالحروب التي ما امكن تلافيها ليس نتيجتها عدم الوصول في المناقشات الى الحقيقة المنطقية بل كل النتيجة هي عدم الوصول الى كبح جماح المطامع والاهواء النفسانية الواقفة سداً منيعاً لعدم الوصول الى الحقيقة الراهنة لفض الاختلافات والمشاكل

اجتمعت البارحة باحد الشيوخ المتشائمين من مستقبل الانسانية فطرح عليّ هذا السؤال : ما رأيك في السلالة البشرية اهي سائرة على طريق الخير والكمال ام هي سائرة على طريق الشرور والمآثم ؟

فاجبته : انها سالكة سبيل الخير وستصل الى مستوى الكمال بعد ان تدوس تحت ارجلها جميع انواع الحروب والمفاسد والمطامع والمكائد وما مثلها الا

مثل مسافر يريد ان يبلغ السهل المنبسط الحاوي على كل ما لذ وطاب ولكن عليه ان يقطع المفاوز والادغال التي تعج عجيجاً بالحيوانات المفترسة وان يتحمل مضاضة الاسفار وشدة الاخطار الى ان يصل الى ضالته المنشودة فعندئذ يلقي عصا الترحال ناعم البال مستريحاً

في هذا العصر قد وجه الناس عقولهم الى المادة فهم يخترعون ويكتشفون كل ما في الطبيعة من القوى الكامنة لاستخدامها في اعمالهم ومصالحهم · فمتى بلغوا شأوهم واصبحت هذه الطبيعة عبدة مطيعة لهم يستثمرونها بلا عناء فعندئذ يرجعون الى اخلاقهم فيقومونها والى اهوائهم فيذللونها فتتطور عقلياتهم وتصفو نياتهم فيصبح الخير قائدهم والكمال رائدهم هكذا اعتقد انها تكون الانسانية في المستقبل البعيد لاني من المتفائلين لا من المتشائمين

لا تتحسن حالة البلاد في تغيير شكل حكومتها بل في تعديل عقلية ابنائها وتثقيف اذهانهم وترقية اخلاقهم · فلبنان كان فيما مضى متصرفية ثم ولاية ثم حكومة مستقلة على رأسها حاكم افرنسي ثم جمهورية يترأسها وطني ولم يزل ينتاب الفقر اهله وتحصدهم المهاجرة ويقتلهم التعصب اذ لا جامعة وطنية تجمع شتاتهم ولا صناعة تحضن عمالهم ولا مشاريع عمرانية تخفف من وطأة عوزهم فقد كان لبنان ولم يزل حكومة الوظائف والموظفين وكفى

السياسيون الذين يستعملون الصراحة في اقوالهم واعمالهم يفيدون ويستفيدون واما هؤلاء الذين ينشدون السياسة المبهمة امثال بعض سواسنا من وطنيين ومنتدبين فيخسرون ثقة الشعب و يوجدون سوء الظن وسوء التفاهم

ليست البطولة محصورة في شعب دون آخر فهي والحق يقال وليدة التربية كالحضارة والعلوم والصناعات المختلفة . وقد تزول البطولة من شعب وتظهر في شعب اخر كما تزول الحضارة من امة وتلتصق بغيرها . فالامم بين طريقين طريق التقدم وطريق التقهقر فاي الطريقين يسلك ابناء الشرق اليوم ؟

في احشاء الامهات وفي احضانهن رجال الغد فلو وصل العلم الى معرفة اخلاق الانسان وهو لم يزل جنيناً او طفلاً لقضت الانسانية في المهد على المساوىء البشرية جمعاء و بلغت مستوى الكمال الادبي الذي طالما تصوره الفلاسفة والمفكرون في حياتهم الخيالية التي ستصبح يوماً ما حياة الواقع . فقد كان الناس يطيرون في عالم الفكر قبل ان طاروا في عالم الحقيقة وان المستقبل كشاف الغيوب

اذا دخلت بلاداً فاكتب حالاً مذكراتك عنها كي لا تفوتك

سانحة دون ان تدونها لان الجديد في عينك اذا الفته لا يبقى جديداً والمشهد الرائع اذا ابصرته مراراً لا يبقى له وقع في نظرك مهما كان جميلاً فتاناً كمشاهدتك له في المرة الاولى

من الف شيئاً مجه واما الانسان اذا الف قرينا يضارعه خلقاً وادباً وصفات فلا يمجه بل يزداد به حباً وشغفاً لان في ازدياد الالفة بين القرينين المتشابهين تتمكن الصداقة و يزداد الوداد واذا كان بالعكس فتنتهي الالفة في الخصومة

ليس الذكاء محصوراً في فئة من الناس دون الاخرى فكل فرد من افراد المجتمع الانساني له قسطه من الذكاء حسب ما تقتضيه مهنته لان لكل مهنة حكمة تديرها لا يعرفها الا الذي يختبرها

ان القلب المعدود عضواً رئيسياً في الجسم البشري الذي لا يحيا بدونه لا يقدر ان يعمل ما تعمله اصابع اليد مع كونها من الاعضاء الثانوية في الجسم لا من الاعضاء الرئيسية · وهكذا العمال وارباب المهن والفلاحون الذين يعدون من الاعضاء الثانوية في جسم العائلة البشرية ولكنهم يعملون في حقلها ما لا يقدر ان يعمله ارباب السياسة والعلم الذين هم رأس المجتمع

الانساني ودماغه المفكر . فالعامل النشيط والحذّاء الماهر والفلاح الخبير كلهم يفيدون الانسانية في اتقان اعمالهم كما يفيدها الحاكم العادل والفيلسوف الكامل

على رؤوس القمم المنفردة عن الناس يعيش الرهبان اللبنانيون في اديرتهم منقطعين عن العالم صارفين حياتهم في الصلاة والعبادة والتقشف لاجل خلاص نفوسهم فهم من العالم في جبلتهم البشرية ولكنهم ليسوا منه في حياتهم الاجتماعية لانهم ولو افادوا نفوسهم في الحياة الاخرى فلا يفيدون الانسانية بشيء في الحياة الدنيا لعزلتهم وانفرادهم

ان رهبان الغد سيكونون غير رهبان اليوم في معيشتهم النسكية حيث لا يقضون حياتهم في عزلة عن الناس ولا يصرفون ايامهم في تكرار الصلاة والتأملات الروحية فحسب بل ينظرون الى الانسانية المتألمة فيضمدون جراحها بمعاملتهم للمرضى ومؤاساتهم الحزانى والمنكوبين ومحاربتهم الفقر والجهل وكل المساوىء البشرية فبهذه الصورة يفيدون نفوسهم في سبيل الحياة الاخرى وتستفيد الانسانية من اعمالهم في الحياة الدنيا

قال لي احدهم وهو من الذين اذا بذلوا المال يبذلونه في سبيل الشهرة والمجد الباطل لا حباً في عمل البر والاحسان : ليس لي حظ من الناس مع كوني اعاملهم بالحسنى واصرف المال جزافاً على ايتامهم وفقرائهم واني ارى

فلاناً وهو من الذين لا يقاس جودهم بجودي وفضلاً عن ذلك يحبهُ الناس
على اختلاف طبقاتهم و يتوددون اليه و يثنون على مكارم اخلاقه و بسطة يده
اليس ذلك من قبيل حسن حظه وقلة حظي ؟ فاجبته كلا ولكن من يبذل
المال لاكتساب الشهرة لا يكتسب قلوب الناس واما هؤلاء الذين يجودون
بمالهم ولو قليلاً حباً بالبر الخالص والفضيلة المنزهة فلا يملكون قلوب الانام
فحسب بل عقولهم وضمائرهم ايضاً

سياسة القرية غير سياسة المدينة وسياسة هذه هي غير سياسة الامة .
فربَّ رجل من كبار سواس الامة وعظمائها يعجز ان يسوس قرية صغيرة
و ينزل عند رضى سكانها . لان لكل بيئة سياسة

يحتاج المرء الى حياة العزلة كما يحتاج الى الحياة الاجتماعية لانه
يستفيد في كل منها ما لا يستفيده في الاخرى . فمخالطة الناس علَى اختلاف
طبقاتهم والاحتكاك بآرائهم وافكارهم واعمالهم امرٌ واجب للرجل العاقل
لفائدته المادية والادبية

وهكذا انفراده عن الناس واجب ايضاً لانه في وحدته يعود الى نفسه
فيقوّم خطأها و يرجع الى عقله فيشغله في ابتكار المعاني الرائعة والافكار اللامعة
وما العلوم والاختراعات سوى وليدة العقل البشري في ساعات الوحدة

حدثني اوربيٌّ قال : الشرق شرق والغرب غرب وهو يعني بقوله

ان المدنية الغربية المرتكزة دعائمها عَلَى العلوم والاختراعات الحديثة لا تنطبق على بني الشرق الذين يؤثرون الخيال على الحقيقة والروحيات على الماديات ولكن فاته ان عقليات الامم تتطور من عصر الى عصر وافكار الناس تتعدل وتتحول في مرور الاجيال والقرون فلن تكون ابداً عقلية الشرقيين في الاعصر المقبلة كما هي الآن واما عقلية ابناء الغرب الحاضرة فلم تكن هكذا في اجيال خلت كما انها لم تبق على حالها الى الابد

ان اوربا حديثة في نظر ابناء الشرق لان البعض من قبائلهم هاجروا اليها منذ اجيال عديدة واستوطنوها وزادوا في عمرانها حتى بلغت من الرقي والحضارة مبلغاً عظيماً ما بلغ اليه الشرق في ايام عزه وازدهاره

واما الاميركان فلا يرون القارة الاوربية حديثة كما يراها الشرقيون بل بالعكس قديمة جداً لانهم الا اقلهم يرجعون في انسابهم الى اقوام خرجوا منها واستوطنوا العالم الجديد واصبحوا الان من جراء تقدمهم ونشاطهم يسابقون اوربا (الوطن الام) في ميدان العلوم والحضارة والصناعات المختلفة كما سبقت اوربا من قبل القارة الاسيوية التي هي مهد الجنس البشري

اذا كان الناس من فطرتهم يختلفون في عقلياتهم واخلاقهم فكيف ينتظر الانسان من اصحابه ومعارفه ان ينزعوا نزوعه في اخلاقه وافكاره وان ينطبعوا في طابعه لا يأتون سوى ما يشاء وما يرغب

فالرجل العاقل الذي يعرف ان يكتسب قلوب الناس ويربح لقب الصديق هو ذاك الذي يعلم تمام العلم ان الناس لم يخلقوا صدى يرددون اقواله واعماله ولا عبيداً لا حرية ولا رأي لهم

حدثني احدهم قال : ان بعض اصحاب المعامل يتسلطون على رقاب العمال كما كان يتسلط احد الحكام السابقين على رقاب الرعية

فاجبته : متى عرف الناس على اختلاف طبقاتهم ان السلطة للاعمال لا للرجال تحل المشكلة الكبرى القائمة بين الامرين والمأمورين والصناع واصحاب المصانع . فالرؤساء الروحيون ورعاياهم والرؤساء المدنيون واتباعهم واصحاب المعامل وعمالهم كلهم تحت سلطة العمل وما الحاكم سوى ممثل للحاكمية العادلة لا لشخصه وهكذا جميع اولياء الامور روحياً ومادياً

الاخوة على نوعين اخوة الدم وهي الاخوة المادية واخوة الكفاية والاخلاق وهي الاخوة الادبية . فكم اناس لا صلة رحم بينهم يتآخون في عقلياتهم واخلاقهم وكم اخوة تجمعهم الابوة والامومة ولا اخاء بينهم في العقول والمبادىء

ان الاخاء الادبي الذي يؤاخي الاذهان هو افضل في نظري من الاخاء المادي الذي يؤاخي الابدان لان الانسان يفضل بذهنه لا بجسده

يعتقد الانكليزي اليوم انه جبل من طينة اسمى من طينة البشر ولهذا

السبب ينظر الى غيره كأنه انقى خلقاً وارقى عقلاً لانه اوسع ملكاً واوفر مالاً واعظم صولة من سائر الشعوب والامم . وهكذا يعتقد الشعب الاميركي ايضاً . ولكن فاتهم ان الرومان بعد ان امتد سلطانهم وقويت شوكتهم ودان لهم المعمور قد تخيلوا تخيلاتهم وهكذا الفرس في عهد الاكاسرة والعرب في عصرهم الزاهر

واما اليوم فلم يبق من مجد الرومان وسلطة الاكاسرة وعظمة العرب سوى آثار متداعية في بعض الانحاء واخبار مسجلة في صفحات الكتب

فليتصفح المغرورون من ابناء الشعوب القوية كتب التاريخ ليروا فيها درساً وعبرة

ان القوة الاكتسابية التي تفرّد بها الجنس البشري عن سائر المخلوقات الحية هي الجسر الذي عبره الانسان للوصول الى الحضارة الراهنة . ومع ذلك ان هذه القوة الاكتسابية العظمى التي اوجدت المعجزات في العلوم والفنون والصناعات المختلفة لم تقدر ان تستأصل شأفة القوى الغريزية من قلوب الناس واذهانهم حتى ان عظماء الرجال وكبار مفكريهم لم يسلموا من غائلة الغريزة التي تظهر بوادرها من حين الى آخر في اخلاقهم واعمالهم

من درس حوادث الثورة السورية منذ انفجارها حتى الان يرى افراداً قليلين ثاروا على السلطة في سبيل الوحدة القومية . واما الباقون فقد الفوا العصابات حباً بالاثراء العاجل عن طريق السلب والنهب لا حباً بالوطنية

الصحيحة لان اصحاب النوايا السيئة يكونون دائماً في الثورات الاهلية اكثر عدداً من اصحاب النوايا الحسنة فاذا قام فرد يخدم المصلحة العامة بصدق خالص ونية صافية يقوم كثيرون من اصحاب الضمائر الخبيثة فيتظاهرون في خدمة المصلحة العامة ولكنهم لا يخدمون الا نفوسهم ولا يرضخون الا لشهواتهم

ان الثورات تتشابه من جميع الوجوه فالثورة الافرنسية التي كانت غايتها القصوى استئصال الملكية المستبدة وجد بين دعاتها من قتلوا الابرياء وكانوا اشد استبداداً من الملوك . وفي الثورة البولشفية كثرت العصابات السلابة واختل الامن وفقدت الراحة في جميع الانحاء الروسية . وهكذا الصين في ثورتها لم تسلم من غوائل العصابات الفتاكة واللصوص السفاكين واما الثورة السورية فقد انسجت على منوال الثورات التي سبقتها فالناس من هذا القبيل يشبهون بعضهم بعضاً لانهم مهما تفاوت مقدار رقيهم يرجعون في ثوراتهم الدموية الى غرائزهم والغريزة واحدة لان العائلة البشرية من طينة واحدة

كان الامير يعرف في عهد الحكم الاقطاعي من حذائه الاحمر وعباءته المقصبة فالشريعة كانت لا تسمح للعامة ان يتزيوا زي الامراء في لباسهم واحذيتهم . واما اليوم فقد تعدلت شرائع الحكومة في تعديل عقلية الامة

ولم يعد للامارة ادنى تمييز . فالاحذية الجميلة الملونة والعبي المزركشة والاجواخ الطيبة يلبسها كل من يدفع ثمنها سواء كان فلاحاً او اميراً

في العهد القديم كان الناس يتخيلون ملوكهم ابناء الالهة ويقدسون اسماءهم واعمالهم . وكان الملوك يعتقدون انهم ظل الله على الارض . ولم يزل حتى الان بعض الرؤساء والحكام يدعون هذا الادعاء . فليعلم هؤلاء انهم اناساً لا الوهية لهم يحكمون بارادة الشعب ويخلعون بمشيئته

ان الامر الغريب في لبنان كثرة وجود حاملي الالقاب التركية وتعلقهم بها . والامر الاغرب من ذلك ان شمس الدولة العثمانية قد غربت عن ربوع لبنان ولم تأفل شمس القابها بل بالعكس زادت اشراقاً ولمعاناً . لان تلك الالقاب اصبحت ارثاً يتوارثه الابناء والاحفاد . فقد اخبرني احد (البكاوات) انه لم يرث من ابيه سوى لقبه وهو والحق يقال ارثٌ خالد ولكنه لسوء الحظ لا يفيد حامله شيئاً

كان الناس سابقاً يعتقدون ان لا ابهة ولا عظمة الا في الملك والسيادة لانهم كانوا يتهيبون ملوكهم واسيادهم وينبهرون في قصورهم الفخمة وعروشهم المرصعة وتيجانهم اللامعة واما اليوم فلا يرهبون سوى القانون ولا ينبهرون الا في الاعمال الخطيرة المدهشة التي هي عنوان الابهة والعظمة لا السيادة والملك

لا يخلو المرء في حياته من المتاعب البشرية لانها تصاحبه اينما حل .

فالناسك يشعر بها في صومعته والفلاح في حقله والمنشىء يراها في مكتبهِ وفي عالم خياله والفيلسوف يشاهدها بين دفاتره واقلامه والطبيب يتخيلها في مختبره والفقير ينظرها في فقره والغني في ماله وحطامه . فالحياة الانسانية تتركب اجزاؤُها من ذرات عديدة من الالم والشقاء والمشاغل الفكرية ومن ذرة واحدة من الامل . فالرجل العاقل هو ذاك الذي لا يخسر امله مهما اشتدت عليه النوائب و كثرت المصاعب

ان المنشىء الذي ينحو نحو غيره من حملة الاقلام يدعى رصافاً لا منشئاً والشاعر الذي يعجز عن الابتكار معنىً ومبنىً يدعى ناظماً لا شاعراً . واما ابلغ المنشئين فهو في نظري ذاك الذي يرسم روحه ووجدانه في نثره وشعره لا روح من تقدمه من الكتبة والشعراء ولا اخلاقهم ووجدانهم

ان اطباء الابدان الذين يجهلون علل مرضاهم يعالجونهم دائماً في تغيير الادوية والعقاقير لعلهم يحصلون على نتيجة . ولكنهم لسوء الحظ لا يشفون بهذه الطريقة الا واحداً من مئة . فليحذر الناس هولاء لانهم اطباء موت لا اطباء صحة

ان اطباء الارواح الذين يعجزون عن شفاء نفوسهم المريضة لا يقدرون ان يشفوا نفوس غيرهم بل بالعكس ينقلون جراثيم العدوى الى ذوي الارواح

السليمة فيتلفونها كما تتلف الثمرة المهترية جميع الاثمار التي حولها · لان الفساد لا ينتج طهراً بل فساداً والعوسج لا يجني عنباً بل شوكاً

سألني احد الادباء كيف اكتب ؟ فاجبته الاحظ جيداً ثم اكتب · وما سوانحي الا مجموعة ملاحظات ادونها في خلوتي بعد ان استخلصها من الطبيعة الصامتة ومن اطوار الناس واخلاقهم

لم ارَ مصلحة تؤَدي الى الفقر مثل الوظيفة فالمأمورون في لبنان كانوا من ابناء البيوت المثرية فاصبحوا الا اقلهم لا يملكون شيئاً · لان الوظيفة قد استنزفت مالهم وعقارهم وفضلاً عن ذلك جعلتهم عبيداً ارقاء لها لا يقدرون ان يكتسبوا رزقهم بدونها ولا ان يأتوا عملاً سواها · فليفقه المغرورون ان العبودية والفقر هما نتيجة الوظائف

من طيات الليل الحالك ينبلج نور الصبح ومن ظلمة الموت تنفلق اشعة الحياة ومن ادمغة الشعوب الخاضعة لنير العبودية ينشأ العصيان وتتولد الثورات الهائلة التي تدك العروش وتبيد الحكام الظالمين

كل ما في الطبيعة يمثل الحياة والموت فهما اخوان لا يفترقان يراهما المرء في المدن والقرى وفي الحقول والجادات وفي كل مكان حتى البيت فهو لدى اللبيب المفكر يمثل الحياة والموت تمثيلاً واضحاً فتبدو الحياة في

شخص ساكنه وفي حيوانه الداجن و يظهر الموت في اثاثه ورياشه وفي الحجارة التي قطعت من مقالعها لبنائه

فالامر الغريب في الجنس البشري انه يرى الموت ماثلاً امامه في كل لحظة من لحظاته ومع ذلك لم يزل يتخيله مخيفاً مرعباً لا امراً طبيعياً بسيطاً

لا يعلم ما هي لذة حياة الفلاحين سوى الذي يعيش بين ظهرانيهم ويرافقهم في حقولهم · ففي اوائل الاسبوع الماضي ذهب احد التجار برفقة فلاح الى حقله المملوء من اغراس الزيتون والتين والعنب · وكانت الاشجار نامية جداً ومنحنية اغصانها الى الارض من كثرة حملها · فملأ الفلاح سلته تيناً وعنباً ودعا التاجر الى ثمره فاكل ما لذ له وطاب

و بينما الفلاح يرسل نظره في حقله الجميل ووجهه يطفح بشراً وحبوراً قال لرفيقه التاجر : منذ عشرين سنة قد غرست هذه الاشجار وفي كل عام افلحها مراراً واقطع اليبس من اغصانها واضع العمارة تحت جذوعها ولهذا السبب هي كثيرة الغلة والنتيجة كما تراها

فهزأ التاجر به ولم يشعر في لذته وكثرة غلاله لان يومه يعادل عام الفلاح

واما انا فلو رافقت صاحب الحقل لشعرت شعوره لاني غرست بعض اشجار الفاكهة وفي كل مرة اشاهد نموها او اقطف من اثمارها اشعر بلذة غريبة لم اشعر بمثلها حين كنت تاجراً اربح المئات والالوف

اذا احببت ان تمتحن امرءاً فاذكر له هفواته فاذا تمعن بها بتؤدة واجابك بلطف وبشاشة فاحكم انه راجح العقل كثير الاكتساب واذا ظهرت عليه دلائل الانزعاج والغضب فاحكم انه قليل الاكتساب لاغتراره بنفسه واعتقاده العصمة والكمال

ان افضل الفضائل البشرية معرفة الانسان نفسه واقبح القبائح الغرور بالنفس

ان الطيارات قد قرّبت المسافات بين الامم البعيدة وستحل قريباً محل السفن والسكك الحديدية في نقل المسافرين وشحن البضائع لانها تجوب الافاق بسرعة مدهشة · وستصبح الكرة الارضية في القرن المقبل كانها امة واحدة لان الطيارة ليس فقط ستكون حلقة الاتصال بين جميع الامم والشعوب بل ستصبح ايضاً من اشهر العوامل الراهنة لامتزاج الشعوب بعضها الى بعض وايجاد التقارب بين جميع الامم في الحضارة والعلم وفي العادات والاخلاق

كلٌ يشتغل في هذا الكون لمنفعته الخاصة فالفلاح يزرع ارضه ليستغلها والتاجر يفتح مخزنه ليجني المكاسب · واما الاديب فهو الوحيد الذي يستقطر عصير دماغه ويستخرج قواه الروحية لفائدة الانسانية جمعاء لا لفائدة نفسه · فهو والحق يقال اكثر الناس جوداً لانه يجود بكلما لديه من الادب الجم الذي لا يفنى على الناس اجمع لا علَى فئة منهم كما يجود كرام الاغنياء بفضلات اموالهم الزائلة

تخاصم رجل وامرأته لسبب بسيط وكان نزقاً غضوباً فبلغ منه الحنق والغيظ مبلغاً عظيماً الى ان رمى الى الارض طفله الذي كان بين ذراعيه وانتزع الاوراق المالية من جيبه ومزقها ولما عاد الى رشده بكى ولده بكاءً مراً وندم على خسارة ماله ندماً عظيماً ومع ذلك بقي وحشي الطباع يفعل افعالاً شائنة حين ينتابه الغضب وتمتلكه الحيرة

ان الرجل الذي لا يقدر ان يملك عنان نفسه في ساعات انزعاجه ويسترسل بكليته الى الغضب لا يكون ابداً من ذوي الارادة القوية والخلق المتين ولا من اصحاب العقول الراجحة

ان الفلاح الذي يحصد غلاله في الصيف ويجمعها في اهرائه موؤنة للشتاء يشبه الرجل العاقل الذي يدخر من قوة الفتوة وعمل الشباب مايكفيه موؤنة الشيخوخة واما الفلاح الذي يبدد غلاله في الصيف ويتضور جوعاً في الشتاء فهو كالجاهل الذي يصرف قواه المادية والادبية في ايام شبابه ولم يذخر شيئاً لمشيبه

فكم اناسٍ شاخوا قبل اوانهم من جراء طيشهم وافراطهم وقاسوا الفقر والهوان في اواخر حياتهم وكم شيوخ بلغوا الثمانين من عمرهم وما زالوا في سعة من العيش يتمتعون بصحة الشباب ونشاط الكهولة لانهم لم يصرفوا جناهم ولم يفرطوا في صباهم

يبتدىء شباب الجسم في العشرين وشباب العقل في الخمسين واما اكمل

الرجال فهو الذي يجمع في العشرين بين شباب العقل وشباب الجسم ويحافظ على كليهما في الكهولة والشيخوخة

ما اصغر عقل الرجل الذي يعتقد ان الارض خلقت لاجله ٠ الا يعلم انه يوجد فقط من انواع الطير ما يزيد ملايين الاضعاف عن بني جنسه ٠ ومن الحيوانات والهوام والحشرات ما يربو بلايين بيلايين الاضعاف ايضاً وكلهم تحضنهم الارض وتغذيهم وتجود عليهم بالماء والهواء

فالارض اذاً خلقت للجميع فهي للانسان كما هي للحيوان وللنبات كما هي للجماد

مسكين الرجل الذي لا يفتكر الا بالموت ولا يتخيل سوى عزرائيل آتياً لاختطافه فهو يعيش مائتاً ٠ واما الرجل الذي يفتكر في تحسين حياته وتخفيف متاعبه ويعتقد الموت رقاد ليل ينبثق منه فجر الحياة الاخرى فهو يعيش حياً ويموت حياً

ان قطيع الغنم الذي يهرب من وجه الذئب المفترس يحتمي بالناس ويأنس بهم ولو كان للقطيع ذرة من العقل لعلم ان اعدي اعدائه هو الانسان لانه اشد افتراساً من الذئاب ٠

فكم من الناس الذين يشبهون قطيع الغنم يهربون من شر صغير ويستسلمون بكليتهم الى شر اكبر

من كان في شك ان الدنيا فريسة الشاطر فليقرأ سيرة موسوليني المتسلط الايطالي ومصطفى كمال التركي وشاه العجم الحالي وروكفلر وفورد وامثالهم فيراهم جميعاً من ابناء الطبقة الفقيرة وقد اصبحوا من جراء نشاطهم يشغلون اعظم المراكز العالمية

فلا تقنطوا ايها الناس ولا تيأسوا اذا كنتم حتى الان لم تصادفوا نجاحاً يذكر وثابروا على اعمالكم تنجحون فهنري فورد كان في بدء كهولته لا يملك شيئاً يستحق الذكر فاصبح بعد ذلك من اغنى اغنياء العالم

ان الزحافات الكبرى، التي كانت تعيش منذ الاف السنين قد انقرضت عن سطح الارض ولم يبق منها سوى آثار متحجرة تدل على وجودها واما الانسان فلا خطر عليه من الانقراض كالزواحف لانه قاوم عناصر الطبيعة وتغلب عليها حين كان همجياً يعيش في الغابات والمغاور وليس لديه ما يقيه نوازل الحر والبرد وغارات الوحوش المفترسة . فكيف به اليوم وقد اصبح العقل يدير دفة حياته فيستخدم الطبيعة حسب اهوائه و يسخرها في جميع حاجاته

ان عمر الانسان على الارض سيكون طويلاً لا يفنى الا اذا فني النبات وزالت من الارض الحياة

اذا قسنا مقدار عقل الجنس البشري في الجيل التاسع عشر بما تركه من آثار الحضارة والعلم والاختراعات الجليلة وقابلناه بعقول الاجيال

البشرية السابقة لرأيناه يفوقها جميعاً . فاذا بقي التقدم الانساني مطرداً في القرون المقبلة نظير القرن الماضي فكيف يكون العالم بعد مرور عشرة اجيال ؟

ان الناس سينتقلون من كوكب الى كوكب بسرعة مدهشة كما يطيرون الآن من قارة الى قارة اذ انه لا مستحيل عَلَى الانسان بعد ان اوجد الطيارة والاثير وسائر الاختراعات المدهشة

ان العلوم والفنون والصناعات يزداد عددها وانواعها مع توالي الاعوام والعصور فلم يكن فن الطباعة موجوداً في العصور الوسطى ولا علم الطيران معروفاً في القرن الماضي وهكذا صناعة السيارات والدرجات والآلات الهاتفة لم تكن موجودة ايضاً . فكم يخبىء المستقبل في طياته من انواع العلوم والفنون والصناعات المختلفة التي يجهلها ابناء هذا الجيل ؟

ان احفادنا ليس فقط سيحققون احلامنا وتصوراتنا الجميلة بل سيصلون في علومهم ومعارفهم الراهنة الى ما فوق تخيلاتنا واحلامنا

كما ان الجسم البشري لا يحيا بلا غذاء ولا رداء هكذا الذهن لا يصفو بلا مطالعة ولا تفكير . فمن رام تغذية عقله فعليه ان يقرأ و يفكر كما يأكل و يلبس

ان القمح المخزون في بيتك يمثّل عملاً من الاعمال الجسدية والكتاب

الذي تتصفحه يمثل عملاً من الاعمال الذهنية . فلا القمح ولا الكتاب يأتيانك عفواً ايها الانسان

من تأمل في سكان الولايات المتحدة يرى انهم خليط من امم شتى متباينة الدم والاخلاق والمشارب . ومع ذلك قد امتزج بعضهم ببعض امتزاجاً كلياً واصبحوا كتلة واحدة تحت راية الخطوط والنجوم لانهم لا ينظرون الى الفوارق الدينية كما ينظر السوريون ولا يرجعون الى اصولهم وانسابهم كما يرجع ابناء الضاد بل يبذلون جهدهم لاسعاد وطنهم الجديد دون سواه

ان الرزق الذي ينتقل من يد الى يد عن طريق الارث يكون في الغالب مهملاً لان صاحبه لا يهتم في تحسينه الا نادراً واما الرزق الذي ينتقل من يد الى يد عن طريق الشراء فيزداد اتقاناً وتحسيناً لان الشاري بعرق جبينه يلتفت الى ملكه غير التفات الوارث عرق جبين ابائه واجداده

ايها الناشئون كونوا في الغد من الشارين المجددين لا من الوارثين المهملين

ان القارة الاميركية التي ليس فيها حكومات ملكية تحوي عدة ملوك . لان المستولي على اكثرية المعادن الحديدية يلقبه الشعب الاميركي ملك الحديد والمالك معظم الينابيع الزيتية يدعى ملك الزيت وهكذا سائر المعادن والصناعات المختلفة لها ملوكها حتى الالعاب الرياضية والاشباح المصورة ايضاً

يوجد فرق عظيم بين ملوك العالم القديم وملوك العالم الجديد فالاولون هم ملوك العروش والتيجان واما الاخرون فهم ملوك المشاريع الخطيرة والاعمال الجليلة

ان الرجل الناجح في اعماله هو الذي يعرف ان يدرس نفسه جيداً ثم يعين طموحه ليكون على بصيرة في توجيه قواه نحو العمل الذي يناسبه

واما الرجل المتردد الذي يحترف المهن العديدة فيشتغل تارة في الصحافة وطوراً في السياسة واحياناً في التجارة فلا يكون ابداً من الناجحين مهما كان مقدار علمه وذكائه . لان النجاح والتردد لا يتفقان

في ١٢ ايلول ذهبت لحضور حفلة تدشين الكنيسة المارونية في عاليه فرأيت الناس على اختلاف طبقاتهم يملأُون الهيكل . وقد اتوا من جهات عديدة لحضور الذبيحة الاولى التي تقام في هذه الكنيسة ليضموا صلواتهم مع صلوات رئيس الاساقفة والكهنة

ان بعض المفكرين يعتقدون ان الدين اصبح في طور الهرم ولم يعد له القوة المعنوية التي كانت له في العصور الماضية ، فهم على ضلالٍ مبين فاجتماع الناس من كل صوب وحدب في هذه الكنيسة والمجمع القرباني الذي حدث مؤخراً في شيكاغو حيث كان الناس مزدحمين بالالوف حول الاساقفة لهما من اعظم الشواهد على ان الدين لم يزل في ميعان قوته ونشاطه يمشي مع الحضارة والعلم جنباً الى جنب

ان مصطفى كمال الرئيس التركي وكايس الرئيس المكسيكي كلاهما يريد التجدد في قومه . فالاول ينهي اتباعه عن لبس الطربوش والعمائم والاردية الشرقية ويأمرهم بالسفور ولبس القبعات والتفرنج والثاني يسعى الى الغاء المدارس الدينية واقفال الاديرة واستلام الاملاك الكنائسية وقد اقصى عن بلاده القاصد الرسولي وسائر الكهنة الاجانب لعدم رضوخهم الى القوانين الجديدة

فلا مصطفى كمال ولا كايس يقدران عنوة على ازالة التقاليد الدينية ما زال الشعبان التركي والمكسيكي متعلقين شديد التعلق في اهداب الدين وتقاليده الموروثة . فالاضطهاد لا يقضي على الدين بل يزيده قوة ولمعاناً وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك

في لبنان مناظر طبيعية عديدة فتانة منها شاغور (حمانا) فقد زرته مؤخراً ورأيت الماء ينساب من مخرجه الطبيعي ثم يكوّن شلالاً رائعاً تنحدر مياهه الى المقاهي القائمة عَلَى جانبه الايمن ثم ترجع الى مصبها لانعاش وادي حمانا الجميل

ان الناس الذين وقعت عيونهم على ذلك الوادي يعدون بالالوف ومع ذلك لم يجل في خاطري سوى الشاعر الافرنسي لامرتين الذي زار تلك البقعة في عهد الحكم الشهابي ومتع طرفه في مناظرها الفتانة ثم صاغ لها من درر نثره وشعره قلادة لا تفنيها عوادي الزمان . ان الاثر الخالد يولد الذكر الخالد

من يزور لبنان للمرة الاولى يرى المنازل الجميلة المشيدة في القرى والمزارع ويشاهد الناس في فصل الحر ينتقلون من الارياف الى المصايف القائمة في اعالي الجبال ويختلفون الى المقاهي والفنادق ويقيمون المراقص والملاهي المتنوعة في البيوت والاندية العمومية فيخال الشعب اللبناني من اوفر شعوب الارض ثروة ورخاء . ولكن من يطيل الاقامة في تلك الربوع تتجلى له حقيقة الحال حيث يسمع شكوى الفلاحين والمزارعين وانين العمال والمستخدمين وتنهدات التجار وارباب المهن وزفرات الصحافيين والمحامين . كلهم يشكون الضائقة المالية ويتذمرون من سوء الحال

ولكنهم مع ذلك لا يتذمرون من نفوسهم حين يبذلون في الاشياء الكمالية فوق مجهودهم لانهم يجهلون فضيلة الاقتصاد

—————

ان الملك البلجكي وجميع افراد العائلة المالكة يأكلون الخبز الاسمر ويقتصدون في سائر نفقاتهم اسوة بالشعب البلجيكي لاجل انهاض البلاد من عثرتها . هكذا تفعل جميع الامم الغربية عند وقوع الازمات فهل يتعلم الشعب اللبناني وكبار موظفيه تلك الامثولة ويقتصدون في نفقاتهم ليخففوا عن الامة ويلاتها ؟

—————

ان معظم اللبنانيين العائشين تحت سماء الوطن يشتغلون فقط ليربحوا كفاف يومهم هذا اذا لم يتكلوا على اموال المغتربين من اخوتهم وانسبائهم لسد نفقاتهم لانهم يتبعون المثل السائر (القناعة غني)

ولكن فاتهم ان الحياة بلا طموح كالجسم بلا روح

ان الجرائد الاوربية قد انحت بالائمة على الحكومة الكمالية لتنفيذ حكم الاعدام على جاويد بك المعدود نابغة الترك في علم الاقتصاد وقد تبوأ نظارة المالية سابقاً وله الخدمات الجلى تجاه مواطنيه وقد أُعدم لدخوله في المؤامرة المدبرة لاغتيال رئيس الحكومة التركية

ان الغربيين يقدرون النوابغ حق قدرهم سواء كانوا يعتلون رؤوس المجالس ام اعواد المشانق

ان نابليون نابغة الحرب بعد ان اجتاز جبال الالب الوعرة المسالك والمكللة بالثلوج واجتاح البلاد الايطالية اراد ان يحذف كلمة مستحيل من قاموس اللغة الافرنسية. ولكن لم يقدر ان يحذف تلك الكلمة من ادمغة اعدائه المغلوبين على امرهم لانهم كانوا يعتقدون ان من المستحيل بقاء النسر الافرنسي فائزاً في كل حروبه رغماً من انتصاراته الباهرة ونبوغه الحربي الفائق وهكذا كان . فقد قهره الاعداء في موقعة واترلو وقضى نحبه في منفاه بعيداً عن اهله ووطنه

ان الاقوياء الذين لا يقدّرون العواقب يقعون غالباً في شرك الضعفاء

اذا كان الرجل العبقري عظيماً في حياته يكون اكثر عظمة بعد مماته. وذلك لسببين: اولاً لان الاجيال المقبلة تقدّر نبوغه اكثر من معاصريه الذين

ينظرون اليه باعين مملوءة حسداً وغيرة وثانياً ينسب المؤرخون عادة الى العبقريين اعمالاً عديدة لم يعملوها واقوالاً مأثورة لم يتفوهوا بها

فعظمة الرجل تكون غالباً في حياته دون استحقاقه وبعد موته فوق ما يستحق

ان المياه المتساقطة في فصل الشتاء والمخزونة في قلب الارض لاجل احياء الينابيع الصيفية وري الحقول والمزارع تشبه الرجل الكريم الذي يكتسب الاموال الجزيلة ويستثمرها في المشاريع العمرانية لينتفع وينفع الناس بها واما المياه المخزونة في جوف الارض والمنحدرة رأساً الى البحر دون ان تظهر على وجه البسيطة لاجل الانتفاع تشبه الغني الذي يخزن الاموال الطائلة في الصناديق الحديدية ثم ينحدر الى القبر دون ان يمسها او ينفع بها

فمن اي فئة تريدون ان تكونوا ايها الاغنياء

في الاحصاء الاخير الذي اجرته الولايات المتحدة ظهر ان في السنوات الاخيرة زاد عدد سكان المدن زيادة عظمى بينما القرى والمزارع نقص عدد سكانها · وهكذا حدث ايضاً في معظم الممالك الاوربية · لان المدن بما فيها من انواع المهن والعلوم والصناعات والملاهي والمسارح تجذب انظار الناس اليها

ولكن اذا اخلى الناس حقولهم ومزارعهم وتركوا المعيشة القروية وانصرفوا جميعهم الى المدن فكيف تتوفر لديهم الغلال ومن اين تأتيهم الاقوات ؟

ان الامة الرشيدة التي تتدبر العواقب تهتم كل الاهتمام في تحسين حالة القرويين وايجاد راحتهم لاجل بقائهم في مزارعهم للاشتغال في حقولهم لان عمران القرى والمزارع اقرب الى سعادة الامة ورفاهيتها من تضخم المدن وعمرانها

كيف كان ينظر العالم الى نابليون لو مات على اثر انتصاراته العظيمة وفوزه الباهر على الممالك الاوربية المتحدة . لكان دعاه بعض الناس اله الحرب والبعض الاخر لتكهن عنه انه لو عاش عمراً طويلاً لملك العالم باسره ومما لا ريب فيه انه كان اكثر عظمة مما هو عليه الان

كثيرون من النوابغ يخسرون قسماً من عظمتهم في اطالة حياتهم وكثيرون غيرهم يفقدون عظمتهم الحقيقية من جراء قصر اعمارهم

ان الانسان قد اكتسب علم الطيران من الطيور لانه تقلدها حين اوجد طيارته وركب متن الرياح واكتسب منها ايضاً حب الاسفار والانتقال لانه كان يرى الطيور تنتقل من الشرق الى الغرب في طيرانها قبل ان فكر في اجتياز الاقطار وركوب الابحار

ان الانسان لا يكتسب فقط من اخيه الانسان بل من جميع مخلوقات الطبيعة التي هي بمثابة كتاب مفتوح لكل من يريد الدرس والاكتشاب

المرأة اذا احبت فهي كالنعجة واذا ابغضت فهي كالذئب الخاطف

الالم من دلائل الحياة والسكون من دلائل الموت

الشيخوخة هي افضل من الشباب لان بالشباب نشاط المادة وبالشيخوخة نشاط الروح . والروح هي افضل من المادة

الشرف والحب نقيضان فمن ضحّى حبه في سبيل شرفه نصره عقله ومن ضحى شرفه في سبيل حبه نصره قلبه

لا تحب احداً حباً زائداً لان آفة الحب الزائد سوء التفاهم والبغض

لا تهتم بما لا يهمك . ولا تظهر للمرء هفواته او هفوات احد عائلته لفرط حبك له لان بذلك تتنافر القلوب وينقلب الحب الى بغض

كن حليماً سموحاً فاذا نظرت بعض الخلل اغمض طرفك كأنك لم تبصر شيئاً واذا نظرت حسناً فتهلل واظهر بشرك

لا تغر على مصلحة احد دون ان يستنجد بك ولا تدخل مع ربّ عائلة بأموره العائلية ولو كان اخاً لك او نسيبك او اعز اصدقائك

شاب على فراش الموت (١)

لهفَ قلبي لقد تراءى حِمامي | يا حياتي عليكِ ألفَ سلامِ
يا أمانيَّ إذهبي لا تعودي | قد دنا الموتُ وانقضت ايامي
أين ماضي الحياة بين هناءٍ | وحياة الورى كطيف منامِ
اين عزم الشبابِ بعد سقامٍ | هدَّ عزمي الضنى ومرُّ السقامِ
اين من همتُ في هواهم طويلاً | ورضاهم قد كان جلَّ مرامي
هل تراهم يشفون جسماً نحيلاً | أوَ يجدي ذا الانَ فرط هيامي
أين مجد الدُّنى وكلُّ غِناها | أيُّ مجدٍ يعزُّ بعدَ حِمامي
أين أهلي وأين صحبي جميعاً | أين عهدُ الوفا وأين ذمامي
مَن ترى قاسمَ الفؤادَ شقاءً | من ترى قد أزال من الآمي
ساعةُ الموتِ قد دنت سوف أُمسي | بعد حينٍ أمامَ ربِّ الانامِ
سوفَ ألقي عن الذنوبِ قصاصاً | اه وا لوعتي على الا ثامِ
غير خيرِ الاعمال ماليَ عون | أين نفع الهوى وخير الغرامِ

⁂

ههنا بهجةُ الحياة ثولت | ههنا قد تبدَّدت احلامي

---

(١) نظمها المؤلف وهو تلميذ في مدرسة الحكمة واثبتها في كتابه تذكاراً للايام المدرسية

وهنا الوهمُ قد تجلىّ امامي ظاهراً لي على فراش الحمامِ
ايها الناسُ لا تغرُّ حياةٌ ان هذي الحياة كالاوهام
إنني كنت في أُبتداء حياتي وابتداء الحياة أمسى ختامي
قد اتتني المنونُ تقرعُ بابي مذ جرى حكمُ خالقي المتسامي
وجنتني ويلاه ذا الان زهراً يانعاً مذ تفتحت اكمامي
يا أحباي بعد موتي اندبوني وأُذرفوا الدمع مثل هطل الغمام
علَّ تلكَ الدموع تؤْنس صباً قد توارى في موحشات الظلام

⁂

قد دنا الموت إنني في أُرتعاشٍ هوذا الموت قد تراءى أمامي
فوداعاً يا والديَّ وداعاً ذا وداعُ الارواح للاجسامِ

في كل منبسطٍ نلقي مراسينا

نظمها المؤلف على اثر عوده الى الوطن والقاها في الحفلة الوداعية التي اقامها له ادباء الجالية السورية — اللبنانية في عاصمة المكسيك نهار السبت الواقع في ٢٩ ايلول سنة ١٩٢٣

لبنان والمغتربون من ابنائه

لا الرزق في تربة الاوطان يغنينا ... ولا توطن ارض الغير يرضينا

في اربع الاهل بؤس العيش يؤلمنا ... وفي المهاجر نار الوجد تكوينا

لو ان لبنان فيه العيش منبسطٌ ... لما ابتغينا نزوحاً عن اراضينا

ما في البلاد مشاريعٌ معززةٌ ... تحيي البلاد بانتاجٍ وتحيينا

ولا المعامل للعمال كافيةٌ ... ولا الزراعة في لبنان تكفينا

داء التغرب من بؤسٍ ومن عوزٍ ... في موطن الارز قد اعيى المداوينا

فلا النسيم بليلاً فيه يشبعنا ... ولا القراح رسيلاً فيه يروينا

هبوا بني وطني فالارض واسعةٌ ... وما المغاني التي اعتلت مغانينا

الى الرحيل الى ارض الجهاد الى ... ارض النشاط ففيها الجد يشفينا

...

فنحن قومٌ اذا ضاقت مواطنهم ... في كل منبسطٍ نلقي مراسينا

لا نترك اليأس يسري في مفاصلنا ولا ننام على ضيم فيؤذينا
في البر في البحر قد سارت ركائبنا في الشرق في الغرب قد حلت جوالينا
رحنا ولا عدّةٌ الا عزائمنا ولا وسيلة رزقٍ غير ايدينا
ونحن في كل قطرٍ من مهاجرنا تبسمت عن ثناياها امانينا
قامت متاجرنا في كل حاضرةٍ وناطحت جبهة البازي مبانينا
وادركت شأنها العالي صحافتنا وهيجت صبوة السالي قوافينا

...

اجدادنا قبلنا سارت ركائبهم في كل قطرٍ وقد كانوا المجدينا
فن الملاحة من اوضاعهم وهمُ قد لقنوا الناس هذا الفن تلقينا
وفي الصناعة كانوا من ايمتها وفي التجارة قد كانوا اساطينا
فالشرق والغرب والافاق قاطبة كانت لابناء (لبنان) ميادينا
مهما تبدلت الايام وانقلبت فنحن اخلاف اقوامٍ دهاقينا
صلنا على محن الدنيا بهمتنا وطبقت ثبج الدنيا مساعينا
ما اجمل المال ميسوراً لصاحبه ان كان بالعلم والآداب مقرونا
ما اقبح المجد موروثاً واحسنه بالعزم مكتسباً بالرأي مرهونا
ما اطهر الماء يجري في جداوله والماء آسنه ما بات مسجونا

...

في بقعة الشرق لا علمٌ يهذبنا ولا نظامٌ من الفوضى ينجينا
لو قام من قبره المأمون منبعثاً ما عاش يوماً بظل الشرق مأمونا

وهو الحكيم الذي في عهد بيعته ... قد اكمل الشرق تنظيماً وتمدينا
وعمم العلم في اطراف مملكة ... شماء تنبئنا عن مجد ماضينا
في ذمة الدهر بات الملك مندرساً ... وفي الثرى بات مجد العرب مدفونا
كانت معارفنا للغرب هادية ... والان امست علوم الغرب تهدينا
الناس في الغرب يبنون القصور لهم ... والناس في الشرق للاكواخ يأوونا
هم حطموا قيد جهل في تقدمهم ... ونحن في دركات الجهل لاهونا
يحمون موطنهم في جحفلٍ لجبٍ ... ونحن لا جحفلٌ في الشرق يحمينا
العلم والفن والاعجاز ديدنهم ... ونحن في شرّة الاهواء لاهونا
افعالهم تعجز العقل الكبير وهم ... للناس عن معجزات الكون يروونا
جادوا بكل عجيب من عجائبهم ... وبالغرائب ما زالوا يجودونا
هم الاولى اكتشفوا سر الاثير وهم ... بالكهرباء وبالرديوم جاؤونا
قد غير الغرب وجه الارض في عملٍ ... وزين الكون بالافعال تزيينا
والان لو بُعث الموتى لما عرفوا ... اديم ارضٍ بها كانوا يعيشونا

...

ابناء لبنان هبوا من رقادكم ... واستيقظوا فلقد طالت ليالينا
فما الفخار بشعبٍ خامل وهنٍ ... ولا الوقار لابطالٍ ينامونا
يا سائلين بنيكم عن ابايهم ... ابناؤكم من منائيهم يجيبونا
ما زال في الشرق اديانٌ تفرّقكم ... فاتهم في ربوع الغرب باقونا
غداً سيندرج الابناء قاطبةً ... في كل شعب ومهد الارز يسلونا
غداً سيسقط ما في الكون من دولٍ ... والناس للوفق والتوحيد ساعونا

ويصبح الناس طراً عيلةً ولها راعٍ وحيدٌ يسوس الارض ميمونا
ما المستحيل لخلقٍ بعد ما ركبوا متن الرياح وقد بزوا الشواهينا

...

مكسيك يا وطناً يحيا الغريب به محصناً عن عوادي الدهر تحصينا
قطعت عهد شبابي استظل به فما تعرفت فيه ترحتي حينا
ارجو لمكسيك عمراناً وتكرمةً ارجو لها النصر بالاقبال مضمونا
اني سأتركها والقلب منشطرٌ واترك الصحب فيها والمحبينا

...

قل للاحبة لو اصبحت منتئياً عنكم فلستم عن الاذهان نائينا
ان كان بيني وبين الناس معرفةٌ فهم ببالي وفي قلبي يظلونا
فكيف انسى احباءً اعزهمُ وفي فؤادي واجفاني مقيمونا
متى بلغت الحمى من بعد فرقتكم ابث لبنان عنكم ما تبثونا
هناك اجدادنا في عيشهم سكنوا هناك بين جذوع الارز ثاوونا
هناك اهلٌ لنا يرجون عودتنا فهل ينالون منا ما يرجونا
في المهجر نقضي بلا اهلٍ ولا وطنٍ وهم بلا رؤية الابناء يقضونا

...

من اشهر قد فقدنا (الام)[1] في وطنٍ محروقة كبداً حتى تلاقينا

---

(١) قضت والدة المؤلف نحبها في ٨ شباط سنة ١٩٢٣ وكان ولداها توفيق وطانيوس في ديار الغربة بعيدين عنها

تلك الحزينة من وجدٍ ومن شغفٍ   على فراش الردى كانت تناجينا
اريد اغمض جفني بينكم فانا   عليلةٌ هل لاحضاني تعودونا
ما كنت اعهدكم تسلون والدةً   تقضي التياعاً وانتم لا تبالونا

...

غداً اكون ايا اماه عند ابي   مروع القلب باكي العين محزونا
على ضريحك اجثو كل باكرةٍ   واطلق الدمع حيناً والرثا حينا

رحلة الى فلسطين

ليس قصدي في هذه المقالة ان اسرد تاريخ فلسطين وما طرأ عليها من الحوادث بل ان اضع دليلاً لزائري الاراضي المقدسة التي هي في نظر النصارى والمسلمين واليهود مجموعة آثار تاريخية كالكنائس والاديرة والمعابد التي يؤمها الناس من كل حدبٍ وصوب على اختلاف طبقاتهم وانواعهم

في الرابع والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٤ تركت بيروت على متن سيارة الساعة الثالثة وعشرين دقيقة بعد الظهر قاصداً مدينة حيفا برفقة الصديق الياس افندي نصار وعقيلته الفاضلة السيدة هند وحين وصولنا الى الناقورة وهي الحد بين لبنان الكبير وفلسطين وقفنا امام الضابطة وقدمنا وثائقنا للتعليم عليها وبقيت السيدة نصار في السيارة فسألنا الضابط الافرنسي اين صاحبة هذه الوثيقة فيجب ان تأتي للضابطة لنراها فاجبته : ارجو منك ان ترسل نفراً وبيده الوثيقة ليتحقق اذا كانت هي بنفسها ام لا فعندئذٍ اجاب بحدة : لا شاذ في الشريعة فيجب حضورها فاجبته بكل لطف : اظن انكم تحافظون على عادات القوم وتقاليدهم فالضابطة كما تراها ممتلئة جنداً والسيدة الشرقية يصعب عليها ان تدخل المعسكر فاذا شئت تصديقنا بانها هي صاحبة الوثيقة كان به والا فلا خسارة مطلقاً والمحل قريب بارسال نفر معنا ليتحقق بنفسه فعلّم عندئذٍ على الوثائق قائلاً : ليس من حاجة الى ارسال النفر اذهبوا بسلام . وبعد تركنا الناقورة ببضع دقائق وصلنا الى المعسكر الانكليزي فافادنا الضابط بان دائرة

التفتيش في عكا وحين وصولنا علَّم المفتش على الوثائق بكل سهولة واخبرنا
بان الطريق من عكا الى حيفا عاطلة جداً وكثيرة الرمال فطلبنا منه دليلاً
باجرته وقد قطعنا الطريق الصعبة ليلاً حيث وصلنا الى حيفا الساعة العاشرة
ونصف مساءً ونزلنا في فندق نصار الجميل الحاوي كل وسائل الراحة والرخاء
واما المسافة بين بيروت وحيفا فهي على ما ظهر لي خمس ساعات في السيارة

حيفا

حيفا يبلغ عدد سكانها حسب احصاء ١٩٢٤ اربعة وعشرين الفاً من
الطوائف الثلاث النصارى والمسلمين واليهود وهي مدينة جميلة على ضفاف
المتوسط ومعدل اسعار الحاجيات بها كبيروت وقد تجولت في شوارعها بعد
رجوعي من القدس حيث مكثت بها يومين فرأيتها مثل كل مدن الشرق من
حيث ضيق اسواقها وعدم استقامة شوارعها ولكنها نظيفة بفضل سهر الحكومة
الانكليزية واما المستعمرة الالمانية في حيفا فهي آية من آيات الجمال والهندسة.
فقد حسبت نفسي هناك متمشياً في احدى مدن اوربا واميركا وليس في
احدى مدن الشرق وقد صعدت الى جبل الكرمل القائم فوق المدينة والمطل
على البحر صحبة الياس افندي نصار وعقيلته. هناك تجلت امامي الطبيعة بابهى
مناظرها حيث نظرت حيفا ورياضها الغناء والبحر وامواجه المتكسرة على
الرمال وسهول فلسطين المخصبة والكثيرة الشبه في البقاع والجبال المحيطة بها
من كل جانب. ثم دخلت مع رفيقيَّ دير الكرمليين العظيم المشيد علَى قمة هذا
الجبل كانه الحارس الامين والحصن المنيع للمدينة وبعد زيارتنا الكنيسة

استقبلنا احد الرهبان في قاعة الدير واكرم وفادتنا ثم رافقنا للتنزه تحت ظلال اشجار جبل الكرمل ورياضه وقص هناك علينا سبب سيامته كاهناً فاحببت ان اسرده في هذه المقالة لما به من التضحية وكرم الاخلاق قال :

انا اليوم بولوني التابعية وبالامس كانت تلك المقاطعة البولونية التي انا احد ابنائها من املاك النمسا ولهذا السبب كنت في الحرب الكبرى ضابطاً نمسوياً في فرقة الخيالة وقد احببت ابنة جميلة تدعى صوفي حباً يقرب من العبادة وهي كانت تبادلني نفس المحبة فبقينا مدة على هذه الحال ونحن نعلل النفس بالزفاف عند انتهاء الحرب. ففي ذات يوم عرفت بان احد الضباط يتحبب الى صوفي وقد طلب يدها فلم تقبل لعلاقاتها بي فعندئذٍ زارني الضابط الى منزلي حنقاً وطلبني للبراز قائلاً : هذه صوفي ستكون غداً للغالب في ساحة البراز فكن على استعداد تام فإما ان تصبح قاتلاً او مقتولاً فقبلت ذلك بكل طيبة خاطر وودعته عَلَى امل مبارزته في اليوم الثاني وفي تلك الليلة نمت هنيئاً لمنتصف الليل ثم استولى عليّ القلق وابتدأت افتكر في الحياة على سطح الكرة فوجدتها باطلة ونظرت تضحية محبة الذات اقرب الى التقوى من المبارزة التي من ورائها ارتكاب جرم القتل وعند الصباح ذهبت تواً الى بيت الضابط وقلت له : يا رفيقي رغماً من عبادتي لصوفي وشدة هيامي بها فاني افضل تركها لك ليس عن طريق الخوف ولكن لكي لا الطخ يدي بالدماء فعش واياها بسلام ورخاء وانصرفت ولم ارَ لي سلوة فعالة سوى الدير فانزويت ضمن جدرانه وها انا الان اشكر الله على ما فعلت لاني حصلت على الراحة التامة في حياة الانفراد والخلوة وسأقضي العمر اناجي الخالق واسبح

مبدع الكائنات حتى يغمض الموت جفني . هذه هي قصة الراهب تشف عن قلب سليم واخلاق سامية ولا شك ان في زوايا الاديار عدداً غير يسير من الرهبان والراهبات الذين التجأوا الى الدير في ساعات اليأس والقنوط فوجدوا ضمن جدرانه وبين سكونه اكبر معين ونصير على احتمال نوائب الزمان

نابلس

في اليوم الثاني تركنا حيفا الساعة ١٠ صباحاً قاصدين نابلس واول بلدة وصلنا اليها هي بلدة الشيخ ثم جادا فنهلال وهي بلدة يهودية فمجادل فالعفولة وهي بلدة مهمة فجنين وهي بلدة اسلامية كبيرة فعنزة فالسيله وهي جميلة في ينابيعها ويكثر فيها شجر التين والمشمش وهناك استرحنا قليلاً فاتى حالاً اعرابي وبيده القهوة فاضافنا واعطانا حفنةً كبيرة من التين اليابس ومن قرعون المشمش ولم يقبل منا بدلاً لقوله لنا بانه لم يعمل سوى واجبات الضيافة العربية فقط فشكرنا فضله كثيراً . وبعد تركنا السيلة وصلنا الى بلدة دير شرف ومن ثم الى نابلس القائمة في ارض كثيرة الخصب عذبة المياه جميلة المناخ تحوي البساتين والكروم على اختلاف انواعها ويكثر فيها خصوصاً شجر التين . واما عدد سكانها فيبلغ الستة عشر الفاً معظمهم مسلمون وقد نزلنا في فندق فلسطين الجميل واكلنا هناك طعام الغذاء وقد رافقنا صاحب الفندق للتنزه في احياء المدينة حيث زرنا بعض معامل الصابون لان مدينة نابلس مشهورة في هذه الصناعة وهي تشحن بالكميات الكبيرة للخارج وحين وصولنا الى اطراف المدينة

قال لنا صاحب الفندق : انظروا الى هذا الجبل الذي على يمينكم فهو يدعى جبل البركة وهذا الذي على شمالكم يدعى جبل اللعنة وهي تقاليد عبرانية قديمة لم يزل الناس حتى الان رغماً عن تقادم عهدها يؤمنون بها و يعيرونها كل اهتمام

القدس

الساعة الرابعة بعد الظهر اخذنا طريق القدس فمررنا على بلدة البيره فشفغاط فرام الله وقرب الساعة السادسة دخلنا اورشليم مدينة الانبياء والرسل ومهد النصرانية فوطئت ارض المدينة المقدسة بكل خشوع واعتبار

وفي اليوم الثاني من وصولنا تجولنا في شوارع اورشليم فرأيناها نظيفة بالنسبة الى مدن الشرق ولكنها اكثر غلاءً من بيروت واظن ذلك من كثرة تراكم السياح والزائرين وقد عرجنا على طريق جبل الزيتون فزرنا قبل وصولنا الى المحل المعهود قبور ملوك اليهود وهي مثل قبور الرومان في الاسكندرية طبقتان تحت الارض ولكنها من صخرة واحدة والقبور محفورة حفراً بها و كذلك آبار الماء من الجهة الثانية فيها محفورة ايضاً في الصخر. ولعمل كهذا يلزم الوف العملة وهو مما يدل على الذل والعبودية في الاعصر السابقة. ومن هناك ذهبنا تواً لزيارة قبور العساكر الانكليزية الذين قتلوا على ابواب المدينة المقدسة في الحرب الكبرى و بعد ان وقفنا هنيهةً خاشعين امام المدافن الصامتة اخذنا في السير الى ان وصلنا الى قصر المفوض السامي الذي كان سابقاً من املاك القيصر الالماني وهو قصر جميل للغاية مبني على تل عالٍ يشرف من

جهة على القدس ومن الجهة الاخرى على اريحا والبحر الميت وهو قائم وسط
حديقة غناء اشجارها باسقة ومروجها خضراء ما وقعت العين عَلَى اجمل منها
منظراً واتقاناً و بعد دقائق معدودة وصلنا الى بلدة طور القائمة في اعالي جبل
الزيتون وهناك ذهبنا حالاً الى محل صعود المسيح الى السماء ودخلنا الجامع
الملاصق له وصعدنا الى المأذنة حيث جلنا انظارنا الى مدينة القدس القائمة
على اربعة تلال واما ابناء القدس فيدعونهم جبالاً فعلى جبل موريا قائم الحرم
الشريف وعلى جبل صهيون يوجد قبر النبي داود وبيت يوحنا وهناك يقال
ماتت العذراء وعمل المسيح العشاء السري وعلى جبل اقرى يوجد كنيسة
القيامة وبها محل الصليب والقبر والجلجلة وعلى جبل بسذدا القدس الجديدة

جبل الزيتون

في هذا الجبل زرنا كنيسة ابانا الذي حيث هناك علم المسيح تلاميذه
الصلاة واما الكنيسة القديمة التي بنتها الملكة هيلانه فلم يبقَ منها سوى اثار
قليلة وقد شيدت بالقرب منها اميرة دي لاتور الافرنسية الكنيسة الجديدة
التي دعتها كنيسة الصليبيين وهناك رأيت (الابانا) مكتوبة بكل لغات العالم
تقريباً اعني بخمس وثلاثين لغة و بالقرب منها كنيسة روسية تعدُّ من الهياكل
الجميلة في اورشليم . وقد زرنا بستان الجثمانية موضع اسر المسيح وشاهدنا العامود
الذي كان متكئاً عليه حين اسره . واما قبر مريم العذراء فقائم في لحف
جبل الزيتون بالقرب من وادي يوشفاط وقد وقفت وحدي برهة امام تلك

المشاهد التاريخية وتأملت في حياة المسيح العظيم الذي غير وجه الارض وقلب شرائعها ومعتقدات سكانها بطناً لظهر

الحرم الشريف

هو احد الاماكن الاربعة المقدسة عند المسلمين وهو يشغل تقريباً سدس مساحة القدس القديمة وقد زرته فبدا امامي انه من ايات الهندسة والفن والارض مفروشة بالسجاد والطنافس وفي قلب الحرم نظرت الصخرة التاريخية التي يقال عنها بان ابراهيم الخليل كان يقدم الذبائح عليها للرب وتحت الصخرة يوجد مغارة بئر الارواح · واما الجامع الاقصى فملاصق للحرم الشريف وهناك صلى عمر ابن الخطاب حين فتحه القدس · وقد دعته النصارى في تلك الايام ليصلي في كنيسة القيامة فرفض دعوتهم قائلاً : اذا فعلت ذلك اخاف ان يطلبها المسلمون ملكاً لهم وهذا نظر بعيد وفكر ثاقب لرجل الاسلام العادل · دخلت الجامع الاقصى فرأيت افواج المسلمين يتلون الايات القرآنية بصوت عال و بكل خشوع وعبادة لصدق اعتقادهم في نبيهم وما أنزل عليه و بالقرب من الجامع المذكور ياخور الملك سليمان واما صور القدس فهو قائم على حدود ساحة الحرم وقد تسلقته فلاح امامي وادي قدرون و بلدة سلوان ووادي يوشفاط وجبل الزيتون · هناك وقفت برهة امام الباب الذهبي حيث يقال بان المسيح دخل باكياً الى اورشليم وانحنيت امام هذا الباب التاريخي الذي له المقام الاعظم عند المسلمين والنصارى · و يقال ايضاً ان الحرم الشريف مبني على انقاض هيكل سليمان

كنيسة القيامة

هذه الكنيسة قائمة على جبل اقرى بنتها الملكة هيلانة سنة ٣٣٥ وقد هدمت مراراً ثم اعيد بناؤها وهي تقسم الى اقسام عديدة لجميع الطوائف المسيحية. واول شيء وقع بصري عليه وانا في داخل الكنيسة الجلجلة وهي مكان صلب السيد المسيح ثم الحجر الذي غسل عليه وموضع وقوف العذراء حزينة منتظرة الجثة ومن ثم ذهبت الى القبر المقدس القائم في قلب كنيسة القيامة وهو مبني من غرفتين الاولى شكل مذبح والثانية القبر ولا يسع هناك اكثر من خمسة مصلين ويدخل الناس بالالوف في كل عام لزيارة القبر ويخرجون ووجوههم لجهته وقد جثوت هناك امام قبر المخلص لاني شعرت بالرغم مني بكل خشوع واعتبار لم اشعر بمثله في حياتي . هناك تأملت ملياً في تعاليم الناصري القائمة كلها على التضحية والعفو والرحمة والمحبة. وقد وجدت بالقرب من القبر كنيسة الروم وهي اجمل ما في القيامة ويتلوها كنيسة اللاتين ثم نزلت سلماً حجرياً قديماً فوصلت الى كنيسة القديسة هيلانة ورأيت تمثالها قائماً على صخرة طبيعية وهي التي وجدت الصليب وعرفت مكان الجلجلة والقبر وبنت الكنيسة المذكورة التي تحوي اليوم من الجواهر والتحف الثمينة ما يقدر بملايين الليرات

قلعة داود

زرت هذه القلعة القائمة في منتصف المدينة وهي مزيج من بناء اليهود

والرومان والعرب والصليبيين والاتراك وقد نظرتها رغماً من حجارتها الصامتة تشهد عما حلّ في اورشليم من الخراب والدمار والحروب المتواصلة في الاعصر السابقة

جبل صهيون

في هذا الجبل ماتت العذراء في بيت يوحنا والكنيسة المشيدة هناك تدعى اليوم كنيسة الحزن وبالقرب منها جامع النبي داود حيث يقال ان المسيح عمل العشاء السري وفي مغارة الجامع قبر النبي المذكور

واما عدد سكان القدس حسب احصاء سنة ١٩٢٢ فيبلغ ٧٢٠٧٩ ساكن منهم ٣٤ الف يهودي و ١٣٤١٣ الف مسلم و١٤٦٦٦ مسيحي ولا صناعة في اورشليم سوى عمل المسابح والصلبان والشغل من خشب الزيتون ويسكن بها عدد غير يسير من الاوربيين والاميركان

بيت لحم

في ٢٩ نيسان سنة ١٩٢٤ زرت مدينة بيت لحم التي تبعد عن القدس عشرين دقيقة في السيارة وعدد سكانها حسب احصاء ١٩٢٢ ٦٦٥٨ ساكناً فدخلت كنيسة الميلاد الخاصة جميع الطوائف المسيحية وقد بنت هذه الكنيسة الملكة هيلانة سنة ٣٣٠ مسيحية . واما محل ولادة المخلص ففي مغارة الكنيسة التي كانت مذود البقر . هناك تأملت طويلاً في ولادة الناصري العظيم وفي اسرار ديانته السمحاء . ثم زرت مغارة قتل الاطفال بامر الملك

هيرودوس ثم هيكل القديس يوسف وهناك يقال تراءى له الملاك ليذهب بالصبي وامه الى مصر · وقد زرت ايضاً قبر القديس ايرونيموس الذي ترجم التوراة من اللغة العبرانية الى اللغة اللاتينية والمغارة التي عاش فيها اربعين سنة · واما مغارة الحليب حيث اختبأت مريم العذراء قبل ذهابها الى مصر وهناك كانت ترضع ابنها فقريبة جداً من كنيسة الميلاد و كذلك حقل الرعاة

مدينة بيت لحم جميلة جداً ومعظم سكانها نصارى ولكن اكثرهم مهاجرون الى الاقطار الاميركية كأبناء لبنان وهم اهل كدّ وجدّ احرزوا قصب السبق في بلاد المهجر كما احرزوه في عقر دارهم وقد رأيت في هذه المدينة الصغيرة القصور الشاهقة والرياض الغناء مما يدل على سعة في العيش ورخاء واهم صناعة بيت لحم الصدف ومنبعه البحر الاحمر وهم يصنعون منه المسابح العرقية على اختلاف انواعها والصلبان والعلب الجميلة وما شاكل وايضاً حجر سيدي موسى ولونها اسود ويصنعون منها مزاهر وتماثيل صغيرة وخلاف اشياء · واما النساء عدا عن اشغال البيت والحقل فيشتغلن في التطريز على اليد وشغلهن نظيف ومقبول للغاية

برك سليمان — الخليل

من بيت لحم اخذت طريق الخليل فوصلت الى بئر سليمان وهو نبع عذب يجري بالقرب من قلعة مهدومة يقال انها من بناء صلاح الدين الايوبي · ثم ذهبت الى برك سليمان المشهورة وهي ثلاث برك فوقفت هناك هنيهة اتأمل

في ايام العبرانيين وتاريخهم المجيد وقد سمعت بان الحكومة ساعية اليوم لجرّ هذه المياه العذبة للقدس . ثم واصلت السير الى مدينة الخليل التي تبعد عن بيت لحم نصف ساعة في السيارة وهي مدينة اسلامية عدد سكانها ستة عشر الف ساكن وليس فيها من النصارى سوى ٧٠ نفساً ومن اليهود اربعمائة وقد زرت الحرم الشريف هناك من الخارج وفيه على ما يقال قبر ابراهيم واسحق وصاره . واما المدينة فهي لم تزل متقهقرة وبيوتها رثة قديمة واكثر سكانها يجهلون القراءة والكتابة

عين كارم

في ٣٠ نيسان زرت هذه البلدة التي تبعد عن القدس عشرين دقيقة في السيارة وقد مررت قبل وصولي اليها على مستعمرة يهودية منظمة تدعى قبر شاوول . وفي عين كارم يوجد قرب الالفي ساكن من الطوائف الثلاث النصارى والمسلمين واليهود . هناك دخلت دير الزيارة للفرنسيسكان حيث يقال انه في نفس الكنيسة اتت العذراء لزيارة اليصابات واحست بالطفل ويوجد ايضاً بئر الماء الذي كانت تشرب منه حين زيارتها بيت ذكريا وبالقرب من دير الفرنسيسكان قائم الدير الروسي وهو لا يقل عنه اهميةً واتقاناً وقد زرت ايضاً محل ولادة يوحنا في داخل الكنيسة المشيدة على اسمه والصخرة التي كان يكرز عليها ويعلم رسله الايمان الصحيح

بلدة عين كارم جميلة للغاية ومملوءة من البساتين والازهار والكروم . ماؤها عذب ولذيذ الطعم وفوق نبع البلدة قائم جامع عين كارم وفي داخل النبع

وجدت النساء يغسلن الثياب ولا اثر للنظافة هناك ورغماً عن ذلك قد شربت الماء من هذا النبع المعروف في التاريخ المقدس الذي كان يشرب منه المسيح من يد ابنة صغيرة تدعى هيلانة

بحر الميت — الاردن — اريحا

في غرة ايار ركبت السيارة قاصداً بحر الميت فاريحا وقد قطعت الطريق من اورشليم الى البحر المذكور بين اودية وتلال كثيرة ولكنها قليلة الشجر ولا يوجد على الطريق سوى قرية العاذرية ومزار النبي موسى واما المناظر الطبيعية فهي فائقة الجمال وقد وقفت ساعة على شاطئ بحر الميت المحاط بالجبال من الجوانب الاربعة ومن هناك وقع نظري على جبل الفشخة وجبل البلقاء وعين جدي وجبل يوشع وجبل قرنطل القائم فوق بلدة اريحا ، ففي جبل البلقاء يوجد بلدة المعين والكرك ومأدبة وعمان وناعور وخلافها وفي جبل يوشع بلدة السلط وغيرها بيد اني لم ارَ على ضفاف بحر الميت سوى بعض بيوت صغيرة شادتها الحكومة لاجل صنع الملح حيث وقع نظري على بعض ممالح قائمة علَى ضفافه . واما الاردن فيبعد عن البحر المذكور ربع ساعة في السيارة وهناك جلست على ضفاف النهر المقدس وشربت من مائه وتمتعت بنسيمه واكلت تحت ظلال اشجاره وكأني بمياهه الجارية الى بحر الميت تحدث عن العصور السالفة وما جرى هنالك من العجائب والغرائب وقد يكفي هذا النهر جلالاً واعتباراً في اعين المسيحيين حيث هناك اعتمد السيد المسيح عن يد يوحنا

بلدة اريحا صغيرة جداً وهي تبعد عن القدس ساعتين في السيارة وعن بحر الميت نصف ساعة فقط وهناك صام المسيح اربعين يوماً . وقد استرحت قرب الساعة على فوار عين السلطان الذي يبعد عن البلدة خمس دقائق وهو جميل للغاية تتدفق مياهه الغزيرة بين البساتين الغضة الجميلة المملوءة من اشجار المشمش والليمون وما شاكل . واما اريحا فهي قائمة تحت جبل قرنطل ويؤمها كثير من ابناء اورشليم في فصل الشتاء لانها تعدّ من الاراضي الحارة واما في الصيف فلا يسكنها الا المزارعون

الناصرة

في اليوم الثاني من ايار زرت هذه المدينة التي تبعد عن القدس اربع ساعات في السيارة وعن حيفا ساعة لا غير . وعدد سكانها ٧٣٧٧ اكثرهم نصارى ويكفي هذه المدينة شرفاً بانها كانت مسقط رأس السيد المسيح وقد دُعينا نصارى نسبةً اليها . هناك نزلت في فندق (الجلجلة) وهو فندق جميل ونظيف للغاية وقد تجولت في شوارع هذه المدينة الصغيرة فالفيتها كثيرة الكنائس والاديرة ماؤها عذب ونسيمها بليل ومنظرها عن بعيد في قلب الجبل يشبه منظر بعض قرى لبنان الكبيرة . هناك زرت كنيسة الارض المقدسة للفرنسيسكان ويقال ان الملاك بشر مريم العذراء بالمولود في هذه البقعة . ودخلت ايضاً كنيسة البلاطه حيث جلس التلاميذ للعشاء (وهي تسمى ايضاً كنيسة مائدة المسيح) وكنيسة مار انطونيوس للموارنة قائمة في قلب المدينة وهي من الكنائس المبهجة في الناصرة واما جبل الطور المشهور فهو يبعد عشر دقائق في السيارة عن المدينة ويدعى ايضاً جبل التجلي

طبرية — الملاحة — سمخ

من مدينة الناصرة ذهبت الى طبرية فمررت على بلدة الرينه فكفركلا ثم وصلت الى المدينة المذكورة التي تبعد ساعة في السيارة عن مدينة المسيح وهي قائمة على ضفاف البحيرة المشهورة في التاريخ المقدس وعدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٢٢ قرب السبعة الاف نفس اكثرهم يهود · وقفت ساعة على ضفاف بحيرة طبرية متأملاً في صاحب الانجيل الذي وقف من ظرف عشرين قرناً وقفته المشهورة عَلَى نفس الشاطىء وقال لبعض الصيادين اتركوا شباككم واتبعوني فسأجعلكم صيادي الناس وهكذا كان

زرت حمامات طبرية المعدنية المشهورة بشفاء الامراض العصبية ثم واصلت السير الى بلدة الملاحة وهي بلدة يهودية متقنة ومنها الى سمخ وهي قرية اسلامية صغيرة للغاية ومبنية على اخر البحيرة · واما الطريق من مدينة طبرية الى سمخ فهي قائمة عَلَى ضفاف البحيرة ومناظرها الطبيعية من اجمل المناظر مما يبهج العين والقلب معاً وبالاخص بين بلدة الملاحة وسمخ حيث من هناك يتفجر نهر الاردن من بحيرة طبرية وقد وقفت برهة امام انفجاره متكئاً عَلَى احد عواميد الجسر القائم بين انفصال النهر عن البحيرة وقد نظرت الماء يتدفق بكل غزارة ولكن بكل سكون وهدوء وهو هكذا يجري بين ظلال الاشجار القائمة على ضفتي النهر المقدس الذي يدعى ايضاً نهر الشريعة

بحيرة طبرية تربح مياهها من الجداول التي تصب بها ومن الينابيع التي

تصدر بالقرب منها . ماؤها عذب ولذيذ للغاية وهي تحوي جميع انواع الاسماك بخلاف بحر الميت الذي ليس فيه اثر للحياة . رأيتها محاطة بالجبال الآتية فوق سمخ جبل الحمة و بالقرب منه جبل حوران ثم جبل اسكوفة فجبل الزور فجبل المسعدية وازاء مدينة طبرية جبل البطيحة وجبل المجدل وجبل تلحوم واما قرية تبغة فتبعد ربع ساعة في السيارة عن طبرية وتلحوم ٣٠ دقيقة

بعد زيارة ما ذكرت رجعت قافلاً الى الناصرة وفي اليوم الثاني صباحاً عدت برفقة الصديق الياس افندي نصار وعقيلته الفاضلة الى مدينة حيفا التي سبق كلامي عنها في المقالة الاولى وهناك قابلت صديق المدرسة القديم الدكتور قيصر افندي الخوري الشاعر الخفيف الروح

في اليوم السادس من ايار عزمت على العود الى بيروت صحبة رفيقيّ المذكورين فاخذت الوثائق وذهبت للتعليم عليها من القنصل الافرنسي وهناك طلب مني كاتب القنصلاتو ٤٨ غرشاً ذهباً على كل وثيقة و كذلك على سائق السيارة فقلت للكاتب نحن قصدنا فلسطين كم يوم لاجل الزيارة كما ترى من تاريخ وثائقنا وقد دفعنا على كل وثيقة للحكومة اللبنانية عشرين غرشاً وللحكومة الانكليزية اربعمائة وخمسة وعشرين غرشاً سورياً لاجل المرور الى الاراضي المقدسة واما الان فلاجل العود الى الوطن العزيز بعد تغيبنا عنه ١٢ يوماً لا غير لا داع يدعو القنصلاتو لقبض هذه القيمة وفوق ذلك فالقنصل الانكليزي في بيروت يعلم على وثائق الفلسطينيين العائدين الى وطنهم دون ان يتقاضاهم بدلاً فاجاب : هذه هي اوامر باريس فعندئذٍ دفعت وانصرفت ولكن مما زادني حزناً واسفاً رؤيتي احدى اللبنانيات الفقيرات في القنصلاتو

وهي تطلب من الكاتب بكل تواضع وحنو التعليم على وثيقتها وهو يتهدد ويتوعد بدفع الرسم قائلاً لها بلسان حاد ومزاج عصبي يقطر غيظاً وحنقاً مالك يا امرأة سوى امرين : اما الدفع للتعليم على الوثيقة واما الخروج من هنا عاجلاً لان لاطاقة لي عليك فقلت للكاتب : تمهل على المرأة وكن حليماً ويجب ان تفاوض القنصل لاستثناء الفقراء من ضريبة الدخول الى وطنهم وكن على ثقة تامة باني سأكتب رحلتي الى فلسطين وسأذكر هذا الحادث عبرة لمن يعتبر فاجابني لك ما شئت فنحن دائماً نرحم الفقراء . واظن كرحمة المرأة امامي

كنت اود ان لا اسرد هذه الحادثة البسيطة ولكني احببت عدم اغفالها لاجل لفت الحكومة اللبنانية وحكومة الانتداب لهذا الامر . فالفقراء اللبنانيون كثيرون ولا قبل لهم لدفع ضريبة الدخول فعلى الحكومة والحالة هذه اسعافهم للعود الى وطنهم لا ايجاد العقبات في سبيلهم

فهرس

اجتماعيات

ارجو المعذرة من القراء لعدم تصحيح بعض الاغلاط المطبعية

